

المجلد السادس

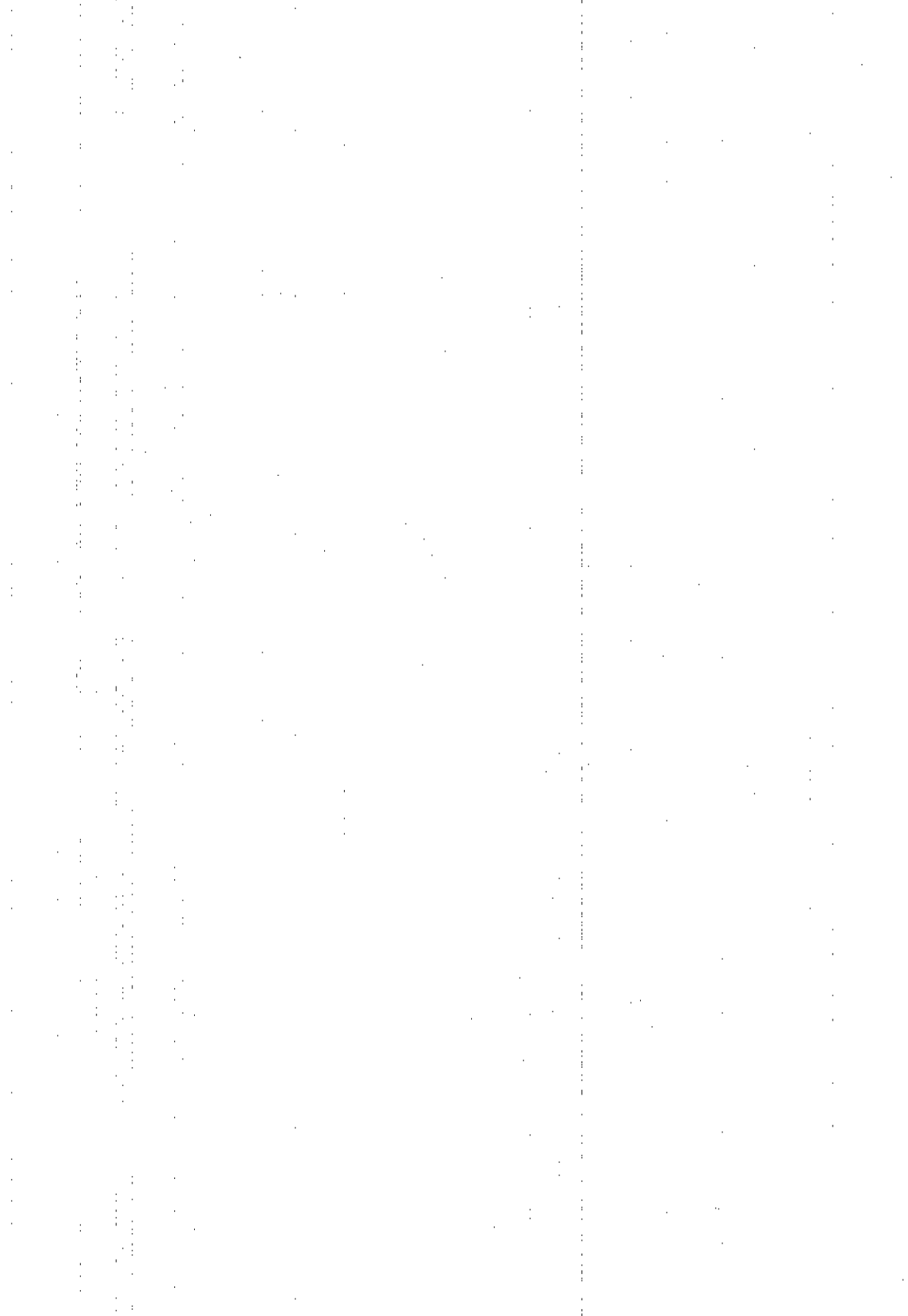
من

تيسير الكريم الرحمن

في

تفسير كلام المنان

من ممن الله على عبده وابن عبده وابن أمته
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي



تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طَسَّ ١﴾ تَكَ مَا يَثُ الْكِنْبِ الْمِينِ ﴿١﴾ نَتَلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ (١) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣﴾ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٤﴾ وَنُكِنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أَرْمُوزٍ أَنْ أُضِيعَ فَإِذَا خِفتِ عَلَيْهِ فَالْقَبِيهِ فِي الْبِرِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَالْقَطْعُ مَالِ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٧﴾ وَقَالَتْ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَّ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٨﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَرْمُوزٍ فَرِحًا إِنْ كَادَتْ لِتُبَدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِبِ قَبْرَتِ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُورٌ ﴿١١﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَيْكَ أُبِيهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَلَمَّذَ أَنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَأَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعْتَنَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَىٰ الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ وَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٥﴾ قَالَ

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْحَبَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي
 اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ
 عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ نَبْتَلِيكَ كَمَا فَعَلْنَا بِآلِئِمِينَ إِنْ تَرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي
 الْأَرْضِ وَمَا تَرِيدُ أَنْ نَكُونَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَسُولٌ مِنَ الْمَدِينَةِ يَسْمَعُ قَالَ يَمْوَسَىٰ ابْنَ
 الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ
 نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ
 ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ
 تَذَوْدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبْرَأَ شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى
 لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
 تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ
 عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ
 إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَاتَيْنِ عَلَىٰ
 أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حِجَابٌ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَ عَلَيْكَ سَكِينَتِي
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ
 عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ
 الطُّورِ كَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمُ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ
 النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ
 مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوَسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنْ أَلِيَّ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تهتت
 كأنها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعْقَبُ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأُمِينِينَ ﴿٣٢﴾ أَسْأَلُكَ بِدَعْوَةِ
 فِي جَيْبِكَ فَخَرَجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَرٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَانِحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَلَيْكَ بُرْهَانًا مِنْ
 رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
 فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٤﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٥﴾ قَالَ سَنُنْشِئُ عَصَاكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا
 بِأَيِّتِنَا أَنْتُمَا وَسَيَّ آتَيْنَاكُمَا الْأَعْيُنَ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا

الخطابُ ويوجّه الكلام؛ حيث إنَّ معهم من الإيمان ما يُقبَلون به على تدبُّر ذلك وتلقّيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون به إيماناً و يقيناً وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم؛ فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجّة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه.

﴿٤﴾ فأول هذه القصة: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾: في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأغلبن فيها، ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾؛ أي: طوائف متفرقة يتصرف فيهم بشهوته وينفذ فيهم ما أراد من قهره و سطوته، ﴿يستضعف طائفة منهم﴾: وتلك الطائفة هم بنو إسرائيل، الذين فضّلهم الله على العالمين، الذي ينبغي له أن يكرمهم ويجلّهم، ولكنه استضعفهم بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أرادهم فيهم، فصار لا يبالي بهم ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾: خوفاً من أن يكثرُوا فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك. ﴿إنه كان من المفسدين﴾: الذين لا قصد لهم في صلاح^(١) الدين ولا صلاح^(١) الدنيا. وهذا من إفساده في الأرض.

﴿٥﴾ ﴿ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾: بأن نُزيل عنهم مواد الاستضعاف ونُهلك من قواهم ونخذل من ناوهم، ﴿ونجعلهم أئمة﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لابد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة، ﴿ونجعلهم الوارثين﴾: للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة.

﴿٦﴾ ﴿ونمكن لهم في الأرض﴾: فهذه الأمور كلها قد تعلقت بها إرادة الله وجرث بها مشيئته. ﴿و﴾: كذلك نريد أن ﴿نُري فرعون وهامان﴾: وزيره ﴿وجنودهما﴾: التي بها صالوا، وجالوا وعلوا وبعوا، ﴿منهم﴾؛ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿ما كانوا يخذرون﴾: من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم وكسر شوكتهم وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك؛ فكل هذا قد أراده الله، وإذا أراد أمراً؛ سهل أسبابه ونهج طرقه، وهذا الأمر كذلك؛ فإنه قدر وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود.

(١) في (ب): «إصلاح».

﴿٧﴾ فأول ذلك لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، أوحى إلى أمه أن ترضعه ويمكث عندها، ﴿فإذا خفت عليه﴾: بأن أحسستِ أحداً تخافين عليه منه أن يوصله إليهم، ﴿فألقيه في اليم﴾؛ أي: نيل مصر، في وسط تابوت مغلق، ﴿ولا تخافي ولا تحزني إنا رأوه إليك وجعلوه من المرسلين﴾: فبشرها بأنه سيرده عليها وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم ويجعله الله رسولاً، ولهذا من أعظم البشائر الجليلة. وتقديم هذه البشارة^(١) لأم موسى ليطمئن قلبها، ويسكن روعها.

﴿٨﴾ فكأنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، وساقه الله تعالى، حتى التقطه ﴿أل فرعون﴾: فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا ووجدانه؛ ﴿ليكون لهم عدواً وحزناً﴾؛ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط أن يكون عدواً لهم وحزناً يحزّنهم؛ بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل قيض الله أن يكون زعيمهم يتربى تحت أيديهم وعلى نظريهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم ومنع كثير من التعدييات قبل رسالته؛ بحيث إنه صار من كبار المملكة، وبالطبع لا بد أن يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه، هذا وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادهم ينازع ذلك الشعب القاهر العالي في الأرض كما سيأتي بيانه، وهذا مقدمة للظهور؛ فإن الله تعالى من سننه الجارية أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئاً فشيئاً، ولا تأتي دفعة واحدة. وقوله: ﴿إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين﴾؛ أي: فأرذنا أن نعاقبهما على خطئهما، ونكيدهم جزاءً على مكرهم وكيدهم.

﴿٩﴾ فلما التقطه آل فرعون؛ حزن الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة المؤمنة آسية بنت مزاحم، ﴿وقالت﴾: هذا الولد ﴿قرّة عين لي ولك لا تقتلوه﴾؛ أي: أبقه لنا لتقرّ به أعيننا، ونسرّ به في حياتنا، ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً﴾؛ أي: لا

(١) في (ب): «البشائر».

يخلو: إمّا أن يكون بمنزلة الخدم الذين يَسْعَوْنَ في نفعنا وخدمتنا، أو نرقّيه درجة^(١) أعلى من ذلك؛ نجعلهُ ولدًا لنا ونكرّمهُ ونجّله. فقَدَّرَ اللهُ تعالى أَنَّهُ نَفَعَ امرأةَ فرعونَ التي قالت تلك المقالة؛ فإنّه لما صار قُرَّةَ عين لها وأحبّته حبًّا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق، حتى كَبُرَ، ونبأه اللهُ، وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي اللهُ عنها، وأرضاهَا. قال اللهُ تعالى [عن] هذه المراجعات والمقاولات في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾: ما جرى به القلم، ومضى به القدر من وصوله إلى ما وصل إليه. ولهذا من لطفه تعالى؛ فإنّهم لو شعروا؛ لكان لهم وله شأن آخر.

﴿١٠﴾ ولما فقدت موسى أمه حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها على مقتضى الحالة البشريّة، مع أنّ الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدّها برده. ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾؛ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾: فبثناها، فصبرت ولم تُبْدِ به؛ ﴿لَتَكُونَ﴾: بذلك الصبر والثبات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فإنّ العبد إذا أصابته مصيبةٌ فصبر وثبت؛ ازداد بذلك إيمانه، ودلّ ذلك على أنّ استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿١١﴾ ﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأختي قصيه﴾؛ أي: اذهبي فقُصِي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه؛ من غير أن يُحَسَّ بك أحدٌ أو يشعروا بمقصودك، فذهبت تقصيه، ﴿فبصرت به عن حُجُبٍ وهم لا يشعرون﴾؛ أي: أبصرت على وجه كأنّها مارة لا قصد لها فيه، وهذا من تمام الحزم والحذر؛ فإنّها لو أبصرت وجاءت إليهم قاصدة؛ لظنّوا بها أنها هي التي ألقته، فربّما عزموا على ذبحه عقوبةً لأهله.

﴿١٢﴾ ومن لطف الله بموسى وأمه أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجوه إلى السوق رحمةً به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته وهو بتلك الحال، ﴿فقالت هل أدلّكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾: ولهذا جُلُّ غرضهم؛ فإنّهم أحبّوه حبًّا شديدًا، وقد منعه اللهُ من المراضع، فخافوا أن يموت.

﴿١٣﴾ فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على الترغيب في أهل هذا البيت بتمام حفظه وكفالتِه والنصح له؛ بادروا إلى إجابتها، فأعلمتهم ودلّتهم على أهل هذا البيت. ﴿فردّذناه إلى أمه﴾: كما وعدناها بذلك؛ ﴿كي تقرّ عينها ولا

(١) في (ب): «منزلة».

تَحَزَنَ ﴿١٤﴾: بحيث إنه تربى عندها على وجه تكون فيه آمنة مطمئنة تفرح به وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾: فأريناها بعض ما وعدناها به عياناً ليطمئن بذلك قلبها ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾: فإذا رأوا السبب متشوشاً؛ شوش ذلك إيمانهم؛ لعدم علمهم الكامل أن الله تعالى يجعل المحن والعقبات الشاقة^(١) بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة.

فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون يتربى في سلطانهم ويركب مراكزهم ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستتكر ملازمته إياها و[حنوها عليه]^(٢). وتأمل هذا اللطف وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقيه وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس هو الرضاع الذي بسببه سُميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿١٤﴾ ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾: من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿وَاسْتَوَى﴾: كملت فيه تلك الأمور ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾؛ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً. ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الله، المحسنين لخلق الله؛ يعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم. ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾: إما وقت القائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾: [أي] يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿وهذا من عدوّه﴾: القبط، ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوّه﴾: لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه ويرجى من بيت المملكة والسلطان. ﴿فوكزه موسى﴾؛ أي: وكز الذي من عدوّه استجابة لاستغاثة الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾؛ أي: أماته من تلك الوكزة لشدها وقوة موسى. فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾؛ أي: من تزيينه ووسوسته. ﴿إنه عدو مضل﴾

(٢) في (أ): «حنوه عليها».

(١) في (ب): «المحن الشاقة».

مبين: ﴿فَلذَلِكَ أَجْرِيْتُ مَا أَجْرِيْتُ بِسَبَبِ عِدَاوَتِهِ الْبَيْنَةَ وَحَرَصَهُ عَلَى الْإِضْلَالِ. ثُمَّ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ، فَذَكَرَ رَبِّي أَنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَقَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾: خصوصاً للمُخْتَبِينَ إليه، المبادرين للإنباء والتوبة؛ كما جرى من موسى عليه السلام، ﴿ذَكَرَ قَالَ﴾ موسى: ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾: بالتوبة والمغفرة والنعم الكثيرة، ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيْرًا﴾؛ أي: مُعِينًا وَمَسَاعِدًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: لَا أَعِينُ أَحَدًا عَلَى مَعْصِيَةٍ. وَهَذَا وَعْدٌ مِنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبِ مِثَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعِينَنَّ مُجْرِمًا كَمَا فَعَلَ فِي قَتْلِ الْقَبْطِيِّ، وَهَذَا يَفِيدُ أَنَّ النِّعْمَ تَقْتَضِي مِنَ الْعَبْدِ فِعْلَ الْخَيْرِ وَتَرْكَ الشَّرِّ.

﴿١٨ - ١٩﴾ فَلَمَّا جَرَى مِنْهُ قَتْلُ الَّذِي هُوَ مِنْ عَدُوِّهِ؛ أَصْبَحَ ﴿فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾: هَلْ يَشْعُرُ بِهِ أَلْ فَرَعُونَ أَمْ لَا؟ وَإِنَّمَا خَافَ لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَتَجَرَأُ أَحَدٌ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ سِوَى مُوسَى مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ؛ ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾: عَلَى عَدُوِّهِ. ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾: عَلَى قَبْطِيٍّ آخَرَ، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى﴾: مُوْبِحًا عَلَى حَالِهِ: ﴿إِنَّكَ لَعَفْوِيٌّ مَبِينٌ﴾؛ أي: بَيِّنُ الْغَوَايَةِ ظَاهِرُ الْجَرَاءَةِ، ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾: مُوسَى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾: أَي لِهَذَا وَالْمَخَاصِمِ الْمَسْتَصْرِخِ لِمُوسَى؛ أَي: لَمْ يَزَلِ اللَّجَاجُ بَيْنَ الْقَبْطِيِّ وَالْإِسْرَائِيلِيِّ، وَهُوَ يَسْتَعِيْثُ بِمُوسَى، فَأَخَذَتْهُ الْحَمِيَّةُ، حَتَّى هَمَّ أَنْ يَبْطِشَ بِالْقَبْطِيِّ، فَذَكَرَ ﴿قَالَ﴾ لَهُ الْقَبْطِيُّ زَاجِرًا لَهُ عَنْ قَتْلِهِ: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾: لِأَنَّ مِنْ أَعْظَمِ آثَارِ الْجَبَّارِ فِي الْأَرْضِ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ﴾: وَإِلَّا؛ فَلَوْ أَرَدْتَ الْإِصْلَاحَ؛ لَحُلَلْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مِنْ غَيْرِ قَتْلِ أَحَدٍ. فَانْكَفَّ مُوسَى عَنْ قَتْلِهِ، وَازْعَوَى لَوْعْظِهِ وَزَجْرِهِ.

﴿٢٠﴾ وَشَاعَ الْخَبْرُ بِمَا جَرَى مِنْ مُوسَى فِي هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ حَتَّى تَرَاوَدَ مَلَأَ فَرَعُونَ وَفَرَعُونَ عَلَى قَتْلِهِ، وَتَشَاوَرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَقِيَضَ^(١) اللَّهُ ذَلِكَ الرَّجُلَ النَّاصِحَ، وَبَادَرَهُمْ إِلَى الْإِخْبَارِ لِمُوسَى بِمَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ رَأْيُ مَلْئِكِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾؛ أَي: رَكُضًا عَلَى قَدَمَيْهِ مِنْ نُضْجِهِ لِمُوسَى وَخَوْفِهِ أَنْ يَوْقِعُوا بِهِ قَبْلَ أَنْ يَشْعُرَ، فَقَالَ: ﴿رَبِّا مُوسَى إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتِمُرُونَ﴾؛ أَي: يَتَشَاوَرُونَ فِيكَ؛ ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ﴾: عَنِ الْمَدِينَةِ ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾: فَامْتَثَلَ نُصْحَهُ.

(١) فِي (ب): «وَقِيضَ».

﴿٢١﴾ ﴿فخرج منها خائفاً يترقب﴾: أن يُوقَع به القتلُ، ودعا الله و ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾: فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضباً من غير قصدٍ منه للقتل؛ فتوَعَّدْهم له ظلمَ منهم وجراءً.

﴿٢٢﴾ ﴿ولمّا توجهتْ لِقَاءَ مَدْيَنَ﴾؛ أي: قاصداً بوجهه مدينَ، وهو جنوبي فلسطين؛ حيث لا ملك لفرعون، ﴿قال عسى ربِّي أن يَهْدِيَنِي سِوَاءَ السَّبِيلِ﴾؛ أي: وسط الطريق المختصر الموصل إليها بسهولةٍ ورفقٍ. فهده الله سواء السبيل، فوصل إلى مَدْيَنَ.

﴿٢٣﴾ ﴿ولمّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وجدَ عليه أُمَّةً من الناس يسقون﴾: مواشيهم، وكانوا أهل ماشيةٍ كثيرة، ﴿ووجد من دونهم﴾؛ أي: دون تلك الأمة ﴿امراتين تذودان﴾: غَمَّهما عن حياض الناس؛ لعجزهما عن مزاحمة الرجال، ويخليهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿قال﴾: لهما موسى: ﴿ما حَطَبُكُما﴾؛ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يُضدِرَ الرِّعاءُ﴾؛ أي: قد جرت العادةُ أنه لا يحصلُ لنا سقي حتى يُضدِرَ الرِّعاءُ مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجوُّ؛ سقينا، ﴿وأبونا شيخٌ كبيرٌ﴾؛ أي: لا قوَّة له على السقي، فليس فينا قوَّةٌ نقتدِرُ بها، ولا لنا رجالٌ يزايمون الرِّعاء.

﴿٢٤﴾ ﴿فرق لهما موسى عليه السلام ورجمهما﴾: فسقى لهما: غير طالبٍ منهما الأجرَ، ولا له قصدٌ غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرِّ وسط النهار؛ بدليل قوله: ﴿ثمَّ تولَّى إلى الظلِّ﴾؛ مستريحاً لتلك الظلال بعد التعب، ﴿فقال﴾ في تلك الحالة مستزقاً ربه: ﴿ربِّ إنِّي لما أنزلت إليَّ من خيرٍ فقيرٌ﴾؛ أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقُهُ إليَّ وتيسرُهُ لي، وهذا سؤالٌ منه بحالِهِ، والسؤال بالحال أبلغُ من السؤال بلسان المقال.

﴿٢٥﴾ ﴿فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً، وأما المرأتان؛ فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تمشي على استحياء﴾، وهذا يدلُّ على كرم عنصريها وخلقها الحسن؛ فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير وال خادم الذي لا يستحي منه عادة، وإنَّما هو عزيز النفس، رأث من حسن خُلُقِهِ ومكارم أخلاقه ما أوجب لها الحياء منه، ﴿قالت﴾: له: ﴿إنَّ أبي يدعوكَ لِيَجْزِيكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لنا﴾؛ أي: لا لمنَّ عليك، بل أنت

الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾: من ابتداء السبب الموجب لهربه إلى أن وصل إليه، ﴿قَالَ﴾: له مسكناً رزوعه جابراً قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: ليذهب خوفك ورزوعك؛ فإن الله نجاك منهم حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾؛ أي: إحدى ابنتيه: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾؛ أي: اجعله أجيراً عندك يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾؛ أي: إن موسى أولى من استؤجر؛ فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر من جمعهما؛ [أي]: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقدتهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما؛ فإن العمل يتم ويكمل. وإنما قالت ذلك لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده بذلك وجه الله تعالى.

﴿٢٧﴾ ﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتِي هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي﴾؛ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثَمَانِي حَجَّجَ﴾؛ أي: ثماني سنين، ﴿فَإِنْ أْتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ﴾: تبرع منك لا شيء واجب عليك. ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْقَ عَلَيْكَ﴾: فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما استأجرتك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه. ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾: فرغبه في سهولة العمل وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه أبلغ من غيره.

﴿٢٨﴾ ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام مجيباً له فيما طلب منه: ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾؛ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك، ﴿أَيُّمَا الْأَجْلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾: سواء قضيت الثمان الواجبة أم تبرعت بالزائد عليها، ﴿وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾: حافظ يراقبنا ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل أبو المرأتين صاحب مدين ليس بشعيب النبي المعروف كما اشتهر

عند كثير من الناس؛ فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهِ دَلِيلٌ^(١)، وغاية ما يكون أن شعيباً عليه السلام قد كانت بلدُهُ مديناً، وهذه القضية جرت في مدين؛ فأين الملازمة بين الأمرين؟! وأيضاً؛ فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْلُومٍ أَنَّ مُوسَى أَدْرَكَ زَمَانَ شُعَيْبٍ؛ فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعيباً؛ لذكره الله تعالى، ولسمَّته المرأتان. وأيضاً؛ فَإِنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ قَوْمَهُ بِتَكْذِيبِهِمْ إِيَّاهُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِهِ، وَقَدْ أَعَاذَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ أَنْ يَرْضَوْا لِبِتِّي نَبِيَّهُمْ بِمَنْعِهِمَا عَنِ الْمَاءِ وَصَدَّ مَاشِيَتَهُمَا حَتَّى يَأْتِيَهُمَا رَجُلٌ غَرِيبٌ فَيُحْسِنُ إِلَيْهِمَا وَيَسْقِي مَاشِيَتَهُمَا، وَمَا كَانَ شُعَيْبٌ لِيَرْضَى أَنْ يَرعى مُوسَى عِنْدَهُ وَيَكُونَ خَادِماً لَهُ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُ وَأَعْلَى دَرَجَةً؛ إِلَّا أَنْ يُقَالَ: هَذَا قَبْلُ نَبْوَةِ مُوسَى؛ فَلَا مَنَافَاةَ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ؛ لَا يُعْتَمَدُ عَلَى أَنَّهُ شُعَيْبُ النَّبِيِّ بِغَيْرِ نَقْلِ صَحِيحٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

﴿٢٩﴾ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّهُ قَضَى الْأَجَلَ الْوَاجِبَ أَوْ الزَّائِدَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ الظَّنُّ بِمُوسَى وَوَفَائِهِ؛ اشْتِاقٌ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى أَهْلِهِ وَوَالِدَيْهِ وَعَشِيرَتِهِ وَوَطْنِهِ، وَظَنَّ^(٢) مِنْ طَوْلِ الْمُدَّةِ أَنَّهُمْ قَدْ تَنَاسَوْا مَا صَدَرَ مِنْهُ. ﴿سَارَ بِأَهْلِهِ﴾: قَاصِداً مِصْرَ، ﴿آتَسَّ﴾؛ أَي: أَبْصَرَ، ﴿مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾، ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ، ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾: وَكَانَ قَدْ أَصَابَهُمُ الْبَرْدُ، وَتَاهَاوَ الطَّرِيقَ.

﴿٣٠﴾ ﴿فَلَمَّا أَنَاهَا نُودِيَ﴾: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾: فَأَخْبِرَهُ بِالْوَهْيَةِ وَرَبُوبِيَّتِهِ، وَيُلْزِمُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ يَأْمُرَهُ بِعِبَادَتِهِ وَتَأْلُفِهِ كَمَا صرَّحَ بِهِ فِي الْآيَةِ الْآخَرَى، ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿٣١﴾ ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾: فَالْقَاهَا، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾: تَسْعَى سَعِيًّا شَدِيدًا، وَلَهَا صُورَةٌ مُهَيْلَةٌ ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾: ذَكَرُ الْحَيَاتِ الْعَظِيمِ، ﴿وَلَى مُذْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾؛ أَي: يَرْجِعُ لِاسْتِيلَاءِ الرُّوعِ عَلَى قَلْبِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾: وَهَذَا أَبْلَغُ مَا يَكُونُ فِي التَّأْمِينِ وَعَدَمِ الْخَوْفِ؛ فَإِنَّ قَوْلَهُ: ﴿أَقْبِلْ﴾:

(١) قال الطبري (٥٦٢/١٩): «وهذا مما لا يدرك علمه إلا بخبر ولا خير بذلك تجب حجته». وقال ابن كثير: «إنه لو كان إياه [أنه شعيب النبي عليه السلام] لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا، وما جاء في بعض الأحاديث، من التصريح بذكره في قصة موسى لم يصح إسناده»، «تفسير ابن كثير» (٢٣٨/٦).

(٢) في (ب): «وعلم».

يقتضي الأمر بإقباله ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾: أمر له بشيئين: إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف. ولكن يبقى احتمالاً، وهو أنه قد يُقْبَلُ وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾: فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه. فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه وتمّ يقينه. فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون؛ ليكون على يقين تام، ليكون أجراً له وأقوى وأصلب.

﴿٣٢﴾ ثم أراه الآية الأخرى، فقال: ﴿اسْأَلْكَ يَدْرُكَ﴾؛ أي: أَدْخِلْهَا ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾: فَسَلَكَهَا وَأَخْرَجَهَا كَمَا ذَكَرَ^(١) اللَّهُ تَعَالَى، ﴿وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾؛ أي: ضَمَّ جَنَاحَكَ - وَهُوَ عَضُدُكَ - إِلَى جَنَبِكَ؛ لِيَزُولَ عَنْكَ الرَّهْبُ وَالْخَوْفُ. ﴿فَذَنْبُكَ﴾؛ أي: انْقِلَابُ الْعَصَا حَيَّةً وَخُرُوجُ الْيَدِ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴿بِرَهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾؛ أي: حِجَّتَانِ قَاطِعَتَانِ مِنَ اللَّهِ ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُنَّ إِثْمًا كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾: فَلَا يَكْفِيهِمْ مَجْرَدُ الْإِنذَارِ وَأَمْرُ الرَّسُولِ إِتَاهِمَ، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ إِنْ نَفَعَتْ.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ وَذَكَرَ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتَذِراً مِنْ رَبِّهِ وَسَائِلاً لَهُ الْمَعُونَةَ عَلَى مَا حَمَلَهُ وَذَكَرَ لَهُ الْمَوَانِعَ الَّتِي فِيهِ لِيُزِيلَ رَبُّهُ مَا يَحْذَرُهُ مِنْهَا: ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾؛ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾. وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رَدءًا؛ أي: مُعَاوَنًا وَمُسَاعِدًا، يَصَدِّقُونَ فَإِنَّهُ مَعَ تَضَافِرِ الْأَخْبَارِ يَقْوَى الْحَقُّ.

﴿٣٥﴾ فَأَجَابَهُ اللَّهُ إِلَى سُؤَالِهِ، فَقَالَ: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾؛ أي: نَعَاوَنُكَ بِهِ وَنَقْوِيكَ. ثُمَّ أزال عنه محذورَ القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكَمَا سُلْطَانًا﴾؛ أي: تَسُلْطًا وَتَمَكُّنًا مِنَ الدَّعْوَةِ بِالْحِجَّةِ وَالْهِيبَةِ الْإِلَهِيَّةِ مِنْ عَدُوِّهِمَا لِهَمَّا؛ ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾: وَذَلِكَ بِسَبَبِ آيَاتِنَا وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ وَمَا أَرَعَجَتْ بِهِ مِنْ بَاشِرِهَا وَنَظَرِ إِلَيْهَا؛ فَهِيَ الَّتِي بِهَا حَصَلَ لَكَمَا السُّلْطَانُ، وَانْدَفَعَ بِهَا عَنْكُمْ كَيْدَ عَدُوِّكُمْ^(٢)، وَصَارَتْ لَكُمْ أَبْلَغَ مِنَ الْجُنُودِ أُولَى الْعَدَدِ وَالْعُدُدِ. ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾: وَهَذَا وَعْدٌ لِمُوسَى فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَهُوَ وَحْدَهُ فَرِيدٌ، وَقَدْ رَجَعَ إِلَى بَلَدِهِ بَعْدَمَا كَانَ شَرِيدًا، فَلَمْ تَزَلِ الْأَحْوَالُ تَتَطَوَّرُ وَالْأُمُورُ تَتَنَقَّلُ حَتَّى أَنْجَزَ لَهُ مَوْعُودَهُ، وَمَكَّنَهُ

(٢) في (ب): «عدوهم».

(١) في (ب): «ذكره».

من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

﴿٣٦﴾ فذهب موسى برسالة ربه، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ :
واضحات الدلالة على ما قال لهم^(١)، ليس فيها قصور ولا خفاء، ﴿قَالُوا﴾ : على
وجه الظلم والعلو والعداوة : ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرٍ﴾ ؛ كما قال فرعون في تلك
الحال التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له
الرؤساء العارِفون حقائق الأمور : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ ! هذا؛ وهو
الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد
علم ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض، ولكن الشقاء غالب، ﴿وَمَا سَمِعْنَا
بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ : وقد كذبوا في ذلك؛ فإن الله أرسل يوسف قبل موسى؛
كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زُلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا
جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قَلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن
هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ .

﴿٣٧﴾ ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ : حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما
هم عليه هو الهدى : ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِي وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ
الدَّارِ﴾ ؛ أي : إذا لم تُقدِّم المقابلة معكم وتبين الآيات البينات وأبيئتم إلا التماذي في
غيكم واللجاج على كفركم؛ فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره ومن تكون له عاقبة
الدار؛ نحن أم أنتم. ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ : فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه
والفلاح والفوز، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿٣٨﴾ ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ : متجرئاً على ربه ومموهاً على قوميه السفهاء أخفاء
العقول : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ ؛ أي : أنا وحدي إلهكم
ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري؛ لعلمته! فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون؛ حيث
لم يقل : ما لكم من إله غيري! بل تورع وقال : ما علمت لكم من إله غيري! وهذا لأنه
عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال؛ فهو الحق، ومهما أمر؛ أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتمل أن ثم إلهاً غيره؛ أراد أن يحقق النفي
الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لهامان : ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى
الطِّينِ﴾ : ليجعل له لبناً من فخار، ﴿فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا﴾ ؛ أي : بناءً عاليًا^(٢)؛

(١) في (ب) : «ما قاله لهم» .

﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ﴾ كاذباً ولكن سنحقق هذا الظن ونريكم كذب موسى.

فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي! كذب موسى، وادعى أنه الله، ونفى أن يكون له علمٌ بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويحٌ. ولكن العجب من هؤلاء الملائ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة المدبرون لشؤونها؛ كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم؟! وهذا لفسقهم الذي صار صفةً راسخةً فيهم؛ فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم؛ فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تُزيغ قلوبنا بعد إذ هدَيْتَنَا، وَتَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

﴿٣٩﴾ قال تعالى: ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾: استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله وما جاؤوهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل، ﴿وظنوا أنهم إلهنا لا يُزجَعون﴾: فلذلك^(١) تجرؤوا، وإلّا؛ فلو علموا أو ظنوا أنهم يُزجَعون إلى الله؛ لما كان منهم ما كان.

﴿٤٠﴾ ﴿فأخذناه وجنوده﴾: عندما استمرّ عنادهم وبغيهم، ﴿فنبذناهم في اليمّ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾: كانت أشدّ العواقب وأخسرها عاقبةً، أعقبها العقوبة الدنيوية المستمرة المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿٤١﴾ ﴿وجعلناهم أئمةً يدعون إلى النار﴾؛ أي: جعلنا فرعون وملاه من الأئمة الذين يقتدى بهم، ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا يُنصرون﴾: من عذاب الله؛ فهم أضعف شيء عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿٤٢﴾ ﴿وأتبغناهم في هذه الدنيا لعنة﴾؛ أي: وأتبغناهم زيادةً في عقوبتهم وخزيهم في الدنيا لعنةً يلعون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمرٌ مشاهد؛ فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم. ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾: المبعدين، المستقدرة أفعالهم، الذين^(٢) اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

(٢) في (ب): «الذي».

(١) في (ب): «فكذلك».

﴿٤٣﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾: وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾: الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف؛ ﴿بصائر للناس﴾؛ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى فيه بصائر للناس؛ أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجّة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقّه وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهديّ ورحمة لعلهم يتذكرون﴾.

﴿٤٤﴾ ﴿ولما قصّ الله على رسوله ما قصّ من هذه الأخبار الغيبية؛ نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه؛ إلا من جهة الوحي؛ ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾؛ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾: على ذلك حتى يُقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿٤٥﴾ ﴿ولكنّا أنشأنا قروناً فتناولوا عليهم العُمُر﴾: فاندرس العلم ونسيّت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك، ﴿وما كنت ثاوياً﴾؛ أي: مقيماً، ﴿في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا﴾؛ أي: تعلّمهم وتعلّم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين. ﴿ولكنّا كنّا مرسلين﴾؛ أي: ولكنّ ذلك الخبر الذي جمّت به عن موسى أثر من آثار إرسالنا إياك ووحى لا بسبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿٤٦﴾ ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾: موسى وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين ويبلغهم رسالتنا ويُرِيهم من آياتنا وعجايبنا ما قصّنا عليك.

والمقصود أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حصرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلّمها من أهلها؛ فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله؛ إذ الأمور التي يُخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علّم وتيقن أنه ما كان وما صار؛ فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك. فتعيّن الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبيل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿ولكن رحمة من

رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ؛ أَي: العرب وقريش؛ فَإِنَّ الرِّسَالَةَ عِنْدَهُمْ لَا تُعْرَفُ وَقَدْ أُرْسِلَ الرَّسُولُ وَقَبْلَهُ بِأَزْمَانٍ مُتَطَاوِلَةٍ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: تَفْصِيلُ الْخَيْرِ فَيَفْعَلُونَهُ، وَالشَّرَّ فَيَتْرَكُونَهُ. فَإِذَا كُنْتَ بِهَذِهِ الْمُنزَلَةِ؛ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْمَبَادِرَةَ إِلَى الْإِيمَانِ بِكَ وَشُكْرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي لَا يُقَادَرُ قَدْرُهَا وَلَا يُدْرَكُ شُكْرُهَا. وَإِنذَارُهُ لِلْعَرَبِ لَا يَنْفِي أَنَّ يَكُونَ مَرْسَلًا لغيرِهِمْ؛ فَإِنَّهُ عَرَبِيٌّ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي نَزَلَ^(١) عَلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَأَوَّلُ مَنْ بَاشَرَ بِدَعْوَتِهِ الْعَرَبُ، فَكَانَتْ رِسَالَتُهُ لَهُمْ أَصْلًا وَلغيرِهِمْ تَبَعًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿٤٧﴾ ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لِقَالُوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَتَّبِعُ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أَي: فَارْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ، لَدَفَعِ حُجَّتِهِمْ، وَقَطَعَ مَقَالَتَهُمْ.

﴿٤٨﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾: وَهُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَوْحَيْنَاهُ إِلَيْكَ، ﴿قَالُوا﴾: مَكْذِبِينَ لَهُ وَمُعْتَرِضِينَ بِمَا لَيْسَ يُعْتَرَضُ بِهِ: ﴿لَوْلَا أَوْتِي مِثْلَ مَا أَوْتِيَ مُوسَى﴾؛ أَي: أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ جَمْلَةً وَاحِدَةً؛ أَي: فَأَمَّا مَا دَامَ يَنْزِلُ مُتَفَرِّقًا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَيُّ دَلِيلٍ فِي هَذَا؟! وَأَيُّ شَبْهَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ حِينَ نَزَلَ مُفَرَّقًا؟! بَلْ مِنْ كَمَالِ هَذَا الْقُرْآنِ وَاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِمَنْ أَنْزَلَ عَلَيْهِ أَنْ نَزَلَ مُتَفَرَّقًا؛ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ بِهِ فِئَاةَ رَسُولِيهِ، وَيُخْصِلَ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ لِلْمُؤْمِنِينَ، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمِثْلٍ إِلَّا جُنُودًا بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾. وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ قِيَاسَهُمْ عَلَى كِتَابِ مُوسَى قِيَاسٌ قَدْ نَقَضُوهُ؛ فَكَيْفَ يَقِيسُونَهُ عَلَى كِتَابِ كُفْرًا بِهِ وَلَمْ يُؤْمِنُوا [به]؟! وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾؛ أَي: الْقُرْآنَ وَالتَّوْرَةَ تَعَاوَنَا فِي سِحْرِهِمَا وَإِضْلَالِ النَّاسِ ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ﴾: فَثَبَّتَ بِهَذَا أَنَّ الْقَوْمَ يَرِيدُونَ إِبْطَالَ الْحَقِّ بِمَا لَيْسَ بِبِرْهَانٍ، وَيَنْقُضُونَهُ بِمَا لَا يُنْقَضُ، وَيَقُولُونَ الْأَقْوَالَ الْمُتَنَاقِضَةَ الْمُخْتَلِفَةَ، وَهَذَا شَأْنُ كُلِّ كَافِرٍ، وَلِهَذَا صَرَّحَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِالْكِتَابَيْنِ وَالرُّسُولَيْنِ.

﴿٤٩﴾ ﴿لَكِنْ هَلْ كَفَرْتُمْ بِهِمَا طَلِبًا لِلْحَقِّ وَاتِّبَاعًا لِأَمْرِ عِنْدَهُمْ خَيْرٌ مِنْهُمَا، أَمْ

(١) فِي (ب): «أَنْزَلَ».

مجردٌ هوى؟! قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾؛ أي: من التوراة والقرآن؛ ﴿اتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها؛ فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله مثل هذين الكتابين علماً وهدىً وبياناً ورحمةً للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك الموافق لكتاب موسى؛ فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما من حيث كونهما هدىً وحقاً؛ فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما؛ اتبعته، وإلا؛ فلا أترك هدىً وحقاً قد علمته لغير هدىً وحقاً.

﴿٥٠﴾ ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾: فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما، ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ أي: فاعلم أن تركهم أتباعك ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾: فهذا من أضل الناس؛ حيث عرض عليه الهدى والصرراط المستقيم الموصل إلى الله وإلى دار كرامته؛ فلم يلتفت إليه، ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء، فاتبعه وترك الهدى؛ فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؛ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها؛ فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقايتهم وهلاكهم يترددون، وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾: دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول؛ فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿٥١﴾ ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾؛ أي: تابغناه وواصلناه وأنزلناه شيئاً فشيئاً رحمة بهم ولطفاً؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟!

فصل

في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة

فمنها: أن آيات الله [تعالى] وعبره وأيامه في الأمم السابقة إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون؛ فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وأن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم؛ فلا يعاب الله بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً؛ هياً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقائها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين؛ كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل الأمة الضعيفة من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلةً مهورة، لا تأخذ حقها، ولا تتكلم به لا يقوم لها أمرٌ دينها ولا دُنياها، ولا يكون لها إمامةٌ فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة بأن الله [تعالى] سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق ليُنيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه؛ كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد والهَمّ البليغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها على وجه تظمنُّ به نفسها، وتقرُّ به عينها، وتزداد به غبطةً وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق لا يُنافي الإيمان ولا يزيله؛ كما جرى لأم موسى، ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتمُّ به اليقين؛ الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قُلُوبِنا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: ليزداد إيمانها بذلك، ويظمنُّ قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده وأعظم معونة للعبد على أمره تثبيت الله إياه وربط جاشيه وقلبه عند المخاوف وعند الأمور المذهلة؛ فإنه بذلك

يتمكّن من القول الصواب والفعل الصواب؛ بخلاف من استمرّ قلقه وروعته وانزعاجه؛ فإنّه يضيع فكره، ويذهل عقله؛ فلا يتفّع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أنّ العبد ولو عرّف أنّ القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بدّ منه؛ فإنّه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله؛ فإنّ الله قد وعد أمّ موسى أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت في رده، وأرسلت أخته لتقصّه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها وتكليمها للرجال من غير محذور كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع والدلالة على من يفعل ذلك.

ومنها: أنّ الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه أن يرّيه من آياته ويُشهدّه من بيناته ما يزيد به إيمانه؛ كما ردّ الله موسى على أمّه؛ لتعلم أنّ وعد الله حقّ.

ومنها: أنّ قتل الكافر الذي له عهدٌ بعقدٍ أو عرفٍ لا يجوز؛ فإنّ موسى عليه السلام عدّ قتله القبطيّ الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أنّ الذي يقتل النفوس بغير حقّ؛ يعدّ من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أنّ من قتل النفوس بغير حقّ، وزعم أنّه يريد الإصلاح في الأرض وتهيب أهل المعاصي؛ فإنّه كاذبٌ في ذلك، وهو مفسدٌ؛ كما حكى الله قول القبطيّ: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾: على وجه التقرير له لا الإنكار.

ومنها: أنّ إخبار الرجل غيره بما قيل فيه على وجه التحذير له من شرّ يقع فيه؛ لا يكون ذلك نيممةً، بل قد يكون واجباً؛ كما أخبر ذلك الرجل لموسى ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنّه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة؛ فإنّه لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه كما فعل موسى.

ومنها: أنّه عند تزاحم المفسدتين؛ إذا كان لا بدّ من ارتكاب إحداهما؛ فإنّه يرتكب الأخفّ منهما الأسلم؛ كما أنّ موسى لما دار الأمر بين بقائه في مصر ولُكّنه

يُقْتَل، أو^(١) يذهب إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يَعْرِفُ الطريق إليها، وليس معه دليلٌ يَدُلُّه^(٢) غير ربِّه، ولكن هذه الحالة أُرْجى^(٣) للسلامة من الأولى، فَتَبِعَهَا موسى.

ومنها: أَنَّ الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلُّم فيه إذا لم يترجَّح عنده أحدُ القولين؛ فَإِنَّه يستهدي ربِّه، ويسأله أن يَهْدِيَه الصواب من القولين بعد أن يقصِدَ بقلبه الحقَّ ويبحث عنه؛ فَإِنَّ الله لا يخيبُ من هذه حاله؛ كما خرج موسى تلقاءً مدين، فقال: ﴿عسى ربِّي أن يَهْدِيَنِي سِوَا السَّبِيلِ﴾.

ومنها: أَنَّ الرحمة بالخلق والإحسان على مَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لا يَعْرِفُ من أخلاق الأنبياء، وَأَنَّ من الإحسان سقي الماشية الماء وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها؛ لَأَنَّه تعالى يحبُّ تضرُّع عبده وإظهار ذلِّه ومسكنته؛ كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها: أَنَّ الحياء - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أَنَّ العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأةٌ عليه من غير قصدٍ بالقصد الأول؛ فَإِنَّه^(٤) لا يلام على ذلك؛ كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معرفته الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجازة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها مما لا يُقَدَّرُ به العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أَنَّهُ تجوز الإجازة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أَنَّ خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيَّره لا يلام عليه.

ومنها: أَنَّ خير أجيرٍ وعاملٍ يعمل للإنسان أن يكون قوياً أميناً.

ومنها: أَنَّ من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّنَ خُلُقَه لأجيره وخادمه، ولا يشقُّ عليه بالعمل؛ لقوله: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشَقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

(٢) في (ب): «دليل له».

(٤) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «و».

(٣) في (ب): «أقرب».

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إسهاد؛ لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البيّنات والمعجزات الظاهرة من الحيّة وانقلاب يده بيضاء من غير سوء ومن عصمة الله لموسى وهارون من فرعون ومن الغرق.

ومنها: أنّ من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشرّ، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيّناته؛ كما أنّ من أعظم نعمه أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ؛ حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً وتأصيلاً موافقاً قصه قصاً صدق به المرسلين وأيد به الحقّ المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درّس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إنّ هو إلاّ رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قوماً جاهلين، وعن الثّدر والرسول غافلين؛ فصلوات الله وسلامه على من مجرد خبره نبىء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة أنّه من عند الله؛ كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدق به، خبر الأوّلين والآخرين، والشرع الذي جاء به من ربّ العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلاّ لأعلى الخلق درجةً، والنصر المبين لدينه وأمتيه، حتى بلغ ديته مبلغ الليل والنهار، وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار بالسيف والسنان وقلوبهم بالعلم والإيمان، ولم تنزل الأمم المعاندة والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة وتكيد له المكائد وتمكّر لإطفائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرّها وعلاها، لا يزداد إلاّ نمواً، ولا آياته وبراهينه إلاّ ظهوراً، وكلّ وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالمين، وهداية للعالمين، ونوراً وبصيرة للمتوسّمين. والحمد لله وحده.

﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ [مُسْلِمِينَ] ﴿٥٨﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ

(١) في النسختين: «مؤمنين».

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٢﴾

﴿٥٢﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقه وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرؤون بأنه الحق، فقال: ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله﴾: وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا، ﴿هم به﴾؛ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يؤمنون﴾.

﴿٥٣﴾ ﴿وإذا ينلى عليهم﴾: استمعوا له وأذعنوا، ﴿وقالوا آمنا به إنه الحق من ربنا﴾: لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة، وهؤلاء الذين تفيدهم شهادتهم وينفع قولهم؛ لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة؛ لأنهم أهل الخبرة وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة فضلاً عن الحجة؛ لأنهم ما بين جاهل فيه أو متجاهل معاند للحق؛ قال تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا ينلى عليهم يخرؤن للأذقان سجداً...﴾ ﴿الآيات، وقوله: ﴿إنا كنا من قبله [مسلمين]﴾^(١): فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمنا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب إيمانه بالكتاب الأول.

﴿٥٤﴾ ﴿أولئك﴾: الذين آمنوا بالكتابين ﴿يؤتون أجرهم مرتين﴾: أجرأ على الإيمان الأول، وأجرأ على الإيمان الثاني؛ ﴿بما صبروا﴾: على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم تزعزعهم^(٢) عن ذلك شبهة، ولا ثنائهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة. ﴿و﴾ من خصالهم الفاضلة التي هي من آثار إيمانهم الصحيح أنهم ﴿يدرؤون بالحسنة السيئة﴾؛ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل؛ يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل؛ لعلمهم بفضيلة هذا الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم.

﴿٥٥﴾ ﴿وإذا سمعوا اللغو﴾: من جاهل خاطبهم به، ﴿قالوا﴾: مقالة عباد الرحمن أولي الأبواب: ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾؛ أي: كل سيجازى بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرؤون مما

(٢) في (ب): «يزعزعهم».

(١) في النسختين: «مؤمنين».

عليه الجاهلون من اللغو والباطل والكلام الذي لا فائدة فيه. ﴿سلام عليكم﴾؛ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم؛ فإنكم وإن رضيتم لأنفسيكم هذا المرتع اللئيم؛ فإننا ننزه أنفسنا عنه ونصونها عن الخوض فيه، ﴿لا نتبعي الجاهلين﴾: من كل وجه.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك؛ فإن هذا أمر غير مقدور للخلق؛ هداية التوفيق وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله تعالى؛ يهدي من يشاء وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه ممن لا يصلح لها فيبقه على ضلاله. وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾: فتلك هداية البيان والإرشاد؛ فالرسول يبين الصراط المستقيم، ويرغب فيه، ويبذل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقهم بالفعل؛ فحاشا وكلاً، ولهذا لو كان قادراً عليها؛ لهدى من وصل إليه إحسانه ونصره ومنعه من قومه؛ عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة له للدين والنصح التام ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله.

﴿وَقَالُوا إِن نَّبَعِ الْهُدَى مَعَكَ نَحْطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ قَبْلِكَ بَطَرْتِ مَعِيشَتَهَا فَمِنْ لَدُنَّا مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكِنِ مِنْ بَدْرِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْبَأُ عَنِهَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٧﴾ يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة يقولون للرسول ﷺ: ﴿إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾: بالقتل والأسر ونهب الأموال؛ فإن الناس قد عادوك وخالفوك؛ فلو تابعتنا؛ لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة. وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق. قال الله مبيناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجيئ إليهم ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾؛ أي:

أولم نجعلهم متمكّنين مُمكنين في حرم يكثره المتتابون ويقصدُهُ الزائرون، قد احترمه القريبُ والبعيد؛ فلا يُهاج أهله، ولا يُنتَقِصون بقليل ولا كثير، والحالُ أن كلَّ ما حولهم من الأماكن قد حَفَّ بها الخوف من كلِّ جانب، وأهلها غيرُ آمنين ولا مطمئنّين؛ فليَحْمَدُوا رَبَّهُمْ على هذا الأمن التام الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يُجِيبُ إليهم من كلِّ مكان من الثمرات والأطعمة والبضائع ما به يرتزقون ويتوسعون، وليَتَّبِعُوا هذا الرسولَ الكريم؛ لِيَتِمَّ لهم الأمنُ والرغدُ، وإياهم وتكذيبه والبطرُ بنعمة الله؛ فيبدلوا من بعدِ أمِنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً.

﴿٥٨﴾ ولهذا توعدّهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال: ﴿وكم أهلَكنا من قريةٍ بطَرتْ معيشتها﴾؛ أي: فخرت بها وألهتها واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحلَّ بهم النقمة، ﴿فذلك مساكنهم لم تُسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾؛ لتوالي الهلاك والتلف عليهم وإيحاشها من بعدهم، ﴿وكنّا نحن الوارثين﴾: للعباد؛ نميّتهم ثم يرجع^(١) إلينا جميع ما متّعناهم به من النعم، ثم نعيدهم إلينا، فنجازيهم بأعمالهم.

﴿٥٩﴾ ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجّة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وما كان ربك مُهلكَ القرى﴾؛ أي: بكفرهم وظلمهم؛ ﴿حتى يبعث في أمّها﴾؛ أي: في القرية والمدينة التي إليها يَرجعون، ونحوها يتردّدون، وكلُّ ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها، ﴿رسولاً يتلو عليهم آياتنا﴾: الدالة على صحّة ما جاء به وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغُ قوله قاصيهم ودانيهم؛ بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة والأطراف النائية؛ فإنّ ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمّات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنّهم أقلُّ جفاء من غيرهم، ﴿وما كنّا مُهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾: بالكفر والمعاصي، مستحقّون للعقوبة. والحاصل أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه وإقامة الحجّة عليه.

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾
أَمَّنْ وَعَدَدْتَهُ وَعَدًّا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَنَعْتَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿١٧﴾﴾

(١) في (ب): «ترجع».

﴿٦٠﴾ هَذَا حِصٌّ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى الزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا وَعَدَمِ الْاِغْتِرَارِ بِهَا، وَعَلَى الرِّغْبَةِ فِي الْآخِرَى وَجَعَلَهَا مَقْصُودَ الْعَبْدِ وَمَطْلُوبَهُ، وَيَخْبِرُهُمْ أَنَّ جَمِيعَ مَا أُوتِيَهِ الْخَلْقُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيَوَانَاتِ وَالْأَمْتَعَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَأْكُلَ وَالْمَشَارِبَ وَاللَّذَاتِ كُلَّهَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا؛ أَي: يَتَمَتَّعُ بِهِ وَقْتًا قَصِيرًا مَتَاعًا قَاصِرًا مَحْشُورًا بِالْمُنْغَصَاتِ مَمْزُوجًا بِالْغُصَصِ، وَيَتَزَيَّنُ بِهِ زَمَانًا يَسِيرًا لِلْفَخْرِ وَالرِّيَاءِ، ثُمَّ يَزُولُ ذَلِكَ سَرِيعًا، وَيَنْقُضِي جَمِيعًا، وَلَمْ يَسْتَفِدْ صَاحِبُهُ مِنْهُ إِلَّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ وَالخَيْبَةَ وَالْحَرَمَانَ، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾: مِنَ النِّعَمِ الْمَقِيمِ وَالْعَيْشِ السَّلِيمِ ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ أَي: أَفْضَلُ فِي وَصْفِهِ وَكَمِيَّتِهِ، وَهُوَ دَائِمٌ أَبَدًا وَمُسْتَمِرٌّ سَرْمَدًا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؛ أَي: أَفَلَا تَكُونُ لَكُمْ عَقُولٌ بِهَا تَزْنُونَ؛ أَيُّ الْأَمْرَيْنِ أَوْلَى بِالْإِيثَارِ؟! وَأَيُّ الدَّارَيْنِ أَحَقُّ لِلْعَمَلِ لَهَا؟! فَدَلَّ ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ عَقْلِ الْعَبْدِ يُؤَثَّرُ بِالْآخِرَى عَلَى الدُّنْيَا، وَأَنَّهُ مَا آثَرَ أَحَدٌ الدُّنْيَا إِلَّا لِنَقْصِ فِي عَقْلِهِ.

﴿٦١﴾ وَلِهَذَا نَبَّهَ الْعَقُولَ عَلَى الْمَوَازَنَةِ بَيْنَ عَاقِبَةِ مُؤَثِّرِ الدُّنْيَا وَمُؤَثِّرِ الْآخِرَةِ، فَقَالَ: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾؛ أَي: هَلْ يَسْتَوِي مُؤْمِنٌ، سَاعَ لِلْآخِرَةِ سَعِيهَا، قَدْ عَمِلَ عَلَى وَعْدِ رَبِّهِ لَهُ بِالثَّوَابِ الْحَسَنِ الَّذِي هُوَ الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمِ؛ فَهُوَ لَاقِيهِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ؛ لِأَنَّهُ وَعَدَ مِنْ كَرِيمٍ صَادِقٍ الرَّعْدِ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ لِعَبْدٍ قَامَ بِمَرْضَاتِهِ وَجَانِبَ سَخَطِهِ؛ ﴿كَمَنْ مَتَّغَنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فَهُوَ يَأْخُذُ فِيهَا وَيُعْطِي، وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ، وَيَتَمَتَّعُ كَمَا تَتَمَتَّعُ الْبِهَائِمُ، قَدْ اشْتَغَلَ بِدُنْيَاهُ عَنْ آخِرَتِهِ، وَلَمْ يَرْفَعْ بِهَدْيِ اللَّهِ رَأْسًا، وَلَمْ يَنْقِذْ لِلْمُرْسَلِينَ؛ فَهُوَ لَا يَزَالُ كَذَلِكَ؛ لَا يَتَزَوَّدُ مِنْ دُنْيَاهُ إِلَّا الْخَسَارَ وَالْهَلَاكَ. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾: لِلْحِسَابِ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَقْدَمْ خَيْرًا لِنَفْسِهِ، وَإِنَّمَا قَدَّمَ جَمِيعَ مَا يَضُرُّهُ، وَانْتَقَلَ إِلَى دَارِ [الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ]؛ فَمَا ظَنُّكُمْ إِلامَ يَصِيرُ إِلَيْهِ؟! وَمَا تَحْسَبُونَ مَا يَصْنَعُ بِهِ؟! فَلْيَخْتَرِ الْعَاقِلُ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ أَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ وَأَحَقُّ الْأَمْرَيْنِ بِالِإِيثَارِ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِنَانًا يَتَّبِعُونَ ﴿٦٢﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٦٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٤﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

﴿٦٢ - ٦٣﴾ هَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَسْأَلُ عَنْهُ الْخَلَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ

يسألهم عن أصول الأشياء؛ عن عبادة الله، وإجابة رسله، فقال: ﴿يَوْمَ يناديهم﴾؛ أي: ينادي مَنْ أشركوا به شركاء يعبدونهم ويرجون نفعهم ودفع الضرر عنهم، فيناديهم ليبيّن لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾: وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾: فأين هم بدواتهم؟! وأين نفعهم؟! وأين دفعهم؟! ومن المعلوم أنهم يبيّن لهم في تلك الحال أنّ الذي عبدوه ورجّوه باطلٌ مضمحلٌ في ذاته وما رجوا منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حقّ عليهم القول﴾: من الرؤساء والقادة في الكفر والشرك؛ مقرّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾: التابعون ﴿الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾؛ أي: كلنا قد اشترك في الغواية وحقّ عليه كلمة العذاب، ﴿تبرأنا إليك﴾: من عبادتهم؛ أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾: وإنّما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿٦٤﴾ ﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾: على ما أمّلتهم فيهم من النفع، فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج الذي يضطرّ فيه العابد إلى مَنْ عبّده، ﴿فدعّوهم﴾: لينفعوهم أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء، ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾: فعلم الذين كفروا أنّهم كانوا كاذبين مستحقّين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾: الذي سيحلّ بهم عياناً بأبصارهم بعدما كانوا مكذّبين به منكّرين له؛ ﴿لو أنّهم كانوا يهتدون﴾؛ أي: لما حصلّ عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَوْمَ يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾: هل صدّقتموهم وأتبعتموهم؟ أم كذّبتموهم وخالفتموهم؟ ﴿فعصيت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾؛ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب، ومن المعلوم أنّه لا ينجي في هذا الموضوع إلّا التصريح بالجواب الصحيح المطابق لأحوالهم من أنّنا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم؛ لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا، ويتراجعوا بينهم في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾

﴿٦٧﴾ لما ذكّر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلهم؛ ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنّه لا نجاة إلّا لمن أتصف بالتوبة من

الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسوله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسول. ﴿فمسي أن يكون﴾: من جمع هذه الخصال ﴿من المفلحين﴾: الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب؛ فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَكْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ هذه الآيات فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراذه باختيار من يختاره ويختصه من الأشخاص والأوامر والأزمان والأماكن، وأن أحداً ليس له^(١) من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركون به من الشريك والظهير والعيون والولد والصاحبة ونحو ذلك مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين؛ في الدنيا بالحكم القدري الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع والأوامر والنواهي. وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾: فيجازي كلًا منكم بعمله من خير وشر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَبَيْنَ رَحْمَتِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ. وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿٧١ - ٧٣﴾ هذا امتنان من الله على عباده؛ يدعوهم به إلى شكره والقيام بعبوديته وحقه أن^(٢) جعل لهم من رحمته النهار ليتبغوا من فضل الله وينتسروا لطلب أرزاقهم ومعايشهم في ضيائه، والليل ليهدؤوا فيه ويسكنوا وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار؛ فهذا من فضله ورحمته بعباده؛ فهل أحد

(٢) في (ب): «أنه».

(١) في (ب): «لهم».

يقدّر على شيء من ذلك فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾: مواظظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾: مواقع العبر ومواضع الآيات فتستتير بصائرکم وتسلكون الطريق المستقيم، وقال في الليل: ﴿أفلا تسمعون﴾، وفي النهار: ﴿أفلا تبصرون﴾؛ لأن سلطان السمع في الليل أبلغ من سلطان البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أنّ العبد ينبغي له أن يتدبّر نعم الله عليه، ويستبصر^(١) فيها، ويقسها بحال عدمها؛ فإنه إذا وزن بين حالة وجودها وبين حالة عدمها؛ تنبه عقله لموضع المنة؛ بخلاف من جرى مع العوائد، ورأى أنّ هذا أمر لم يزل مستمرّاً ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء على الله بنعمه ورؤية افتقاره إليها في كل وقت؛ فإنّ هذا لا يحدث له فكرة شكر ولا ذكر.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿٧٤ - ٧٥﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به العادلين به غيره، الذين يزعمون أنّ له شركاء يستحقون أن يعبدوا وينفعون ويضرّون؛ فإذا كان يوم القيامة؛ أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(٢) لأنفسهم؛ يناديهم ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾؛ أي: بزعمهم لا بنفس الأمر؛ كما قال: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظنّ [وإن هم إلا يخرصون]﴾، فإذا حضروا هم وإياهم؛ نزع ﴿من كل أمة﴾: من الأمم المكذبة ﴿شهاداً﴾: يشهد على ما جرى في الدنيا من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المنتخبين؛ أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين من يتصدى للخصومة عنهم والمجادلة عن إخوانهم، وهم على طريق واحد؛ فإذا برزوا للمحاكمة، ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾: حججتكم ودليلكم على صحّة شرككم؛ هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رُسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كُتبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يُغنون عنكم؟ فليفعلوا إذاً إن كان فيهم أهليةً وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فعلموا﴾: حيثد بطلان قولهم وفساده، و﴿أنّ الحق لله﴾: تعالى، قد

(١) في (ب): «وتبصر».

(٢) في (ب): «وتكذيب».

تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِمُ الْخِصْمَةُ وَأَنْقَطَعَتْ حُجَّتُهُمْ وَأَفْلَجَتْ حُجَّةَ اللَّهِ، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾: من الكذب والإفك؛ اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم؛ حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَعِيَ عَلَيْهِمْ﴾^(١) ﴿وَأَيَّنَّا مِنْ الْكُفُورِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَمُوهُ بِالْعُنَّةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَنْتَخِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَسَقْنَا بِهِ وِيعَادِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنصَرِّينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٦﴾ يخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل وفعل به ونصحه ووعد، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾؛ أي: من بني إسرائيل، الذين فضلوا العالمين وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه، وطغى بما أُوتيه من الأموال العظيمة المُطغية، ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾؛ أي: كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسَمُوهُ بِالْعُنَّةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾: والعنبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة ونحو ذلك؛ أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله تُثقل الجماعة القوية عن حملها؛ هذه المفاتيح؛ فما ظنك بالخزائن؟! ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾: ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾؛ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة؛ فإن الله لا يحب الفرحين بها المكبين على محبتها.

(١) في النسختين: إلى آخر القصة.

﴿٧٧﴾ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾؛ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق، ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: لا نامرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرتك واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يتلّم دينك ولا يضر بأخرتك، ﴿وَأَحْسِنْ﴾: إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾: عليك بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾: بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ﴾: بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالَ﴾ قارون راداً لنصيحتهم كافراً لنعمة ربه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾؛ أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب وخذقي. أو: على علم من الله بحالي؛ يعلم أنني أهل لذلك؛ فلم تنصحوني على ما أعطاني الله؟! قال تعالى مبيناً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المغطى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعاً﴾: فما المانع من إهلاك قارون مع مضي عادتينا وستينا بإهلاك من هو مثله وأعظم منه إذا فعل ما يوجب الهلاك؟! ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾: بل يعاقبهم الله ويعذبهم على ما يعلمه منهم؛ فهم وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة وشهدوا لها بالثجاة؛ فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك راداً عنهم من العذاب شيئاً؛ لأن ذنوبهم غير خفية؛ فإنكارهم لها لا محل له.

﴿٧٩﴾ فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً، قد أعجبته نفسه وغرّه ما أوتيته من الأموال، ﴿فخرج﴾ ذات يوم ﴿في زينته﴾؛ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقته في تلك الحالة العيون، وملاّت برّته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة، ﴿قَالَ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾: من الدنيا ومتاعها وزهرتها، ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾: وصدقوا إنه لذو حظ عظيم لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم وإنه

ليس وراء الدنيا دار أخرى؛ فإنه قد أُعْطِيَ منها ما به غاية التمتع^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همّتهم، وإنّ همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها؛ لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية والمطالب الغالية.

﴿٨٠﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾: الذين عرفوا حقائق الأشياء ونظروا إلى باطن الدنيا حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وبلّكم﴾: متوجّعين من ما تمثّوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم، ﴿ثواب الله﴾: العاجل من لذة العبادة ومحبته والإنابة إليه والإقبال عليه، والأجل من الجنة وما فيها ممّا تشتهيهِ الأنفس وتلدُّ الأعين خير من هذا الذي تمثّيتُم ورغبتم فيه؛ فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كلُّ مَنْ يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يُلَقَى ذلك ويوفَّق له ﴿إلا الصابرون﴾: الذين حسبوا أنفسهم على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها أن تشغلهم عن ربهم وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له؛ فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

﴿٨١﴾ فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازيّنت الدنيا عنده، وكثرت بها إعجابُه؛ بَعَثَهُ العذاب، ﴿فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾: جزء من جنس عمله؛ فكما رفع نفسه على عباد الله؛ أنزله الله أسفل سافلين هو وما اغترَّ به من داره وأثابه ومتاعه. ﴿فما كان له من فئة﴾؛ أي: جماعة وعصبة وخدم وجنود، ﴿ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين﴾؛ أي: جاءه العذاب فما نُصِرَ ولا انتصر.

﴿٨٢﴾ ﴿وأصبح الذين تمثّوا مكانه بالأمس﴾؛ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴿بقولون﴾: متوجّعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿ويكأنَّ الله يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾؛ أي: يضيِّقُ الرِّزْقَ على من يشاء. فعلمنا حينئذٍ أنّ بسطه لقارون ليس دليلاً على خير فيه، وأتينا غالطون في قولنا: إنه لذو حظ عظيم، ﴿ولولا أن مَنَّ الله علينا﴾: فلم يعاقبنا على ما قلنا؛ فلولا فضله ومثته؛ ﴿لحسب بنا﴾: فصار هلاك قارون عقوبة له وعبرة وموعظة لغيره، حتى إنّ الذين غبطوه سمعت كيف ندموا، وتغيّر فكرهم الأول، ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾؛ أي: لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

(١) في (ب): «التنعم».

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٨٣)

﴿٨٣﴾ لما ذَكَرَ تعالى قارونَ وما أوتيته من الدنيا وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً؛ رَغِبَ تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصول إليها، فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾: التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله التي قد جمعت كل نعيم واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾: داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾؛ أي: ليس لهم إرادة؛ فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله والتكبر عليهم وعلى الحق؟! ﴿وَلَا فَسَادًا﴾: وهذا شامل لجميع المعاصي؛ فإذا كان^(١) لا إرادة لهم في العلو في الأرض ولا الفساد^(٢)؛ لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدتهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله والانتياذ للحق والعمل الصالح، وهؤلاء هم المتقون، الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾؛ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر لمن اتقى الله تعالى. وغيرهم، وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة؛ فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة أن الذين يريدون العلو في الأرض أو الفساد ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا

كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٨٤)

﴿٨٤﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله وتمام عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾: شَرَطَ فيها أن يأتي بها العامل؛ لأنه قد يعملها ولكن يقترن بها ما لا تُقْبَلُ منه أو يُبْطَلُها؛ فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقه تعالى وحقوق العباد^(٣)، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾؛ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى: ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾: هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يضاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ واسعٌ عَلِيمٌ﴾:

(١) في (ب): «كانوا».

(٢) في (ب): «والإفساد».

(٣) في (ب): «وحق عباده».

بحسب حال العامل وعمله ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿ومن جاء بالسيئة﴾: وهي كل ما نهى الشارع عنه نهى تحريم؛ ﴿فلا يُجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾؛ كقوله تعالى: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يُجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾.

﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيْنَا مَعَادٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ مَّآئِةِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْوَحْيَ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْكُفْرُ وَاللَّيْءُ يُرْعَفُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿٨٥﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾؛ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين والدعوة لأحكامه جميع المكلفين؛ لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معادٍ يُجازى فيه المحسنون بإحسانهم والمسيئون بمعصيتهم، وقد بينت لهم الهدى وأوضحت لهم المنهج؛ فإن تبعوك؛ فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عضيانك والقدح بما جئت به من الهدى وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق؛ فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة والمحقق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قل ربِّي أعلم مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿٨٦﴾ ﴿وما كنت تزدجو أن تلقى إليك الكتاب﴾؛ أي: لم تكن متحريراً لتزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً، ﴿إلا رحمة من ربك﴾: بك وبالعباد، فأرسلك بهذا الكتاب الذي رحّم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لقي ﴿ضلال مبين﴾: فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه؛ علمت أن جميع ما أمر به ونهى عنه؛ فإنه رحمة وفضل من الله؛ فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفته أصلح وأنفع، ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾؛ أي: معيناً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم أن يقال في شيء منه: إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿٨٧﴾ ﴿ولا يصدُّكَ عن آياتِ الله بعد إذ أنزلت إليك﴾: بل أنبلغها وأنفذها، ولا تُبالِ بمكرهم، ولا يخذعُكَ عنها، ولا تتبع أهواءهم، ﴿وادعُ إلى ربِّك﴾؛ أي: اجعل الدعوة إلى ربِّك منتهى قصديك وغاية عمليكَ، فكلُّ ما خالف ذلك؛ فارقضه من رياءٍ أو سمعةٍ أو موافقةٍ أغراض أهل الباطل؛ فإنَّ ذلك داع إلى الكون معهم ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿ولا تكوننَّ من المشركين﴾: لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿٨٨﴾ ﴿ولا تدعُ مع الله إلهاً آخر﴾: بل اخلص لله عبادتك؛ فإنه ﴿لا إله إلا هو﴾: فلا أحد يستحقُّ أن يؤلَّهُ ويحبَّ ويعبدَ إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كلُّ شيء هالكٌ إلا وجهه﴾: وإذا كان كلُّ شيء هالكٌ مضمحلٌّ سواه؛ فعبادته الهالك الباطل باطله بطلان غايتها وفساد نهايتها، ﴿له الحكم﴾: في الدنيا والآخرة، ﴿وإليه﴾: لا إلى غيره ﴿ترجعون﴾: فإذا كان ما سوى الله باطلاً هالكاً، والله هو الباقي الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم؛ ليجازيهم بأعمالهم؛ تعيَّن على مَنْ له عقلٌ أن يعبدَ الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربُه ويُدنيه، ويحذَر من سخطه وعقابه، وأن يُقدِّم على ربِّه غير نائبٍ ولا مقلعٍ عن خطيئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص.

ولله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً.



تفسير سورة العنكبوت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ﴿٢﴾ ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٣﴾.

﴿١ - ٣﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته، وأنَّ حكمته لا تقتضي أن كلَّ مَنْ قال إنه مؤمنٌ وادعى لنفسه الإيمان؛ أن يَبْقُوا في حالة يَسْلَمُونَ فيها من الفتن والمنح، ولا يَعْرضُ لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه؛ فإنَّهم لو كان الأمر كذلك؛ لم

يتميز الصادق من الكاذب والمحقق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة أن يبتليهم بالسراء والضراء والعسر واليسر^(١) والمنشط والمكره والغنى والفقر وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل ونحو ذلك من الفتن، التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة والشهوات المعارضة للإرادة؛ فمن كان عند ورود الشبهات يثبت إيمانه ولا يتزلزل ويدفعها^(٢) بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب أو الصارفة عن ما أمر الله به ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان ويجاهد شهوته؛ دل ذلك على صدق إيمانه وصحته، ومن كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكاً وريباً، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدفه عن الواجبات؛ دل ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه. والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا الله؛ فمستقل ومستكثر. فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه؛ فالابتلاء والامتحان للنفس بمنزلة الكبر يخرج حبتها وطيبها.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾

﴿٤﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنایات أن أعمالهم ستهمل وأن الله سيغفل عنهم أو يفوتونه؛ فلذلك أقدموا عليها وسهل عليهم عملها؟! ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾؛ أي: ساء حكمهم؛ فإنه حكم جائر لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَنَنْجَاهُ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿٥﴾ يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته! أبشر بقرب لقاء الحبيب؛ فإنه آت، وكل ما هو آت قريب^(٣)، فتزود للقائه، وسر نحوه مستصحباً الرجاء مؤملاً الوصول إليه.

(٢) في (ب): «ويدفعه».

(١) في (ب): «واليسر والعسر».

(٣) في (ب): «إنما هو قريب».

﴿٦﴾ ولكن ما كل من يدعى يعطى بدعواه، ولا كل من تمئى يعطى ما تمناه؛ فإن الله سميع للأصوات عليم بالنيات؛ فمن كان صادقاً في ذلك؛ أناله ما يرجو، ومن كان كاذباً؛ لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح، ﴿وَمَنْ جَاهَدَ﴾: نفسه وشيطانه وعدوه الكافر؛ ﴿فإنما يجاهد لنفسه﴾: لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به ليتفجع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم، وقد علم أن الأمر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد؛ لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهأ عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذه^(١) معارضات تحتاج إلى مجاهداتٍ وسعي شديد.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٧).

﴿٧﴾ يعني: أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح سيكفر الله عنهم سيئاتهم؛ لأن الحسنات يذهب السيئات، ﴿ولنجزيَنَّهُم أحسن الذي كانوا يعملون﴾؛ وهي أعمال الخير من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد؛ لأنه يعمل المباحات أيضاً وغيرها.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَّا مَرْجِعُكُمْ فَأَنْتُمْكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٨).

﴿٨﴾ أي: وأمرنا الإنسان ووصيناه بوالديه حسناً؛ أي: ببرهما والإحسان إليهما بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله، ﴿وإن جاهداك﴾ على أن تشرك ﴿بي ما ليس لك به علم﴾: وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك. ﴿فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنتكم بما كنتم تعملون﴾: فأجازيكم بأعمالكم؛ فبروا والديكم، وقدموا طاعتها إلا على طاعة الله ورسوله؛ فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ (٩).

(١) في (ب): «هذا».

﴿٩﴾ أي: مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً؛ فَإِنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ فِي جُمْلَةِ عِبَادِ^(١) اللَّهِ الصَّالِحِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، كُلٌّ عَلَى حَسَبِ دَرَجَتِهِ وَمَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ؛ فَالْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ عُنْوَانٌ عَلَى سَعَادَةِ صَاحِبِهِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَنِ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿١٠ - ١١﴾ لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان؛ ليظهر الصادق من الكاذب؛ بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمناً بالله فإذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾: بضرب أو أخذ مال أو تعبير؛ ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل؛ ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾؛ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه؛ كما أن العذاب صاد عما هو سببه. ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾: لأنه موافق للهوى.

فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾. ﴿أو لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾: حيث أخبركم^(٢) بهذا الفريق الذي حاله كما وصفت لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته. ﴿ولَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: فلذلك قدر محناً وابتلاء؛ ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجردة؛ لأنهم قد يحتجون على الله أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

(٢) في (ب): «خبركم».

(١) في (ب): «عباده».

﴿١٢﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا أتبعوا سبيلنا﴾: فاتركوا دينكم أو بعضه، وأتبعونا في ديننا؛ فإننا نضمن لكم الأمر، ونحمل ﴿خطاياكم﴾: وهذا الأمر ليس بأيديهم؛ فلهذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: لا قليل ولا كثير؛ فلهذا التحمل ولو رضي به صاحبه؛ فإنه لا يفيد شيئاً؛ فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

﴿١٣﴾ ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾: قد يتوهم منه أيضاً أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه؛ قال محترزاً عن هذا الوهم: ﴿ولنحملن أثقالهم﴾؛ أي: أنقال ذنوبهم التي عملوها، ﴿وأثقالاً مع أثقالهم﴾: وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرأتهم؛ فالذنب الذي فعله التابع لكل من التابع والمتبوع حصة منه: هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع لأنه تسبب في فعله ودعا إليه؛ كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالمباشرة وللداعي أجره بالتسبب، ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾: من الشر وترينه وقولهم: ﴿ولنحمل خطاياكم﴾.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَجْبَنَهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

﴿١٤﴾ يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبات^(١) الأمم المكذبة، وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه [الصلاة و] السلام إلى قومه يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾: نبياً داعياً ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾: وهو لا يني بدعوتهم ولا يفتّر في نصحهم؛ يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرشدوا ولا^(٢) اهتدوا بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة والسلام مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾؛ أي:

(١) في (ب): «عقوبة».

(٢) في (ب): «ولم».

الماء الذي نزل من السماء بكثرة وتَبَعَ^(١) من الأرض بشدة، ﴿وهم ظالمون﴾؛ مستحقون للعذاب.

﴿١٥﴾ ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾: الذين ركبوا معه؛ أهله ومن آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾؛ أي: السفينة أو قصة نوح ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾: يعتبرون بها على أن مَنْ كَذَّبَ الرسل آخر أمره الهلاك، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ سَيَجْعَلُ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَخْرَجًا، وجعل الله أيضاً السفينة؛ أي: جنسها آية للعالمين؛ يعتبرون بها رحمة ربهم الذي قَبِضَ لَهُمْ أَسْبَابَهَا، وَسَرَّ لَهُمْ أَمْرَهَا، وجعلها تحملهم، وتحويل متاعهم من محل إلى محل، ومن قطر إلى قطر.

﴿وَأَرْهَبَهُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾
 إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ كَذَّبْتُمْ فَتَقَدَّبُكُمْ أُمُودٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْشَأَ بِمُعْجِزَاتِنَا فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿١٦﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه السلام إلى قومه يدعوه إلى الله، فقال لهم^(٢): ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾؛ أي: وحده وأخلصوا له العبادة وامتلوا ما أمركم به، ﴿وَاتَّقُوهُ﴾: أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي. ﴿ذَلِكُمْ﴾؛ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾: من ترك ذلك، ولهذا من باب إطلاق أفعال التفضيل بما ليس في الطرف الآخر منه شيء؛ فَإِنَّ تَرْكَ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَرْكَ تَقْوَاهُ لَا خَيْرَ فِيهِ بَوَاحٍ، وَإِنَّمَا كَانَتْ عِبَادَةُ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ خَيْرًا لِلنَّاسِ لِأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى نَيْلِ كِرَامَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِذَلِكَ، وَكُلُّ خَيْرٍ يَوْجَدُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ آثَارِ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: ذلك؛ فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإيثار.

(٢) في (ب): «فقال».

(١) في (ب): «فنبع».

﴿١٧ - ١٨﴾ فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه؛ نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكَأً﴾: تنحيتونها، وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتختلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: في نقصه وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾: فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة لا تملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تألهه وتسأله حوائجها. فقال حاثاً لهم على من يستحق العبادة: ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾: فإنه هو الميسر له المقدر المجيب لدعوة من دعاه لمصالح دينه ودنياه، ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾: وحده لا شريك له؛ لكونه الكامل النافع الضار المتفرد بالتدبير، ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾: وحده؛ لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمنه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم؛ فهو الدافع لها. ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾: فيجازيكم^(١) على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتهم وأعلنتهم؛ فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وازغبوا فيما يقربكم إليه ويثيكم عند القدوم عليه.

﴿١٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ﴾: يوم القيامة. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿٢٠﴾ ﴿قُلْ﴾: لهم إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: بأبدانكم وقلوبكم، ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة؛ فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم -؛ وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم حتى انفلق الأصباح، فاتبهاوا من رقدهم، وبعثوا من موتهم؛ قائلين: الحمد لله الذي أحيانا

(١) في (ب): «يجازيكم».

بعدما أماننا وإليه التُّشور. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾: بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ النِّشَاءَ الآخِرَةَ﴾: وهي النِّشَاءُ التي لا تَقْبَلُ موتاً ولا نوماً، وإِنَّمَا هو الخلودُ والدوامُ في إحدى الدارين. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته تعالى لا يُعْجِزُهَا شيءٌ، وكما قَدِرَ بها على ابتداء الخلق؛ فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿٢١﴾ ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيبُ العاصين والتنكيل بهم، ﴿وإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾؛ أي: ترجعونَ إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكْتَسَبُوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه وهو المعاصي.

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: يا هؤلاء المكذِّبون المتجرِّؤون على المعاصي! لا تحسبوا أنه مغفولٌ عنكم أو أنكم معجزون^(١) لله في الأرض ولا في السماء؛ فلا تُعْزِّتْكُمْ قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم من النجاة من عذاب الله، فليستُم بمعجزينَ الله في جميع أقطار العالم، ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يتولَّاكم فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾: ينصركم فيدفع عنكم المكاره.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِدُوا إِلَى اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿٢٣﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخيرُ وحصلَ لهم الشرُّ، وأنهم الذين كفروا به وبرسله وبما جاؤوهم به، وكذبوا بقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا؛ فلذلك أقدموا^(٢) على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي﴾؛ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يُحْصِلُونَ به الرحمة، وإلَّا؛ فلو طمعوا في رحمته؛ لعملوا لذلك أعمالاً.

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها وتركهم جميع سبب يقربهم منها. وإياس العصاة بسبب كثرة جنایاتهم أو حشنتهم فملكَّت قلوبهم، فأحدث لها الإياس. ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: مؤلم موجه.

(٢) في (ب): «قدموا».

(١) في (ب): «أو معجزين الله».

وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم لقومه وردّهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَاقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿٢٤﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم لإبراهيم^(١) حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته والاهتداء بنصحه ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شرّ مجاوبة، ﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾: أشنع القتل، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار، ﴿فأنجاه الله﴾: منها. ﴿إنّ في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾: فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل وبرّهم ونصحهم وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصلوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿٢٥﴾ ﴿وقال﴾: لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودةً بينكم في الحياة الدنيا﴾؛ أي: غاية ذلك مودة في الدنيا ستقطع وتضمحل، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾؛ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر، وإذا حشر الناس؛ كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين؛ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه سيتبرأ من عابديه، ويلعنهم. وأن ماوى الجميع العابدين والمعبودين ﴿النار﴾: وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿فَأَمَّن لَّمْ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاتَقْتُهُ آجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرّون

(١) في (ب): «إبراهيم».

على عنادهم؛ إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره، ﴿وقال﴾: إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إني مهاجرٌ إلى ربي﴾؛ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجرٌ إلى الأرض المباركة، وهي الشام. ﴿إنه هو العزيز﴾؛ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم، ما اقتضت حكمته ذلك.

ولما اعتزلهم وفارقهم وهم بحالهم؛ لم يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم وهجرته من بين أظهرهم، فأما ما يُذكر في الإسرائيليات أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم؛ فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد؛ فلو كان الله استأصلهم بالعذاب؛ لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن هل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم وأحلمهم وأجلهم؛ فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجزى بسببه عذاباً عاماً؟ ومما يدل على ذلك أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه. والله أعلم بالحال.

﴿٢٧﴾ ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾؛ أي: بعدما هاجر إلى الشام، ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾: فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى حُتموا بابنه محمد ﷺ وعليهم أجمعين. وهذا من أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح والفوز في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون، ﴿وآتيناه أجره في الدنيا﴾: من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرئت عينه، ومعرفة الله ومحبته والإنابة إليه. ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾: بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلّم أفضل الصالحين على الإطلاق وأعلام منزلة. فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿ولو لوط إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٢٨﴾ أينكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في نكايكم المنكر فما

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِيْنَ ﴿٣٠﴾ [وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرٰهِيْمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوْكُمْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظٰلِمِيْنَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِن فِيْهَا لَوْطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَوْتٍ بِهِنَّ وَصَافِك بِهِنَّ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا نَخَفُ وَلَا نَحْزَنُ إِنَّا مُنْجُوْكُمْ وَأَهْلَكُمْ إِلَّا أَمْرًا كَذَبْتُمْ إِنَّ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُوْنَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴿٣٥﴾] (١)

تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم؛ فقوله تعالى: ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾: وإن كان عاماً؛ فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً، وهو ليس من ذريته؛ لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه؛ أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي. والله أعلم.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور وتقطيع السبيل وفشوا المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبيّن لهم قبائحها في نفسها وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يزعموا ولم يذكروا. ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أتينا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾.

﴿٣٥ - ٣٥﴾ فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم، و﴿قال رب انصُرني على القوم المفسدين﴾: فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل ذلك، وبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم: أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إن فيها لوطاً﴾، فقالوا له: ﴿لنتجيتة وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾: ثم مضوا حتى أتوا

(١) ما بين المعقوفين زيادة لا توجد في (أ). وفي (ب): إلى آخر القصة.

لوطاً، فسأه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً؛ بحيث إنه لم يعرفهم، وظنّ أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مَنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ. إِنَّا نَمُزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً﴾؛ أي: عذاباً ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾: فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا؛ قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم فصاروا سمراً من الأسمار وعبرة من العبر. ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: تركنا من ديار قوم لوط آثاراً بيّنة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم فينتفعون بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّحْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جثيين ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾: القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شعيباً﴾: فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض ببخس المكاييل والموازين والسعي بقطع الطرق. ﴿فكذبوه﴾: فأخذهم عذاب الله، ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكِنِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ فَعَدَّهُمْ مِنَ السَّيْلِ وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَفَرُوا وَفُرَعُوا وَهَمَزُوا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُؤْمِنٌ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٨﴾ أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمت^(١) قصصهم، وتبين لكم شيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات المفيدة للبصيرة، فكذبوهم وجادلوهم، وزين لهم الشيطان

(١) في (ب): «علمتم».

عملهم، حتى ظنوا أنه أفضل مما جاءتهم به الرسل.

﴿٣٩﴾ وكذلك قارون وفرعون وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات والبراهين الساطعات، فلم ينقادوا، واستكبروا في الأرض على عباد الله فأذلوهم، وعلى الحق فردوه فلم يقدرُوا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة. ﴿وما كانوا سابقين﴾: الله ولا فائتين، بل سلموا واستسلموا.

﴿٤٠﴾ ﴿فكلاً﴾: من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أخذنا بذنبي﴾: على قدره ويعقوبة مناسبة له، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾؛ أي: عذاباً يخصبهم كقوم عاد حين أرسل الله عليهم الريح العقيم و﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففرى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾، ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾: كقوم صالح، ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾: كقارون، ﴿ومنهم من أغرقنا﴾: كفرعون وهامان وجنودهما. ﴿وما كان الله﴾؛ أي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله وغناه التام عن جميع الخلق، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾: منعوا حقها التي هي بصدده؛ فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده؛ فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وشغلوا^(١) بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر من حيث ظنوا أنهم يفعونها.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤١﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده؛ فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً يقبها من الحر والبرد والآفات، ﴿وإن أوهن البيوت﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لبيت العنكبوت﴾: فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت؛ فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً.

كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه،

(١) في (ب): «وأشغلوا».

وحين اتَّخَذُوا الأولياء من دونه يتعزَّزون بهم ويستنصرونهم؛ ازدادوا ضَعْفًا إلى ضعفهم ووهناً إلى وهنهم؛ فإنَّهم اتَّكَلُوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقَوْها عليهم، وتخلَّوْا هم عنها؛ على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقلَّ نائل؛ فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم حالهم وحال مَنْ اتَّخَذُوهم؛ لم يتَّخِذُوهم، ولتبرؤوا منهم، ولتولَّوْا الرَبَّ القادر الرحيم، الذي إذا تولَّاه عبده وتوكَّل عليه؛ كفاه مؤونة دينه ودنياه، وازداد قوَّة إلى قوَّته في قلبه وبدنه^(١) وحاله وأعماله.

﴿٤٢﴾ ولَمَّا بَيَّنَّ نِهَآةً ضَعْفَ آلِهَةِ الْمُشْرِكِينَ؛ ارتقى من هَذَا إلى مَا هُوَ أْبْلَغُ مِنْهُ، وَأَنَّهَا لَيْسَ بِشَيْءٍ، بَلْ هِيَ مَجْرَدُ أَسْمَاءٍ سَمَّوْهَا وَظَنُونِ اعْتَقَدُوهَا، وَعِنْدَ التَّحْقِيقِ يَتَبَيَّنُ لِلْعَاقِلِ بَطْلَانُهَا وَعَدْمُهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾؛ أَي: إِنَّهُ تَعَالَى يَعْلَمُ - وَهُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ - أَنَّهُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا مَوْجُودًا وَلَا إِلَهًا لَهُ حَقِيقَةٌ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾: الَّذِي لَهُ الْقُوَّةُ جَمِيعًا، الَّتِي قَهَرَ بِهَا جَمِيعَ الْخَلْقِ. ﴿الْحَكِيمُ﴾: الَّذِي يَضَعُ الْأَشْيَاءَ مَوَاضِعَهَا، الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَأَتَقَنَ مَا أَمَرَهُ.

﴿٤٣﴾ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾؛ أَي: لِأَجْلِهِمْ وَلَا نَتَفَاعَهُمْ وَتَعْلِيمَهُمْ؛ لِكُونِهَا مِنْ الطَّرِيقِ الْمَوْضُحَةِ لِلْعُلُومِ؛ لِأَنَّهَا تُقَرِّبُ الْأُمُورَ الْمَعْقُولَةَ بِالْأُمُورِ الْمَحْسُوسَةِ، فَيُتَّضَحُ الْمَعْنَى الْمَطْلُوبُ بِسَبَبِهَا؛ فَهِيَ مُصْلِحَةٌ لِعَمُومِ النَّاسِ. ﴿و﴾ لَكِنْ ﴿مَا يَعْقِلُهَا﴾: لِفَهْمِهَا وَتَدْبِيرِهَا وَتَطْبِيقِهَا عَلَى مَا ضَرِبَتْ لَهُ وَعَقَلَهَا فِي الْقَلْبِ ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾؛ أَي: إِلَّا أَهْلَ الْعِلْمِ الْحَقِيقِيِّ، الَّذِينَ وَصَلَ الْعِلْمُ إِلَى قُلُوبِهِمْ. وَهَذَا مَدْحٌ لِلْأَمْثَالِ الَّتِي يَضْرِبُهَا، وَحُثٌّ عَلَى تَدْبِيرِهَا وَتَعْقِلِهَا، وَمَدْحٌ لِمَنْ يَعْقِلُهَا، وَأَنَّهُ عِنَاؤٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَعَلِمَ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْقِلْهَا لَيْسَ مِنَ الْعَالِمِينَ.

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْأَمْثَالَ الَّتِي يَضْرِبُهَا اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا هِيَ لِلْأُمُورِ الْكِبَارِ وَالْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ وَالْمَسَائِلِ الْجَلِيلَةِ، فَأَهْلُ الْعِلْمِ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا أَهْمٌ مِنْ غَيْرِهَا؛ لِاعْتِنَاءِ اللَّهِ بِهَا، وَحُثِّهِ عِبَادَهُ عَلَى تَعْقِلِهَا وَتَدْبِيرِهَا، فَيَبْذُلُونَ جِهَدَهُمْ فِي مَعْرِفَتِهَا،

(١) فِي (ب): «وَفِي بَدَنِهِ».

وأما من لم يَعْقِلْهَا مع أَمِيَّتِهَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَعْرِفِ الْمَسَائِلَ الْمَهْمَةَ، فَعَدَمَ مَعْرِفَتِهِ غَيْرَهَا مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى، وَلِهَذَا أَكْثَرَ مَا يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ فِي أَصُولِ الدِّينِ وَنَحْوِهَا.

﴿حَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٤).

﴿٤٤﴾ أي: هو تعالى المنفردُ بخلق السماواتِ على علوِّها وارتفاعها وسعِّتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار والبراري والقفار والأشجار ونحوها، وكلُّ ذلك خَلَقَهُ بِالْحَقِّ؛ أي: لَمْ يَخْلُقْهَا عَبَثًا وَلَا سُدَى وَلَا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليزروا من حكمته وقهره وتديبره ما يدلُّهم على أَنَّهُ وَحْدَهُ مَعْبُودُهُمْ وَمَحْبُوبُهُمْ وَالْهَمُّمُ. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبَّرها المؤمن؛ رأى ذلك فيها عياناً.

﴿أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَأُ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (٤٥).

﴿٤٥﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته: اتِّبَاعُهُ بِامْتِثَالِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَاجْتِنَابِ مَا يَنْهَى [عنه]، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبُّر معانيه، وتلاوة ألفاظه. فصار تلاوةً لفظيةً جزءاً المعنى وبعضه، وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب؛ عَلِمَ أَنَّ إِقَامَةَ الدِّينِ كُلُّهُ دَاخِلَةٌ فِي تِلَاوَةِ الْكِتَابِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: من باب عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لفضل الصلاة وشرفها وأثارها الجميلة، وهي: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فالفحشاء كلُّ ما اسْتَعْظَمَ وَاسْتَفْحَشَ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي تَشْتَهِيهَا النُّفُوسُ، وَالْمُنْكَرُ كُلُّ مَعْصِيَةٍ تُنْكَرُهَا الْعُقُولُ وَالْفُطُرُ.

ووجه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: أَنَّ الْعَبْدَ الْمُقِيمَ لَهَا الْمُتَمِّمَ لِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَخُشُوعِهَا يَسْتَنْبِئُ قَلْبُهُ وَيَتَطَهَّرُ فُؤَادُهُ وَيَزْدَادُ إِيمَانُهُ وَتَقْوَى رَغْبَتُهُ فِي الْخَيْرِ وَتَقَلُّ أَوْ تَعْدَمُ رَغْبَتُهُ فِي الشَّرِّ؛ فَبِالضَّرُورَةِ مَدَاوِمَتِهَا، وَالْمَحَافِظَةَ عَلَيْهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ؛ فَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الصَّلَاةِ^(١) وَثَمَرَاتِهَا.

(١) في (ب): «أعظم مقاصدها».

وَتَمَّ فِي الصَّلَاةِ مَقْصُودٌ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَأَكْبَرُ، وَهُوَ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْبَدَنِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ الْعِبَادَةَ^(١) لِعِبَادَتِهِ، وَأَفْضَلُ عِبَادَةٍ تَقَعُ مِنْهُمْ الصَّلَاةُ، وَفِيهَا مِنْ عِبُودِيَّاتِ الْجَوَارِحِ كُلِّهَا مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهَا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمَّا أَمَرَ بِالصَّلَاةِ وَمَدَحَهَا؛ أَخْبَرَ أَنَّ ذِكْرَهُ تَعَالَى خَارِجُ الصَّلَاةِ أَكْبَرُ مِنَ الصَّلَاةِ؛ كَمَا هُوَ قَوْلُ جَمْهُورِ الْمَفْسَّرِينَ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ أَوْلَى؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ أَفْضَلُ مِنَ الذِّكْرِ خَارِجِهَا، وَلِأَنَّهَا - كَمَا تَقَدَّمَ - بِنَفْسِهَا مِنْ أَكْبَرِ الذِّكْرِ. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾: مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، فَيَجَازِيكُمْ عَلَى ذَلِكَ أَكْمَلَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهُ.

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالنُّهْنَاءُ وَالنُّهْمَاءُ وَحَدُّ وَتَحْنُ لَمْ تُسَلِّمُونَ﴾ (٤٦).

﴿٤٦﴾ يَنْهَى تَعَالَى عَنِ مَجَادَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ إِذَا كَانَتْ عَنْ غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنَ الْمَجَادِلِ أَوْ بَغَيْرِ قَاعِدَةٍ مَرْضِيَّةٍ، وَأَنْ لَا يَجَادِلُوا إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؛ بِحَسَنِ خُلُقٍ وَلَطْفٍ وَلِينٍ كَلَامٍ وَدَعْوَةٍ إِلَى الْحَقِّ وَتَحْسِينِهِ، وَرَدًّا عَنِ الْبَاطِلِ وَتَهْجِينِهِ بِأَقْرَبِ طَرِيقٍ مُوَصِلٍ لِذَلِكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ الْقَصْدُ مِنْهَا مَجْرَدَ الْمَجَادَلَةِ وَالْمَغَالِبَةِ وَحُبِّ الْعُلُوِّ، بَلْ يَكُونُ الْقَصْدُ بَيَانِ الْحَقِّ وَهَدَايَةِ الْخَلْقِ، ﴿إِلَّا﴾: مَنْ ظَلَمَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ؛ بِأَنْ ظَهَرَ مِنْ قَصْدِهِ وَحَالِهِ أَنَّهُ لَا إِرَادَةَ لَهُ فِي الْحَقِّ، وَإِنَّمَا يَجَادِلُ عَلَى وَجْهِ الْمَشَاغِبَةِ وَالْمَغَالِبَةِ؛ فَهَذَا لَا فَائِدَةَ فِي جِدَالِهِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهَا ضَائِعٌ، ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَالنُّهْنَاءُ وَالنُّهْمَاءُ وَحَدُّ﴾؛ أَي: وَلَتَكُنْ مَجَادِلَتُكُمْ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مَبْنِيَّةً عَلَى الْإِيمَانِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَأَنْزَلَ إِلَيْهِمْ، وَعَلَى الْإِيمَانِ بِرَسُولِكُمْ وَرَسُولِهِمْ، وَعَلَى أَنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَلَا تَكُنْ مَنَازِرَتُكُمْ إِيَّاهُمْ عَلَى وَجْهِ يَحْضُلُ بِهِ الْقَدْحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَوْ بِأَحَدٍ مِنَ الرُّسُلِ كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ عِنْدَ مَنَازِرَةِ الْخَصُومِ يَقْدَحُ بِجَمِيعِ مَا مَعَهُمْ مِنْ حَقٍّ وَبَاطِلٍ؛ فَهَذَا ظَلَمٌ وَخُرُوجٌ عَنِ الْوَاجِبِ وَأَدَابِ النَّظَرِ؛ فَإِنَّ الْوَاجِبَ أَنْ يُرَدَّ مَا مَعَ الْخَصْمِ مِنَ الْبَاطِلِ، وَيُقْبَلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْحَقِّ، وَلَا يُرَدُّ الْحَقُّ لِأَجْلِ قَوْلِهِ، وَلَوْ كَانَ كَافِرًا.

وَأَيْضًا؛ فَإِنَّ بِنَاءَ مَنَازِرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ فِيهِ إِلْزَامٌ لَهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِالْقُرْآنِ وَبِالرُّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأَصُولِ الدِّينِيَّةِ وَالَّتِي اتَّفَقَتْ عَلَيْهَا

(١) فِي (ب): «الخلق».

الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين وثبتت حقائقها عندهما وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ قد بيّنتها، ودلت عليها وأخبرت بها؛ فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام، فأما أن يقال: نؤمن بما دل عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحق الذي صدق ما قبله؛ فهذا ظلم وهوى^(١)، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها المصدق لما بين يديه من التوراة؛ فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن. وأيضاً؛ فإن كل طريق ثبت بها نبوة أي نبي كان؛ فإن مثلها وأعظم منها دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يُقدح بها في نبوة محمد ﷺ؛ فإن مثلها أو^(٢) أعظم منها يمكن توجيهها إلى نبوة غيره؛ فإذا ثبت بطلانها في غيره؛ فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر. وقوله: «ونحن له مسلمون»؛ أي: متقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به واتخذها إلهاً وآمن بجميع كتبه ورسله وانقاد لله وأتبع رسله؛ فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق؛ فهو الشقي.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آءَانْتَهُمُ الْكُتُبَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿٤٧﴾ أي: «وكذلك أنزلنا إليك»؛ يا محمد، هذا «الكتاب» الكريم، المبين كل نبا عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون، «فالذين آتيناهم الكتاب»؛ فعرفوه حق معرفته ولم يداخلهم حسد وهوى، «يؤمنون به»؛ لأنهم تيقنوا صدقه بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبیح والصدق والكذب. «ومن هؤلاء»؛ الموجودين «من يؤمن به»؛ إيماناً عن بصيرة لا عن رغبة ولا رهبة، «وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون»؛ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به؛ أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا؛ فكل من له قصد صحيح؛ فإنه لا بد أن يؤمن به؛ لما اشتمل عليه من البينات لكل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد. ومما يدل على صحته أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر

(١) في (ب): «وجور».

(٢) في (ب): «أو».

أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، بل ولا^(١) يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البيّنات الفاطمة التي لا تقبل الارتياب أنه من عند الله العزيز الحميد.

﴿٤٨﴾ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو﴾؛ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تخطئه بيمينك إذا﴾: لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾: فقالوا تعلمه من الكتب السابقة أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك كتاباً جليلاً تحدّثت به الفصحاء والبلغاء الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدّتهم أنفسهم بالمعارضة؛ لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿٤٩﴾ أي: بل هذا القرآن ﴿آياتٌ بينات﴾: لا خفيات ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾: وهم سادة الخلق وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم والأكمل منهم، فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء؛ كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾: لأنه لا يجحدّها إلا جاهل، تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ وَذِكْرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَشْفَعُ عَندهُمْ وَأَمَّا بِالْبَاطِلِ وَأَكْفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٠﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عيها؛ كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً...﴾ الآيات، فتعيين الآيات ليس عندهم ولا عند الرسول ﷺ؛ فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذا، وينبغي أن يكون كذا، وليس لأحد من الأمر شيء، ولهذا قال: ﴿قل إنما^(٢) الآيات عند الله﴾: إن شاء أنزلها أو منعها، ﴿وإنما

(٢) في (ب): «ولهذا قال: إنما...».

(١) في (ب): «خطأ ولا».

أنا نذيرٌ مبينٌ: ﴿٥١﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة. وإذا كان القصدُ بيانَ الحقِّ من الباطل؛ فإذا حصل المقصود بأيِّ طريق كان؛ كان اقتراحُ الآياتِ المعيناتِ على ذلك ظلماً وجوراً وتكبُّراً على الله وعلى الحقِّ، بل لو قُدِّرَ أن تنزلَ تلك الآياتُ ويكونَ في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحقِّ إلا بها؛ كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا لا لأنه حقٌّ، بل لتلك الآياتِ؛ فأبي فائدة حصلت في إنزالها على التقديرِ الفرضيِّ؟

﴿٥١﴾ ولما كان المقصودُ بيانَ الحقِّ؛ ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾: في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به، ﴿أنا أنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم﴾: وهذا كلامٌ مختصرٌ جامعٌ فيه من الآياتِ البيناتِ والدلالاتِ الباهراتِ شيءٌ كثيرٌ؛ فإنه كما تقدّم إتيانُ الرسولِ به بمجردِه وهو أميٌّ من أكبر الآياتِ على صدقه، ثم عجزهم عن معارضته وتحذيرهم إيَّاه^(١) آيةً أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهراً علانيةً يتلى عليهم، ويقالُ هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقتٍ قلَّ فيه أنصاره وكثُرَ مخالفوه وأعداؤه؛ فلم يُخَفِه، ولم يثنِ ذلك عزمه، بل صرَّح به على رؤوسِ الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد؛ بأنَّ هذا كلامُ ربي؛ فهل أحدٌ يقدر على معارضته أو ينطقُ بمباراته أو يستطيع مجاراته؟! ثم إخباره عن قصصِ الأولين وأبناء السالفين^(٢) والغيوبِ المتقدِّمة والمتأخِّرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنتَه على الكتبِ المتقدِّمة وتصحيحُه للصحيح، ونفي ما أُدخِلَ فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه؛ فما أمر بشيء فقال العقلُ: ليتَه لم يأمر به، ولا نهى عن شيءٍ فقال العقلُ: ليتَه لم ينه عنه، بل هو مطابقٌ للعدل والميزان والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، ثم مسابرةً إرشاداته وهدايته وأحكامه لكلِّ حال وكلِّ زمان بحيث لا تصلحُ الأمورُ إلا به؛ فجميع ذلك يكفي مَنْ أراد تصديقَ الحقِّ، وعَمِلَ على طلبِ الحقِّ؛ فلا كفى الله من لم يكفِهِ القرآن، ولا شفى الله من لم يشفِهِ الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى؛ فإنه رحمةٌ له وخيرٌ^(٣)؛ فلذلك قال: ﴿إنَّ في ذلك لرحمةً وذكراً لقوم يؤمنون﴾: وذلك لما يُحصَلون فيه من العلمِ الكثير، والخيرِ الغزير، وتزكية القلوب والأرواح،

(٢) في (ب): «السابقين».

(١) في (ب): «إياهم».

(٣) في (ب): «فإنه خير له».

وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية والأسرار الربانية.

﴿٥٢﴾ ﴿٥٢﴾ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً: ﴿٥٢﴾ فإنا قد استشهدته؛ فإن كنت كاذباً؛ أحلّ بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني، وينصرني، ويسرّ لي الأمور؛ فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله؛ فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً؛ فإنه ﴿٥٢﴾ يعلم ما في السموات والأرض: ﴿٥٢﴾ ومن جملة معلوماته حالي وحالكوم ومقالي لكم^(١)؛ فلو كنت متقولاً عليه مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي؛ لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿٥٢﴾ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين. ﴿٥٢﴾ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون: ﴿٥٢﴾ حيث خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ أَنَّ أَجَلَ مَسْمَىٰ لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَوْمَ يَشْهَدُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون استعجالاً للعذاب وزيادة تكذيب: ﴿٥٣﴾ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ يقول تعالى: ﴿٥٣﴾ ولولا أجل مسمى: ﴿٥٣﴾ مضروب لتزوله ولم يأت بعد، ﴿٥٣﴾ لجاهم العذاب: ﴿٥٣﴾ بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق؛ فلو أخذناهم بجهلهم؛ لكان كلامهم أسرع لبلائهم وعقوبتهم، ولكن مع ذلك؛ فلا يستبطئون^(٢) نزوله فإنه سيأتيهم ﴿٥٣﴾ بغتة وهم لا يشعرون ﴿٥٣﴾ فوق كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لبدر بطرين مفاخرين ظانين أنهم قادرون على مقصودهم، فأحانهم^(٣) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق منهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فاتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

(٢) في (ب): «فلا يستعجلون».

(١) في (ب): «ومقالكم».

(٣) أي: أهلكهم.

﴿٥٤﴾ هذا؛ وإن لم ينزل عليهم العذاب الديني؛ فإن أمامهم العذاب الأخروي الذي لا يخلص منهم أحدٌ منه، سواء عوجَل بعذاب الدنيا أو أمهل، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾: ليس لهم عنه معدلٌ ولا متصرف؛ قد أحاطت بهم من كل جانب كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب هو العذاب الشديد.

﴿٥٥﴾ ﴿يَوْمَ يَفْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذوقوا ما كنتم تعملون﴾: فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم الكفر والذنوب.

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِنَّا نَرْجِعُهُمْ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ يقول تعالى: ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾: بي وصدقوا رسولي، ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِبُدُونِ﴾: فإذا تعددت عليكم عبادة ربكم في أرض؛ فازتجولوا منها إلى أرض أخرى؛ حيث كانت العبادة لله وحده؛ فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم، ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية والمنازل الأنيقة الجامعة، لما تشتهي النفس، وتلذذ العين، وأنتم فيها خالدون. فنعم تلك المنازل في جنات النعيم أجر العاملين لله. ﴿الذين صبروا﴾: على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾: في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك. وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها. ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿وَكَايُنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿٦٠﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم قوتهم وعاجزهم؛ فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض ضعيفة القوى ضعيفة العقل، ﴿لا تحمل رزقها﴾: ولا تدخره، بل لم تنزل لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها

الرزق في كل وقت بوقته. ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾: فكلكم عيال الله القائم برزقكم كما قام بِخَلْقِكُمْ وتديبيركم. ﴿وهو السميع العليم﴾: فلا تخفى^(١) عليه خافية، ولا تهلك دأبه من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾^(١١)
 اللَّهُ يَسِطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ^(١٢) وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ^(١٣)﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، والزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية؛ فأنت لو ﴿سألتهم من خلق السموات والأرض﴾؟ ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها؟ ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿ليقولن: الله﴾ وحده، ولا اعترفوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك! فاعجب لإفكهم وكذبهم وعدولهم إلى من أفروا بعجزه وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً وستجلب عليهم لعدم العقل، وأنهم السفهاء ضعفاء الأحلام! فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه - وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر ولا يخلق ولا يرزق -، ثم صرف له خالص الإخلاص وصافي العبودية، وأشركه مع الرب الخالق الرازق النافع الضار؟! وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون؛ ليحذره الموفقون. وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتديبرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده، وما ينبغي لهم.

﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلِئِبَّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانِ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾^(١٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّوهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ^(١٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَسْتَمْتِعُوا فَسَوْفَ يَكْفُرُونَ^(١٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً مَهِينًا وَيَتَّخِذُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَهْبَالًا لَبِطِلَ يُؤْمِنُونَ وَبِعِزَّةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ^(١٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

(١) في (ب): «تخفى».

أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٦﴾

﴿٦٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾: في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾: تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان؛ بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات والشهوات الخالصة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطللة الباطلة، ثم تزول سريعاً وتنقضي جميعاً ولم يحصل منها محبها إلا على الندم والحسرة والخسران. وأما الدار الآخرة؛ فإنها دار ﴿الحيوان﴾؛ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة؛ لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذة من مفرحات القلوب وشهوات الأبدان من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾: لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون؛ لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب. فدل ذلك: أن^(١) الذين يعلمون لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا؛ لما يعلمونه من حالة الدارين.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله في حال^(٢) الشدة عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك؛ يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلمّا زالت عنهم الشدة - ونجّاهم من أخلصوا له الدعاء إلى البرّ - أشركوا به من لا نجّاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة؛ فهلاًّ أخلصوا لله الدعاء في حال الرخاء والشدّة واليسر والعسر؛ ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقّين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه، ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم بالنجاة من البحر ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا، الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همّ إلا بطونهم وفروجهم. ﴿فسوف يعلمون﴾: حين يتقبلون من الدنيا إلى الآخرة شدة الأسف واليأس العقوبة.

(٢) في (ب): «حالة».

(١) في (ب): «على أن».

(٣) في (ب): «زال».

﴿٦٧﴾ ثم امتنّ عليهم بحرمة الآمن، وأنهم أهل في أمنٍ وسعةٍ ورزقٍ، والناس من حولهم يُتَخَطَّفُونَ ويخافون، أفلا يعبدونَ الذي أطعمهم من جوعٍ وأمّتهم من خوفٍ؟! ﴿أفبالباطل يؤمنون﴾: وهو ما هم عليه من الشركِ والأقوالِ والأفعالِ الباطلةِ، ﴿وبنعمةِ الله﴾: هم ﴿يكفرون﴾؟ فأينَ ذهبَ عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطلَ على الحقِّ والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلمَ الخلق؟!!

﴿٦٨﴾ فمن ﴿أظلم ممّن افترى على الله كذباً﴾: فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله، ﴿وكذب بالحقّ لما جاءه﴾: على يد رسوله محمدٍ ﷺ، ولكنّ هذا الظالم العنيد أمامه جهنّم، ﴿أليس في جهنّم مثوىً للكافرين﴾: يُؤخَذُ بها منهم الحقُّ، ويُخزَوْنَ بها، وتكون منزلهم الدائم الذي ^(١) لا يخرجون منه؟

﴿٦٩﴾ ﴿والذين جاهدوا فينا﴾: وهم الذين هاجروا في سبيل الله وجاهدوا أعداءهم وبَدَلُوا مجهودهم في أتباع مرضاته؛ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾؛ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك لأنهم محسنون. والله مع المحسنين: بالعون والنصر والهداية.

دلّ هذا على أنّ أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أنّ مَنْ أحسنَ فيما أمرَ به؛ أعانه الله ويسّرَ له أسباب الهداية، وعلى أنّ مَنْ جدّ واجتهد في طلب العلم الشرعيّ؛ فإنّه يحصلُ له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمورٌ إلهيةٌ خارجةٌ عن مدرك اجتهاده، وتيسّر له أمر العلم؛ فإنّ طلب العلم الشرعيّ من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحدُ نوعي الجهاد، الذي لا يقومُ به إلا خواصُّ الخلق، وهو الجهادُ بالقول واللسان للكفار والمنافقين، والجهادُ على تعليم أمور الدين وعلى ردّ نزاع المخالفين للحقِّ، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه.



(١) في (ب): «الذين».

تفسير سورة الروم

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْع ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴿

﴿١ - ٥﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال ما يكون بين الدول المتوازنة، وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، [فكان المؤمنون] ^(١) يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون لا يفرحون لا بشركهم والفرس في الشرك يحبون ظهور الفرس على الروم، فظهر الفرس على الروم وغلبوهم ^(٢) غلباً لم يحط بمملكهم بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة وحزن المسلمون، فأخبرهم الله، ووعدهم أن الروم ستغلب الفرس ﴿في بضع سنين﴾: تسع أو ثمان ونحو ذلك مما لا يزيد على العشر ولا ينقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس للروم ثم غلبة الروم للفرس كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾: فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿ويومئذ﴾؛ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونهم، ﴿يفرح المؤمنون﴾ ينصر الله ينصر من يشاء؛ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفاراً، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وهو العزيز﴾: الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويدل من يشاء. ﴿الرحيم﴾: بعبادة المؤمنين؛ حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم ما لا يدخل في الحساب.

(٢) في (ب): «فغلبوهم».

(١) في (أ): «فكانوا».

﴿٦﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾: فتيقنوا ذلك، واجزموها به، واغلموا أنه لا بد من وقوعه. فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد؛ صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله. انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله. وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾: أن ما وعد الله به حق؛ فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعده، ويكذبون آياته.

﴿٧﴾ وهؤلاء الذين لا يعلمون؛ أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾: فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً؛ فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها المتصرف فيها. ﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾: قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها؛ فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة؛ فلا الجنة تشاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروغها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية^(١) والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به، وبرزوا وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب. قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطن، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون، ثم نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وحرموا من العقل العالي، فعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، إن هو إلا توفيقه أو^(٢) خذلائه، فخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته. وهذه الأمور لو قارنها الإيمان

(١) في (ب): «النارية».

(٢) في (ب): «و».

وَبَيَّنَتْ عَلَيْهِ؛ لِأَثْمَرَتِ الرَّقِيِّ الْعَالِي وَالْحَيَاةِ الطَّيْبَةِ، وَلَكِنَّهَا لَمَّا بُنِيَ كَثِيرٌ مِنْهَا عَلَى الْإِلْحَادِ؛ لَمْ تَثْمُرْ إِلَّا هَبُوطَ الْأَخْلَاقِ وَأَسْبَابَ الْفَنَاءِ وَالتَّدْمِيرِ.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارُوا الْآرْضَ وَعَمَّرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَّرُوهَا وَحَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٩﴾ أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿٨﴾ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿في أنفسهم﴾؛ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(١) بها أن الذي أوجدهم من العدم سيعيدهم بعد ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى آدمي قد نفخ فيه الروح إلى طفل إلى شاب إلى شيخ إلى هرم غير لائق أن يتركهم سدى مهملين. لا ينهاون، ولا يؤمرون، ولا يثابون، ولا يعاقبون. ﴿ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾؛ أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وأجل مسمى﴾؛ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا وتجيء القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات. ﴿وإن كثيراً من الناس بلىء ربهم لكاferون﴾: فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به.

﴿٩﴾ وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم وخالفوا أمرهم ممن هم أشد من هؤلاء قوة وأكثر آثاراً في الأرض من بناء قصور ومصانع ومن غرس أشجار ومن زرع وإجراء أنهار، فلم تُغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم حين كذبوا رسلهم الذين جاؤوهم بالبينات الدالات على الحق وصحة ما جاؤوهم به؛ فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك؛ لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة. وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل نموذج للجزاء الآخروي ومبتدأ له؛ وكل هذه الأمم المهلكة لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم وتسببوا في هلاكها.

(١) في (ب): «يعرف».

﴿١٠﴾ ﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤوا﴾؛ أي: المسيئين ﴿السواى﴾؛ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾: فهذا عقوبة لسؤئهم وذنوبهم، ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب يكون سبباً لأعظم العقوبات وأعضل المثالات.

﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُنْفَخُونَ أَصْفَادُهُمْ ﴿١٤﴾ فَمَنْ أَلَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿١١ - ١٣﴾ يخبر تعالى أنه المتفرّد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم. ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم ليجازيهم بأعمالهم. ولهذا ذكر جزاء أهل الشر ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿ويوم تقوم الساعة﴾: ويقوم الناس لرب العالمين، [ويرون] (١) القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أي: يياسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدّموا لذلك اليوم إلا الإجمام، وهي الذنوب من كفر وشرك ومعاص، فلما قدّموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب؛ أسوا، وأبلسوا، وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه من نفع شركائهم وأنهم يشفعون لهم، ولهذا قال: ﴿ولم يكن لهم من شركائهم﴾: التي عبدها مع الله ﴿شفعاء﴾ وكانوا بشركائهم كافرين: تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبدون وقالوا: تبرأنا إليك، ما كانوا إيانا يعبدون، والتعنوا وابتعدوا.

﴿١٤ - ١٦﴾ وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر كما افترق أعمالهم في الدنيا. ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: آمنوا بقلوبهم وصدّقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فهم في روضة﴾: فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتتهيات ﴿يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: يُسَرَّون، وينعمون بالمآكل اللذيذة والأشربة والحوار الحسان والخدم والولدان والأصوات المطربات والسماع المشجي والمناظر العجيبة والروائح الطيبة والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه. ﴿وأما الذين كفروا﴾: وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر، ﴿وكذبوا بآياتنا﴾: التي جاءتهم بها

رسلنا ﴿فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾: فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوهمهم، وقطع أمعاءهم؛ فأين الفرق بين الفريقين؟! وأين التساوي بين المنعمين والمعذبين!؟

﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿١٧ - ١٨﴾ هذا إخبارٌ عن تنزُّهه عن السوء والنقص وتقُدُّسه عن أن يماثله أحدٌ من الخلق، وأمرٌ للعباد أن يسبحوه حين يُمسون، وحين يُصبحون، ووقت العشي ووقت الظهر؛ فهذه الأوقات الخمسة أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه؛ كالمشملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب؛ كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات وما يقترن بها من النوافل؛ لأنَّ هذه الأوقات التي اختارها الله لأوقات المفروضات هي أفضل الأوقات؛ فالتسبيح والتحميد فيها والعبادة فيها أفضل من غيرها، بل العبادة وإن لم تشتمل على قول: سبحان الله؛ فإنَّ الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحقَّ أحدٌ من الخلق ما يستحقُّه من الإخلاص والإنابة.

﴿١٩﴾ ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: كما يُخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر... ونحو ذلك. ﴿ويُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: بعكس المذكور، ﴿ويُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فينزل عليها المطر وهي ميتة هامة؛ فإذا أنزل عليها الماء؛ اهتزت، وريبت، وأنبتت من كلِّ زوج بهيج. ﴿وكذلك تُخْرَجُونَ﴾: من قبوركم.

فهذا دليل قاطع وبرهان ساطع أن الذي أحيا الأرض بعد موتها فإنه يحيي الأموات؛ فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿٢٠﴾ هذا شروعٌ في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية وكمال عظمته ونفوذ مشيئته وقوة اقتداره وجميل صنعه وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾: وذلك بخلق أصل النسل آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون﴾؛ [أي: الذي خلقكم من أصلٍ واحدٍ ومادةٍ واحدة]، وبثكم في أقطار الأرض وأرجائها.

ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض هو الربُّ المعبود الملكُ المحمود والرحيمُ الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿٢١﴾ ﴿ومن آياته﴾: الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾: تناسبكم، وتناسبونهن، وتشاكلنكم، وتشاكلونهن؛ ﴿لتنسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً﴾: بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم والسكون إليها؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة. ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾: يُعملون أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، ويتفكرون من شيء إلى شيء.

﴿ومن آياته﴾: خلق السموات والأرض وأخلاف السنين والليل والنهار، ﴿إن في ذلك لآياتٍ للعلمين﴾.

﴿٢٢﴾ والعالمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر ويتدبرون الآيات، والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السموات والأرض؛ وما فيهما؛ أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته؛ لما فيها من الإتقان، وسعة علمه؛ لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه؛ ﴿ألا يعلم من خلق﴾، وعموم رحمته وفضله؛ لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المرید الذي يختار ما يشاء؛ لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يُعبد ويوحَّد؛ لأنه المنفرد بالخلق؛ فيجب أن يُقرَد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها، ﴿و﴾ كذلك في اختلاف السننكم والواتنكم: على كثرتكم وتباينكم مع أن

الأصل واحدٌ ومخارج الحروف واحدةٌ، ومع ذلك؛ لا تجدُ صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه؛ إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز.

وهذا دالٌّ على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وعنايته بعباده ورحمته بهم، أن قدر ذلك الاختلاف؛ لئلا يقع التشابه، فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿وَمِن آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ (٢٣)

﴿٢٣﴾ أي: سماع تدبُّرٍ وتعقُّل للمعاني والآيات في ذلك؛ إن ذلك دليلٌ على رحمة الله تعالى؛ كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وعلى تمام حكمته؛ إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا [به] ويجموا، وانتشارهم في وقت لمصالحهم الدنيئة والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

﴿وَمِن آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٤)

﴿٢٤﴾ أي: ومن آياته أن يُنزِلَ عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكُم قبل نزوله مقدّماتِهِ من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطمع فيه. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾: دالةٌ على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إنقائه وعظيم حكمته، وأنه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ أي: لهم عقولٌ تعقِلُ بها ما تسمعه وتراه وتحفظه، وتستدلُّ به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُم دَعْوَةَ مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ (٢٥) **﴿٢٥﴾** وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَانِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا لأمره، فلم يتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض؛ فقدرته العظيمة التي بها

أَمَسَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا؛ يَقْدِرُ بِهَا عَلَى أَنَّهُ إِذَا دَعَا الْخَلْقَ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ؛ إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ. ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

﴿٢٦﴾ ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: الْكُلُّ خَلْقُهُ وَمَمَالِكُهُ وَالْمَتَصَرِّفُ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِ مَنَازِعٍ وَلَا مَعَاوِينَ وَلَا مَعَارِضٍ، وَكُلُّهُمْ قَانِتُونَ لِجَلَالِهِ، خَاضِعُونَ لِكَمَالِهِ.

﴿٢٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ﴾؛ أَي: إِعَادَةُ الْخَلْقِ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾: مِنْ ابْتِدَاءِ خَلْقِهِمْ، وَهَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَذْهَانِ وَالْعُقُولِ؛ فَإِذَا كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِبْتِدَاءِ الَّذِي تَقْرَأُونَ بِهِ؛ كَانَ قَادِرًا عَلَى الْإِعَادَةِ الَّتِي هِيَ أَهْوَنُ أَوْلَى وَأَوْلَى.

وَلَمَّا ذَكَرَ مِنَ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ مَا بِهِ يَعْتَبَرُ الْمَعْتَبَرُونَ، وَيَتَذَكَّرُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَبْصِرُ الْمَهْتَدُونَ؛ ذَكَرَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ وَالْمَطْلَبَ الْكَبِيرَ، فَقَالَ: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: وَهُوَ كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ، وَالْكَمَالُ مِنْ تِلْكَ الصِّفَةِ، وَالْمَحَبَّةُ وَالْإِنَابَةُ التَّامَةُ الْكَامِلَةُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ الْمَخْلِصِينَ وَالذِّكْرَ الْجَلِيلَ وَالْعِبَادَةَ مِنْهُمْ؛ فَالْمَثَلُ الْأَعْلَى هُوَ وَصْفُهُ الْأَعْلَى وَمَا تَرْتَّبَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا كَانَ أَهْلُ الْعِلْمِ يَسْتَعْمِلُونَ فِي حَقِّ الْبَارِي قِيَاسَ الْأَوْلَى، فَيَقُولُونَ: كُلُّ صِفَةٍ كَمَالٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؛ فَخَالِفُهَا أَحَقُّ بِالْإِتِّصَافِ بِهَا عَلَى وَجْهِ لَا يَشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، وَكُلُّ نَقْصٍ فِي الْمَخْلُوقِ ^(١) يَنْزُهُ عَنْهُ؛ فَتَنْزِيهِهُ الْخَالِقَ عَنْهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى وَأَحْرَى. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾؛ أَي: لَهُ الْعِزَّةُ الْكَامِلَةُ وَالْحِكْمَةُ الْوَاسِعَةُ، فَعِزَّتُهُ أَوْجَدَ بِهَا الْمَخْلُوقَاتِ وَأَظْهَرَ الْمَأْمُورَاتِ، وَحِكْمَتُهُ أَتَقَنَّ بِهَا مَا صَنَعَهُ وَأَحْسَنَ فِيهَا مَا شَرَعَهُ.

﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾.

﴿٢٨﴾ هَذَا مِثْلُ ضَرْبِهِ اللَّهُ لِقُبْحِ الشُّرْكِ وَتَهْجِينِهِ، مِثْلًا مِنْ أَنفُسِكُمْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى حَلِّ وَتَرْحَالٍ وَإِعْمَالِ الْجِمَالِ. ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ﴾؛ أَي: هَلْ أَحَدٌ مِنْ عِبِيدِكُمْ وَإِمَائِكُمْ الْأَرْقَاءِ يَشَارِكُكُمْ فِي رِزْقِكُمْ، وَتَرَوْنَ

(١) فِي (ب): «الْمَخْلُوقَاتِ».

أنكم وهم فيه على حدّ سواء. ﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾؛ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين^(١) يُخاف من قسمه واختصاص كل شيء بحاله!؟ ليس الأمر كذلك؛ فإنه ليس أحدٌ مما ملكت أيمانكم شريكاً لكم فيما رَزَقكم الله تعالى، هذا؛ ولستم الذين خَلَقْتُمُوهم ورزقتُمُوهم، وهم أيضاً ممالِكُ مثلكم؛ فكيف تَرْضَوْنَ أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلةِ وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا تَرْضَوْنَ مساواة ممالِككم لكم!؟ هذا من أعجب الأشياء، ومن أدلّ شيءٍ على سَفَه من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتَّخذه باطل مضمحل، ليس مساوياً لله ولا له من العبادة شيء. ﴿كذلك نفضل الآيات﴾: بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾: الحقائق ويعرفون. وأما مَنْ لا يعقل؛ فلو فصلت له الآيات وبينت له البينات؛ لم يكن له عقلٌ يصرُّ به ما تبين، ولا لبٌ يعقل به ما توضح؛ فأهل العقول والألباب هم الذين يُساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

﴿٢٩﴾ وإذا عَلِمَ من هذا المثال أن من اتَّخذ من دون الله شريكاً يعبده ويتوكَّل عليه في أموره؛ فإنه ليس معه من الحق شيء؛ فما الذي أوجب لهم الإقدام على أمر باطل توضح بطلانه وظهر برهانه؟ أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصها^(٢) ما تعلق به هواها أمراً يجرِّم العقل بفساده والفطر برده بغير علم دلهم عليه ولا برهان قادهم إليه، ﴿فمن يهدي من أضلَّ الله﴾؛ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم؛ فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضلَّ الله؛ لأنه ليس أحدٌ معارضاً لله أو منازعاً له في ملكه، ﴿ومالهم من ناصرين﴾: ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتنقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿فَأَقْصِرْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَثُرَ الْكَافِرُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُبِينٌ إِلَيْهِ وَانْقَرَبُوا وَأَقْبَمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿٣٠﴾ يأمرُ تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه، فقال: ﴿فأقم

(١) في (ب): «الذي».

(٢) في (ب): «نقصانها».

وجَهَكَ؟ أي: انصبه ووجهه ﴿لِلدِّينِ﴾: الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة كالصلاة والزكاة والصوم والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة؛ بأن تعبد الله فيها كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه؛ لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾؛ أي: مقبلًا على الله في ذلك معرضًا عما سواه، وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾: ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها؛ فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة. ومن خرج عن هذا الأصل؛ فلعارض عرض لفطرته أفسدها؛ كما قال النبي ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ؛ فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ أَوْ نَصْرَانِيَةٍ أَوْ مَجْسَانِيَةٍ»^(١). ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا أحد يبدل خلق الله فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذَلِكَ﴾: الذي أمرناك به ﴿الدِّينَ الْقَيِّمَ﴾؛ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله وإلى كرامته؛ فإن من أقام وجهه للدين حنيفًا؛ فإنه سالك الصراط المستقيم في جميع شرائعه وطرقه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه؛ لم يسئلوه.

﴿٣١﴾ ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾: وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين؛ فإن الإنابة إنابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى، ويلزم من ذلك عمل^(٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة؛ فلذلك قال: ﴿وَاتَّقُوهُ﴾؛ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات، وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإنابة والتقوى لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾: فهذا إعانتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: فهذا حثها على الإنابة. وخص من

(١) أخرجه البخاري (١٣٥٩)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «حمل».

المنهيات أصلها، والذي لا يُقبل معه عملٌ، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾: لكون الشرك مضاداً للإجابة التي رُوحها الإخلاصُ من كل وجه.

﴿٣٢﴾ ثم ذَكَرَ حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرَّقوا دينهم﴾: مع أنَّ الدين واحدٌ، وهو إخلاصُ العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرَّقوه: منهم من يعبدُ الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبدُ الشمس والقمر، ومنهم من يعبدُ الأولياء والصالحين، ومنهم يهودٌ، ومنهم نصارى، ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾؛ أي: كلُّ فرقةٍ من فرق الشرك تاهت وتعضبت على نصرٍ ما معها من الباطل ومنازعةٍ غيرهم ومخاربتهم. ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم﴾: من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾: به يحكمون لأنفسهم بأنه الحقُّ وأنَّ غيرهم على باطل.

وفي هذا تحذيرٌ للمسلمين من تشبُّههم وتفرُّقهم فرقاً، كلُّ فريقٍ يتعضبُ لما معه من حقٍّ وباطلٍ، فيكونون مشابهيين بذلك للمشركين في التفرُّق، بل الدين واحدٌ، والرسول واحدٌ، والإله واحدٌ، وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتمَّ ربط؛ فما بال ذلك كله يلغى ويُبنى التفرُّق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفيةٍ أو فروع خلافيةٍ يضلُّ بها بعضهم بعضاً ويتميِّز بها بعضهم عن بعض؟! فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده التي كاد بها المسلمين؟! وهل السعي في جمع كلمتهم وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله وأفضل الأعمال المقربة إلى الله!؟

ولما أمر تعالى بالإجابة إليه، وكان المأمور بها هي الإجابة الاختيارية، التي تكون في حال العسر واليسر والسعة والضيق؛ ذكر الإجابة الاضطرارية التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه؛ فإذا زال عنه الضيق؛ تبدَّها وراء ظهره؛ وهذه غير نافعة، فقال:

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ إِذَا آذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِحُوا مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾: مرضٌ أو خوفٌ من هلاكٍ ونحوه، ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبِينِينَ﴾: ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال؛ لعلمهم أنَّه

لا يكشف الضّرُّ إلاَّ الله، ﴿إِذَا أذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾: شفاهم من مرضهم وأمّنتهم من خوفهم، ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾: ينقضون تلك الإنابة التي صدرت منهم، ويشركون به مَنْ لا دَفَعَ عنهم ولا أغنى ولا أفقر ولا أغنى، وكلُّ هذا كفرٌ بما آتاهم الله ومنَّ به عليهم حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة وأزال عنهم المشقة؛ فهلاً قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟!!

﴿٣٥﴾ ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾؛ أي: حجة ظاهرة، ﴿فَهُوَ﴾؛ أي: ذلك السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ﴾: ويقول لهم: اثبتوا على شريككم واستمروا على شككم؛ فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعتكم الرسل إليه باطل؛ فهل ذلك السلطان موجودٌ عندهم حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية والكتب السماوية والرسل الكرام وسادات الأنام قد نهوا أشدَّ النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟! فشرُّ هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس ونزغات الشيطان.

﴿وَإِذَا أذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٣٧﴾.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس في حال الرخاء والشدة أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة من صحة وغنى ونصر ونحو ذلك؛ فرحوا بذلك فرح بَطَرٍ لا فرح شكرٍ وتبجح بنعمة الله. ﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾: من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾: يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض ونحوه، وهذا جهلٌ منهم وعدم معرفة. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾: فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله والرزق سعته وضيقه من تقديره ضائع ليس له محل؛ فلا تنظر أئها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعلْ نَظْرَكَ لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: فهم الذين يعتبرون ببسط الله لِمَن يَشَاءُ وَقَبْضِهِ، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده وجذب القلوب لسؤاله في جميع مطالب الرزق.

﴿فَتَاتِ ذَا الْقُرُونِ حَقَّهُمُ وَالْمُسْكِينِ وَإِنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ حِمْرٌ لِلذَّيْتِ يُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ ذِكْوَةٍ تُرِيدُونَ وَجَهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٨﴾ أي: فأعطِ القريب منك - على حسب قرْبِهِ وحاجتِهِ - حَقَّهُ الذي أوجبه الشارع أو حَضُّ عليه من النفقة الواجبة والصدقة والهدية والبرِّ والسلام والإكرام والعمو عن زلتته والمسامحة عن هفوتِهِ، وكذلك آتِ المسكين الذي أسكنته^(١) الفقرَ والحاجة ما تُزيل به حاجتَهُ وتدفعُ به ضرورته من إطعامه وسقيه وكسوتِهِ. ﴿وابن السبيل﴾: الغريب المنقطع به في غير بلده، الذي في مظنة شدة الحاجة، وأنه لا مال معه ولا كسب قد دَبَّرَ نفسه به في سفره؛ بخلاف الذي في بلده؛ فإنه وإن لم يكن له مال، لكن لا بدَّ في الغالب أن يكونَ في حرفة أو صناعةٍ ونحوها تسدُّ حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصَّةً للمسكين وابن السبيل.

﴿ذلك﴾؛ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل: ﴿خيرٌ للذين يريدون﴾: بذلك العمل ﴿ووجهُ الله﴾؛ أي: خيرٌ غزيرٌ وثوابٌ كثيرٌ؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدّي الذي وافق محلَّه المَقْرُونُ به الإخلاص؛ فإن لم يُرَدَّ به وجهُ الله؛ لم يكن خيراً للمعطي، وإن كان خيراً ونفعاً للمعطي؛ كما قال تعالى: ﴿لا خيرَ في كثيرٍ من نَجْواهم إلاَّ مَنْ أمرَ بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاحٍ بينَ الناس﴾: مفهومها أن هذه المستثنيات خيرٌ؛ لنفعها المتعدّي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله؛ فسوف تؤتيه أجراً عظيماً، وقوله: ﴿وأولئك﴾: الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله، ﴿هم المفلحون﴾: الفائزون بثواب الله الناجون من عقابه.

﴿٣٩﴾ ولما ذكر العمل الذي يُقصدُ به وجهه من النفقات؛ ذكر العمل الذي يُقصدُ به مَقْصِدُ دنيوي، فقال: ﴿وما آتيتُم من ربا ليتربوا في أموال الناس﴾؛ أي: ما أعطيتُم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يتربوا؛ أي: يزيد في أموالكم؛ بأن تُعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها؛ فهذا العمل لا يربو أجره عند الله؛ لكونه معدومُ الشرط الذي هو الإخلاص.

ومثل ذلك العمل الذي يُراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس؛ فهذا كله لا يربو عند الله. ﴿وما آتيتُم من زكاة﴾؛ أي: مال يطهركم من الأخلاق الرذيلة، ويطهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المعطي؛ ﴿تريدون﴾: بذلك ﴿وجهُ الله فأولئك هم المضعفون﴾؛ أي: المضاعف لهم الأجر، الذين تربو

(١) في (ب): «أسكته».

نفقاتهم عند الله، ورُبيها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً، ودلّ قوله: ﴿وما آتيتهم من زكاة﴾: أن الصدقة مع اضطرارٍ من يتعلّق بالمنفق أو مع دينٍ عليه لم يقضيه ويقدم عليه الصدقة؛ أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويردّ تصرفه شرعاً؛ كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الذي يؤتي ماله يتزكى﴾؛ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِثْلَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٤٠﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم وإماتتكم وإحيائكم؛ وأنه ليس أحدٌ من الشركاء التي يدعوها المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء؛ فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس، وتنزهه، وعلا عن شركهم؛ فلا يضره ذلك، وإنما وبأله^(١) عليهم.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٤١﴾ أي: استعلن الفساد في البر والبحر؛ أي: فساد معاشهم ونقصها وحلول الآفات بها وفي أنفسهم من الأمراض والوباء وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها. هذه المذكورة، ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾؛ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا؛ ﴿لعلهم يرجعون﴾: عن أعمالهم التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم؛ فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا؛ فلو أذاقهم جميع ما كسبوا؛ ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٢﴾ والأمر بالسير في الأرض يدخل فيه السير بالأبدان^(٢) والسير في القلوب للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين، ﴿كان أكثرهم مشركين﴾: تجدون عاقبتهم شرّاً

(١) في (ب): «وبالهم».

(٢) في (ب): «في الأبدان».

العواقب، ومآلهم شرٌّ مآلٍ: عذابٌ استأصلهم، وذمٌّ، ولعنٌ من خلق الله يتبعهم، وخزيٌ متواصلٌ؛ فاحذروا أن تفعلوا أفعالهم؛ يُحذى بكم حدوهم؛ فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ أي: أقبل بقلبك وتوجه بوجهك، واسع ببدنك لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾: وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء؛ لا يمكن رده، ولا يُرجأ العاملون ليستأنفوا^(١) العمل، بل فرغ من الأعمال، ولم يبق إلا جزاء العمال. ﴿يومئذ يصدعون﴾؛ أي: يتفرقون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتا متفاوتين؛ ليُرَوِّا أعمالهم.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ﴾: منهم، ﴿فعليه كفرة﴾: ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿ومن عمل صالحا﴾: من الحقوق التي لله والتي للعباد الواجبة والمستحبة ﴿فلأنفسهم﴾: لا لغيرهم؛ ﴿يمهدون﴾؛ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرن آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنزلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود وكرمه غير المحدود ما^(٢) لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً؛ صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وهذا بخلاف الكافرين؛ فإن الله لما أبغضهم ومقتهم؛ عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم؛ فلهذا قال: ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾.

﴿وَمِن آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْآفَاقُ بِأَمْرِهِ وَلِتُنْفِقُوا مِن فَضْلِهِ وَأَلَّا تُكْفِرُوا بَشَيْئًا ﴿٤٦﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ومن^(٣) الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى وأنه الإله المعبود

(٢) في (ب): «وما».

(١) في (ب): «أن يستأنفوا».

(٣) في (ب): «من».

والملك المحمود، أن أرسل ﴿الرياح﴾: أمام المطر ﴿مبشرات﴾: بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله، ﴿وليذيقكم من رحمته﴾: فيُنزَل عليكم مطراً تحيا به البلاد والعباد وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد الجالبة لأرزاقهم، فتشاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة الفاتحة لخزائن الرحمة، ﴿ولتَجْرِي الفلك﴾: في البحر ﴿بأمره﴾: القدري، ﴿ولتبتغوا من فضله﴾: بالتصرف في معاشكم ومصالحكم. ﴿ولعنتكم تشكرون﴾: من سخر لكم الأسباب، ويسر لكم الأمور؛ فهذا المقصود من النعم أن تقابل بشكر الله تعالى؛ ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم، وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي؛ فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته محنتاً، وهو معرض لها للزوال والانتقال منه إلى غيره.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿٤٧﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾: في الأمم السالفة ﴿رسلاً إلى قومهم﴾: حين جحدوا توحيد الله وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسُلهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص والتصديق بالحق وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاؤوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا ولم يزولوا عن غيهم، ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾: ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل، ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾؛ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة، ووعدناهم به؛ فلا بد من وقوعه، فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ إن بقيتم على تكذيبكم؛ حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ إِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ قَبْلِهِ لَمُبْسِئِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْحَى الْمَوْقُوتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتام نعمته أنه ﴿يرسل الرياح فتبشر سحاباً﴾: من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾؛ أي: يمدّه ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾؛ أي: على أي حالة أرادها من ذلك، ﴿ثم يجعله﴾؛ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾؛ أي: سحاباً ثخيناً قد طبّق بعضه فوق بعض. ﴿فترى الودق

يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ؛ أَي: السحاب؛ نَقَطًا صَغِيرًا مَتَفَرِّقَةً، لَا تَنْزِلُ جَمِيعًا فَتُضَيِّدُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ، ﴿فَإِذَا أَصَابَ﴾؛ أَي: بِذَلِكَ الْمَطَرِ مَنْ ﴿يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: يَبْشُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِنَزْوِلِهِ، وَذَلِكَ لِشِدَّةِ حَاجَتِهِمْ وَضُرُورَتِهِمْ إِلَيْهِ؛ فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾؛ أَي: آيِسِينَ قَانِطِينَ لِتَأْخُرَ وَقْتُ مَجِيئِهِ؛ أَي: فَلَمَّا نَزَلَ فِي تِلْكَ الْحَالِ؛ صَارَ لَهُ مَوْجِعٌ عَظِيمٌ عِنْدَهُمْ وَفَرَحٌ وَاسْتَبْشَارٌ.

﴿٥٠﴾ ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فَاهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾: الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴿لَمُخْجِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فَقَدْرَتُهُ تَعَالَى لَا يَتَعَاصَى عَلَيْهَا شَيْءٌ، وَإِنْ تَعَاصَى عَلَى قَدْرِ خَلْقِهِ، وَدَقَّ عَنْ أَفْهَامِهِمْ، وَحَارَتْ فِيهِ عَقُولُهُمْ.

﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿٥٣﴾.

﴿٥١﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها ونشر رحمة الله تعالى: لو أرسلنا على هذا النبات الناشيء عن المطر وعلى زروعهم ريحاً مضرّة متلفة أو منقصة، ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾: قَدْ تَدَاعَى إِلَى التَّلَفِ، ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾: فَيَنْسُونَ النِّعْمَ الْمَاضِيَةَ، وَيَبَادِرُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَهَوْلَاءَ لَا يَنْفَعُ فِيهِمْ وَعْظٌ وَلَا زَجْرٌ.

﴿٥٢﴾ ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضَّمَّةَ الدُّعَاءَ﴾: وَبِالْأُولَى: ﴿إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ﴾: فَإِنَّ الْمَوَانِعَ قَدْ تَوَقَّرَتْ فِيهِمْ عَنِ الْإِنْقِيَادِ وَالسَّمَاعِ النَّافِعِ كَتَوَقَّرَ هَذِهِ الْمَوَانِعَ الْمَذْكُورَةَ عَنِ سَمَاعِ الصَّوْتِ الْحَسِيِّ.

﴿٥٣﴾ ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيِّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ الْإِبْرَارَ بِسَبَبِ عَمَاهُمْ؛ فَلَيْسَ فِيهِمْ ^(١) قَابِلِيَّةٌ لَهُ. ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾: فَهَوْلَاءَ الَّذِينَ يَنْفَعُ فِيهِمْ إِسْمَاعُ الْهَدْيِ، الْمُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا بِقُلُوبِهِمْ، الْمُنْقَادُونَ لِأَوَامِرِنَا، الْمُسْلِمُونَ لَنَا؛ لِأَنَّ مَعَهُمُ الدَّاعِيَ الْقَوِيَّ لِقَبُولِ النَّصَائِحِ وَالْمَوَاعِظِ، وَهُوَ

(١) في (ب): «منهم».

استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

﴿ ٥٤ ﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾

﴿ ٥٤ ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه وعظيم اقتداره وكمال حكمته؛ أنه ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأولى من خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام إلى أن ولد وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف وعدم القوة والقدرة، ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾: بحسب حكمته، ومن حكمته أن يُري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له؛ لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة؛ لطغى وبغى وعتا، وليعلم العباد كمال قدرة الله، التي لا تزال مستمرة؛ يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور، ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿ ٥٥ ﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُقْسِدُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا خَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ يَوْمَ الْعِتِّ فَهَذَا يَوْمَ الْعِتِّ وَلَكِنَّكُمْ كُتِرَ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذرتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾

﴿ ٥٥ ﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة؛ أقسم ﴿المجرمون﴾: بالله أنهم ﴿ما لبثوا﴾: في الدنيا ﴿إلا ساعة﴾، وذلك اعتذار منهم؛ لعله ينفهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا. ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له؛ قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾؛ أي: ما زالوا وهم في الدنيا يؤفكون عن الحقائق ويأتفكون الكذب؛ ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاء^(١) به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا؛ فهذا خلقهم القبيح، والعبد يُعْتَبُ على ما مات عليه.

(١) في (ب): «جاءتهم».

﴿٥٦﴾ ﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾؛ أي: من اللّٰه عليهم بهما، وصاروا صفاء لهم، العلم بالحق والإيمان المستلزم إيثار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له؛ لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع مناسباً لأحوالهم؛ فلهذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب اللّٰه﴾؛ أي: في قضاياه وقدره الذي كتبه اللّٰه عليكم وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾؛ أي: عمرتم عمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال. ﴿فهذا يوم البعث ولكنم كتم لا تعلمون﴾: فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿٥٧﴾ ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾: فإن كذبوا، وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجّة، أو ما تمكنوا من الإيمان؛ ظهر كذبهم بشهادة أهل العلم والإيمان وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار، وأنهم يردّون، ولا يعودون لما نهوا عنه؛ لم يمكنوا؛ فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿ولا هم يستعتبون﴾؛ أي: يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ ولين حجتهم بإيةٍ ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ ﴿٥٨﴾ كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون ﴿٥٩﴾ فأصبر إن وعد الله حقٌ ولا يستخفك الذين لا يؤفون ﴿٦٠﴾

﴿٥٨ - ٥٩﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾: لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا للناس في هذا القرآن من كل مثلٍ: تتضح به الحقائق وتُعرف به الأمور وتنقطع به الحجّة، وهذا عامٌ في الأمثال التي يضرّبها اللّٰه في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون وجلاء حقيقته حتى كأنه وقّع، ومنه في هذا الموضوع ذكر اللّٰه تعالى ما يكون يوم القيامة، وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذرٌ ولا عتاب، ولكن أبا الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن حجتهم بأيةٍ﴾؛ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به، ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾؛ أي: قالوا للحق: إنه باطل! وهذا من كفرهم وجراتهم وطبع اللّٰه على قلوبهم وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾: فلا يدخلها خير، ولا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً والباطل حقاً.

﴿٦٠﴾ ﴿فَاصْبِرْ﴾: على ما أمرت به وعلى دعوتهم إلى الله ولو رأيت منهم إعراضاً؛ فلا يصدنك ذلك. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه، وهذا مما يُعين على الصبر؛ فإنَّ العبد إذا علم أنَّ عمله غير ضائع، بل سيجدُه كاملاً؛ هانَّ عليه ما يلقاه من المكاره، وتيسر^(١) عليه كلُّ عسير، واستقلَّ من عمله كلُّ كثير. ﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يوقنون﴾؛ أي: قد ضعف إيمانهم وقلَّ يقينهم فحُفَّتْ لذلِكَ أحلامهم، وقلَّ صبرهم؛ فإياك أن يستخفَّكَ هؤلاء؛ فإنَّك إن لم تجعلهم^(٢) منك على بالٍ، وتحذَّر منهم، وإلا؛ استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفْسُ تساعدهم على هذا، وتطلبُ التشبُّهَ والموافقة^(٣)، وهذا مما يدلُّ على أنَّ كلَّ مؤمن موقن رزين العقل؛ يسهُلُ عليه الصبر، وكلُّ ضعيف اليقين؛ ضعيف العقل خفيفه؛ فالأول بمنزلة اللبِّ، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.



تفسير سورة لقمان

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ .

﴿٢﴾ يشيرُ تعالى إشارة دالَّة على التعظيم إلى ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾؛ أي: آياته محكمة صدرت من حكيم خبير. ومن^(٤) إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالَّة على أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل والزيادة والنقص والتحريف.

(٢) في (ب): «تجعل».

(٤) في (ب): «من».

(١) في (ب): «يسر».

(٣) في (ب): «والموافقة».

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار^(١) السابقة واللاحقة والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت عليه.

ومن إحكامها أنها ما أثمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نَهَتْ عن شيء إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر حكمته وفائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب والوعظ البليغ الذي تعادل به النفوس الخيرة، وتحكم فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها: أنك تجد آياتها^(٢) المتكررة كالقصص والأحكام ونحوها قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف؛ فكلماً ازداد بها البصير تدبراً وأعمل فيها العقل تفكيراً؛ انبهر عقله وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه أنه تنزيل من حكيم حميد.

﴿٣﴾ ولكن مع أنه حكيم يدعو إلى كل خلق كريم وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون من الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به؛ إلا من وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم، والمحسنون إلى الخلق؛ فإنه ﴿هدى﴾: لهم يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم. ﴿ورحمة﴾: لهم تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة والخير الكثير والثواب الجزيل والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

﴿٤﴾ ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: ﴿الصلاة﴾ المشتملة على الإخلاص، ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال. ﴿والزكاة﴾: التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم. وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرج^(٣) محبته من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

(٢) في (ب): «آياته».

(١) في (ب): «الأحكام».

(٣) في (ب): «فيخرجه».

﴿٥﴾ فَ﴿أَوْلَٰئِكَ﴾: المحسنون الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾؛ أي: عظيم كما يفيدُه التنكيرُ، وذلك الهدى حاصلٌ لهم وواصلٌ إليهم ﴿من ربهم﴾: الذي لم يزل يرببهم بالنعم ويدفع عنهم الثقم، وهذا الهدى الذي أوصله إليهم من تربيتِه الخاصَّة بأوليائه، وهو أفضلُ أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾: الذين أدركوا رضا ربهم وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطِه وعقابه، وذلك لسلوكهم طريق الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولمَّا ذَكَرَ تعالى المهتدين بالقرآن المقبلين عليه؛ ذَكَرَ من أَعْرَضَ عنه ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك بأن تَعَوَّضَ عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه؛ فلذلك قال:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِعِيرٍ بَعِيرٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُلِيَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قِرَاطًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا أَنْهَارٌ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: ﴿ومن الناس من﴾ هو محرومٌ مخذولٌ ﴿يشترى﴾؛ أي: يختار ويرغب رغبة من يبدلُ الثمن في الشيء، ﴿لهو الحديث﴾؛ أي: الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجل مطلوب، فدخل في هذا كلُّ كلامٍ محرَّم وكلُّ لغوٍ وباطل^(١) وهذيان؛ من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الراديين على الحقِّ المجادلين بالباطل ليُدْحِضُوا به الحقَّ، ومن غيبةٍ ونميمةٍ وكذبٍ وشمٍ وسبٍّ، ومن غناءٍ ومزامير شيطان. ومن الماجريات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دُنْيَا؛ فهذا الصنف من الناس ﴿يشترى لهو الحديث﴾ عن هدى الحديث ﴿ليضل﴾ الناس ﴿بغير علم﴾؛ أي: بعد ما ضلَّ في فعله أضلَّ غيره؛ لأنَّ الإضلال ناشئٌ عن الضلال، وإضلاله في هذا الحديث صدُّه عن الحديث النافع والعمل النافع والحقِّ المُبين والصراطِ المستقيم، ولا يتمُّ له هذا حتى يقدَحَ في الهدى والحقِّ، ويتَّخذ آيات الله هُزُوًا، يَسْحَرُ^(٢) بها ويمنَّ جاء بها؛ فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه والقدح في الحقِّ والاستهزاء به وبأهله؛ أضلَّ مَنْ لا علم

(١) في (ب): «لغو باطل».

(٢) في (ب): «ويسخر».

عنده، وخذعه بما يوحيه إليه من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته، ﴿أولئك لهم عذاب مهين﴾^(١): بما ضلّوا، وأضلّوا، واستهزؤوا بآيات الله، وكذبوا الحقّ الواضح.

﴿٧﴾ ولهذا قال: ﴿وإذا تلى عليه آياتنا﴾: ليؤمن بها وينقاد لها، ﴿ولّى مستكبراً﴾؛ أي: أدبر إديار مستكبر عنها رادّها ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه بل أدبر عنها ﴿كأن لم يسمّعها﴾، بل: ﴿كأن في أذنيه وقرا﴾؛ أي: صمماً لا تصل إليها الأصوات؛ فهذا لا حيلة في هدايته. ﴿فبشره﴾: بشاره تؤثّر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والخبرة، ﴿بعذاب اليم﴾: مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادّر قدره، ولا يدرى بعظيم أمره؛ فهذه^(٢) بشاره أهل الشر؛ فلا نعمت البشارة.

﴿٨ - ٩﴾ وأما بشاره أهل الخير؛ فقال: ﴿إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾: جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان والظاهر بالإسلام والعمل الصالح، ﴿لهم جنات النعيم﴾: بشاره لهم بما قدّموه وقرئ لهم بما أسلفوه ﴿خالدين فيها﴾؛ أي: في جنات النعيم نعيم القلب والروح والبدن. ﴿وعد الله حقاً﴾: لا يمكن أن يخلف ولا يغيّر ولا يتبدّل. ﴿وهو العزيز الحكيم﴾: كامل العزّة، كامل الحكمة، من عزّته وحكمته، ووفق من وفق، وخذل بحسب ما اقتضاه علمه فيهم وحكمته.

﴿خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رويساً أن تجمد بكم وبثّ فيها من كلّ دابةً وأنزلنا من السماء ماءً فأنبثنا فيها من كلّ زوج كريم﴾ ﴿١٠﴾ هذا خلق الله فأروى ما دأب خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين ﴿١١﴾.

﴿١٠﴾ يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته وبدائع من بدائع حكمته ونعماً من آثار رحمته، فقال: ﴿خلق السموات﴾: السبع على عظمها وسعتها وكثافتها وارتفاعها الهائل ﴿بغير عمد ترونها﴾؛ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد؛ لرؤيت، وإنما استقرت، واستمسكت بقدره الله تعالى، ﴿وألقى في الأرض رويساً﴾؛ أي: جبلاً عظيمة ركزها في أرجائها وأنحائها لئلا تجمد بكم؛ فلولاً الجبال الراسيات؛ لمادت الأرض ولما استقرت بساكنيها، ﴿وبثّ فيها من كلّ

(١) في النسختين: ﴿اليم﴾. والآية: ﴿مهين﴾.

(٢) في (ب): «وهذه».

دَابَّةً ﴿١٠﴾؛ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب التي هي مسخرة لبني آدم ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض؛ علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فأنبثنا فيها من كل زوج كريم﴾: المنظر، نافع، مبارك، فرتعت فيه الدواب المنبثّة، وسكن إليه كل حيوان.

﴿١١﴾ ﴿هذا﴾؛ أي: خلّق العالم العلويّ والسفليّ من جماد وحيوانٍ وسوق أرزاق الخلق إليهم، ﴿خلّق الله﴾: وحده لا شريك له، كلّ مقرّ بذلك، حتى أنتم يا معشر المشركين، ﴿فأروني ماذا خلّق الذين من دونه﴾؛ أي: الذين جعلتموهم له شركاء تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلّق كخلقه ورزق كرزقه؛ فإن كان لهم شيء من ذلك؛ فأرونيه؛ ليصح ما ادّعيتم فيهم من استحقاق العبادة. ومن المعلوم أنّهم لا يقدرون أن يروه شيئاً من الخلق لها؛ لأنّ جميع المذكورات قد أقرّوا أنّها خلق الله وحده، ولا ثمّ شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحقّ به أن تُعبد، ولكنّ عبادتهم إيّاها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾؛ أي: جلّي واضح؛ حيث عبّدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكلّ الأمور.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيْرٌ حَمِيْدٌ ﴿١٢﴾﴾ وَلَئِذَا قَالَ لِقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعْظُمُ يَبْنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيْمٌ ﴿١٣﴾﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيْرِ ﴿١٤﴾ وَلَئِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيْلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تُرَابٍ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيَّ إِنَّمَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيَّ أَقِرَّ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْسِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُوْرٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسِيْكَ

وَأَغْضَضَ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٢﴾

﴿١٢﴾ يخبرُ تعالى عن امتنائه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم بالحق على وجهه وحكمته؛ فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والأحكام؛ فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة؛ فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح. ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة؛ أمره أن يشكره على ما أعطاه؛ ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعودُ نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله؛ عاد وبال ذلك عليه، والله غني عنه حميدٌ فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره؛ فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله حميداً في جميل صنعه من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً^(١)، والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال:

﴿١٣﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لَابِنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾؛ أو: قال له قولاً به يعظه، والوعظ: الأمر والنهي^(٢) المقرون بالترغيب والترهيب؛ فأمره بالإخلاص ونهاه عن الشرك وبيّن له السبب في ذلك، فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾: ووجه كونه عظيماً أنه لا أفظع وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمالك الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم يُنعم بمثقال ذرة من النعم، بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو؛ فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟! وهل أعظم ظلماً ممن

(١) قال ابن كثير: «ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه، فإنه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: كان لقمان نبياً، وجابر هذا ابن يزيد الجعفي، وهو ضعيف، والله أعلم». «تفسير ابن كثير» (٦/٣٣٧).

(٢) في (ب): «يعظه بالأمر والنهي».

خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أحسن المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظملاً كبيراً؟!

﴿١٤﴾ ولما أمر بالقيام بحقه بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد؛ أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿ووصينا الإنسان﴾؛ أي: عهدنا إليه وجعلناه وصيةً عنده سنسأله عن القيام بها وهل حفظها أم لا؟ فوصيناه ﴿بوالديه﴾، وقلنا له: ﴿اشكز لي﴾: بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي ﴿ولوالديك﴾: بالإحسان إليهما بالقول اللين والكلام اللطيف والفعل الجميل والتواضع لهما وإكرامهما وإجلالهما والقيام بمؤونتتهما واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه بالقول والفعل، فوصيناه بهذه الوصية وأخبرناه أن ﴿إليّ المصير﴾؛ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك وكلّفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمتَ بها فيثيبك الثواب الجزيل، أم ضيغتها فيعاقبك العقاب الوبيل؟! ثم ذكر السبب الموجب لبرّ الوالدين في الأم، فقال: ﴿حملته أمه وهنا على وهن﴾؛ أي: مشقة على مشقة؛ فلا تزال تلاقي المشاق من حين يكون نطفةً من الوحم والمرض والضعف والثقل وتغير الحال، ثم وجع الولادة ذلك الوجع الشديد، ثم ﴿فضالته في عامين﴾: وهو ملازمٌ لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها. أفما يحسنُ بمن تحمّل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب أن يؤكّد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿١٥﴾ ﴿وإن جاهداك﴾؛ أي: اجتهد والداك ﴿على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾: ولا تظنّ أنّ هذا داخل في الإحسان إليهما؛ لأنّ حق الله مقدّم على حق كل أحد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولم يقل: وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم؛ ففقههما، بل قال: ﴿فلا تطعهما﴾؛ أي: في الشرك^(١)، وأما برّهما؛ فاستمرّ عليه، ولهذا قال: ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾؛ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتّباعهما وهما بحالة الكفر والمعاصي؛ فلا تتبّعهما، ﴿وأتبع سبيل من أناب إليّ﴾: وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربّهم، المنيبون إليه، واتباع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذابٌ دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي

(١) في (ب): «بالشرك».

البدن فيما يرضي الله ويقرب منه، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾: الطائع والعاصي والمنيب وغيره، ﴿فَأَنبِئِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

﴿١٦﴾ ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾: التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾؛ أي: في وسطها، ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾: في أي جهة من جهاتهما؛ ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾: لسعة علمه وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ أي: لطف في علمه رخبيره، حتى أطلع على البواطن والأسرار وخفايا القفار والبحار. والمقصود من هذا الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح قل أو كثر.

﴿١٧﴾ ﴿يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾: حثه عليها وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾: وذلك يستلزم العلم بالمعروف؛ ليأمر به، والعلم بالمنكر؛ لينهى عنه، والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾: ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك بأمره ونهيه. ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس؛ أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ﴾: الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مِنْ عِزِّ الْأُمُورِ﴾؛ أي: من الأمور التي يعزّم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿١٨﴾ ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾؛ أي: لا تؤلمه وتعبس بوجهك للناس تكبراً عليهم وتعاضماً، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾؛ أي: بطراً فخراً بالنعم ناسياً المنعم معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَخْتَالٍ﴾: في نفسه وهيبته وتعاضمه ﴿فَخُورٍ﴾: بقوله.

﴿١٩﴾ ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾؛ أي: امش متواضعاً مستكيناً لا مشي البطر والتكبر ولا مشي التماوت، ﴿وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾: أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾؛ أي: أفظعها وأبشعها ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾: فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة؛ لما اختص بذلك الحمار الذي قد علّمت حسنة وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه؛ تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم

يُذَكِّرُ مِنْهَا^(١)، وكلُّ وصية يُقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً وإلى تركها إن كانت نهياً، وهذا يدلُّ على ما ذكرنا في تفسير الحكمة: أنَّها العلم بالأحكام وحكمتها ومناسباتها: فأمره بأصل الدين وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له الموجب لتركه. وأمره ببرِّ الوالدين، وبيَّن له السبب الموجب لبرِّهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأنَّ محلَّ برِّهما وامتثال أوامرها ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك؛ فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله وخوفه القدام عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشرِّ إلَّا أتى بها، ونهاه عن التكبر. وأمره بالتواضع ونهاه عن البطر والأشر والمرح. وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضدِّ ذلك. وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وبالصبر اللذين يسهل بهما كلُّ أمر؛ كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا أن يكون مخصوصاً بالحكمة مشهوراً بها، ولهذا من منَّة الله [عليه وعلى سائر] عباده أن قصَّ عليهم من حكمته ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبِئُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلَوْ كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠ - ٢١﴾ يمتنُّ تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿ألم تروا﴾؛ أي: تشاهدوا وثبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أنَّ الله سَخَّرَ لكم ما في السموات﴾: من الشمس والقمر والنجوم كلها مسخرات لنفع العباد، ﴿وما في الأرض﴾: من الحيوانات والأشجار والزروع والأنهار والمعادن ونحوها؛ كما قال تعالى: ﴿هو الذي خَلَقَ لكم ما في الأرض جميعاً﴾، ﴿وأسبغ عليكم﴾؛ أي: عممكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة؛ التي نعلم بها والتي تخفى علينا؛ نعم الدنيا ونعم الدين، حصول المنافع ودفع المضار؛ فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم بمحبَّة المنعم والخضوع له وصرفها في الاستعانة على طاعته وأن لا يُستعان بشيء منها على معصيته. ﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿مِنَ الناس مَنْ﴾: لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحقَّ الذي أنزل

(١) في (ب): «فيها».

به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يَجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾؛ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة؛ فليس جداله عن علم؛ فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام. ﴿ولا هدى﴾: يقتدي به بالمهتدين ﴿ولا كتاب منير﴾؛ أي: نير مبين للحق؛ فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين، وإنما جداله في الله مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾: على أيدي رسله؛ فإنه الحق، وبيئت لهم أدلته الظاهرة، ﴿قالوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا﴾: فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقول أحد كائناً من كان. قال تعالى في الرد عليهم وعلى آباءهم: ﴿أولئكَ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير﴾؛ أي: فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة؛ فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيتهم على طريقتهم؟! أم ذلك يرهبهم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال من تبعهم؟! وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر لهم، وبالْحَقِيقَةِ أتباعه من أعدائه الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرت عينه^(١) باستحقاقهم عذاب السعير بقبول دعوته.

﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزِنُكَ كُفْرُهُٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُنَبِّئُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

﴿٢٢﴾ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾؛ أي: يخضع له وينقاد له بفعل الشرائع مخلصاً له دينه، ﴿وهو محسن﴾: في ذلك الإسلام؛ بأن كان عمله مشروعاً، قد أتبع فيه الرسول ﷺ، أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات وهو محسن فيها؛ بأن يعبد الله كأنه يراه؛ فإن لم يكن يراه؛ فإنه يراه. أو: ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم، والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة اختلاف مورد اللفظتين، وإلا؛ فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين على وجه تقبل به وتكمل؛ فمن فعل ذلك؛

(١) في (ب): «عينهم».

﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾؛ أي: بالعروة التي من تمسك بها؛ توثق ونجا وسلم من الهلاك وفاز بكل خير، ومن لم يسلم وجهه لله، أو: لم يحسن؛ لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك [بالعروة الوثقى]؛ لم يكن ثم إلا الهلاك والبوار. ﴿والى الله عاقبة الأمور﴾؛ أي: رجوعها وموتها ومنتهاها، فيحكم في عباده ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم، ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾: لأنك أديت ما عليك من الدعوة والبلاغ؛ فإذا لم يهتد^(١)؛ فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه؛ لأنه لو كان فيه خير؛ لهداه الله، ولا تحزن أيضاً على كونهم تجرؤوا عليك بالعداوة، وناذوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تتحرق عليهم بسبب أنهم ما بودروا بالعذاب، إن ﴿إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا﴾: من كفرهم وعداوتهم وسعيهم في إطفاء نور الله وأذى رسله. إنه ﴿عليم بذات الصدور﴾: التي ما نطق بها الناطقون؛ فكيف بما ظهر وكان شهادة؟!

﴿٢٤﴾ ﴿نمتعهم قليلاً﴾: في الدنيا؛ ليزداد إثمهم ويتوفر عذابهم. ﴿ثم نضطرهم﴾؛ أي: نلجئهم ﴿إلى عذاب غليظ﴾؛ أي: انتهى في عظمه وكبره وفضاعته وألمه وشدته.

﴿ولين سألهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (٢٥) ﴿لله ما في السموات والأرض إن الله هو الغني الحميد﴾ (٢٦) ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾ (٢٧) ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كفنيين وهدى إن الله سميع بصير﴾ (٢٨) .

﴿٢٥﴾ أي: ﴿ولئن﴾ سألت هؤلاء المشركين المكذبين بالحق: ﴿من خلق السموات والأرض﴾: لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئاً من ذلك، ولبادروا بقولهم: ﴿الله﴾: الذي خلقهما وحده، ﴿قل﴾ لهم ملزماً لهم ومحتجاً عليهم بما أقرؤا به على ما أنكروا: ﴿الحمد لله﴾: الذي بين النور وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم؛ فلو كانوا يعلمون؛ لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير هو الذي يُفرد

(١) في (ب): «يهتدوا».

بالعبادة والتوحيد، ولكن ﴿أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: فلذلك أشركوا به غيره، ورَضُوا بتناقض ما ذهبوا إليه على وجه الحيرة والشك لا على وجه البصيرة.

﴿٢٦﴾ ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجاً من سعة أوصافه؛ ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له، فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض، وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي؛ أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدرية وأحكامه الأمرية وأحكامه الجزائية؛ فكلهم عبيد ممالك مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾، وأن أعمال النيين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً، وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخراهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته؛ فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه؛ فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته؛ فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه؛ لكونها صفات عظيمة وكمال، وجميع ما فعّله وخالقه يُحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يُحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد في الدنيا والآخرة يُحمد عليه.

﴿٢٧﴾ ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمة قوله بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبه له العقول وتحير فيه الأفتدة وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾: يكتب بها، ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾: مداداً يستمد بها؛ لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله؛ وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكّن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى على بعضها تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم، وأعلمهم بربه: ﴿لَا تُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ﴾^(١)، وإلا؛ فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

(١) كما في «صحيح مسلم» (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وهذا التمثيلُ من باب تقريب المعنى الذي لا يُطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلّا؛ فالأشجار وإن تضاعفت على ما دُكِرَ أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدّت بأضعاف مضاعفة؛ فإنّه يُتصوّر نفاذها وانقضاؤها؛ لكونها مخلوقةً، وأمّا كلام الله تعالى؛ فلا يُتصوّر نفاذه، بل دلنا الدليلُ الشرعيُّ والعقليُّ على أنّه لا نفاذ له ولا منتهى؛ فكل شيء ينتهي إلّا الباري وصفاته، ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾، وإذا تصوّر العقلُ حقيقة أوليّته تعالى وأخريّته، وأن^(١) كلّ ما فرضه الذهنُ من الأزمان السابقة مهما تسلسل الفرضُ والتقدير؛ فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنّه مهما فرض الذهنُ والعقلُ من الأزمان المتأخرة وتسلسل الفرضُ والتقديرُ وساعد على ذلك مَنْ ساعد بقلبه ولسانه؛ فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية، والله في جميع الأوقات يحكّم ويتكلّم ويقول ويفعل كيف أراد، وإذا أراد، لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله؛ فإذا تصوّر العقلُ ذلك؛ عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه ليُذرك العبادُ شيئاً منه، وإلّا؛ فالأمرُ أعظم وأجلُّ.

ثم ذكر جلاله عزّته وكمال حكمته، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: له العزةُ جميعاً الذي ما في العالم العلويّ والسفليّ من القوة إلّا منه، هو الذي أعطاهم للخلق؛ فلا حول ولا قوة إلّا به، وبعزّته قهر الخلق كلّهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلّق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمرُ والنهي وُجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة؛ فهو الحكيم في خلقه وأمره.

﴿٢٨﴾ ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنّه لا يمكن أن يتصوّرها العقلُ، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنُفٍ وَاحِدَةً﴾: وهذا شيء يحير العقول: أن خلّق جميع الخلق على كثيرتهم وبعثهم بعد موتهم بعد تفرقتهم في لمحة واحدة كخلقهم نفساً واحدة؛ فلا وجه لاستبعاد البعث والشُّور والجزاء على الأعمال؛ إلّا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته. ثم ذكّر عموم سمعه لجميع المسموعات وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ

(١) في (ب): «وأنه».

يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ
مِن دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾

﴿٢٩﴾ وهذا فيه أيضاً انفرادُهُ بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار وإيلاج النهار في الليل؛ أي: إدخال أحدهما على الآخر؛ فإذا دخل أحدهما؛ ذهب الآخر، وتسخيره للشمس والقمر يجريان بتدبير ونظام لم يختل منذ خلقهما؛ ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم ما به يعتبرون وينتفعون، و﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمى﴾: إذا جاء ذلك الأجل؛ انقطع جريانهما وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة حين تكوّر الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة. ﴿وأن الله بما تعملون﴾: من خير وشر. ﴿خبير﴾: لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال بالثواب للمطيعين والعقاب للعاصين.

﴿٣٠﴾ ﴿ذلك﴾^(١): الذي بين لكم من عظمته وصفاته ما بين ﴿بأن الله هو الحق﴾: في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعدته حق، وعبادته هي الحق. ﴿وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾: في ذاته وصفاته؛ فلولا إيجاد الله له؛ لما وجد، ولولا إمداده؛ لما بقي؛ فإذا كان باطلاً؛ كانت عبادته أبطل وأبطل. ﴿وأن الله هو العلي﴾: بذاته فوق جميع مخلوقاته الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات [أحد من الخلق]، وعلا على الخلق؛ فقهرهم ﴿الكبير﴾: الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا جَحَّثَهُم إِلَى الْبَرِّ فَأَنصَرُوا مُّقْتَصِدًا وَمَا يَحْتَدُوا بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَشَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

﴿٣١﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده أن سخر البحر تجري فيه الفلك بأمره القدري ولطفه وإحسانه؛ ﴿ليريكم من آياته﴾: ففيها الانتفاع والاعتبار. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فهم المتفعلون بالآيات ﴿صبار﴾

(١) في (ب): «وذلك».

على الضراء. ﴿شكور﴾ على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

﴿٣٢﴾ وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم أنهم يخلصون الدعاء لله والعبادة، ﴿فلما نجّاهم إلى البر﴾: انقسموا فريقين: فرقة مقتصدة؛ أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفرقة كافرة لنعمة الله جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وما يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾؛ أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته ل نكونن من الشاكرين. فغدر، ولم يف بذلك. ﴿كفور﴾: لنعم الله؛ فهل يليق بمنّ نجاهم الله من هذه الشدة إلا القيام التام بشكر نعم الله؟!

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ أَنْفَارُ رَبِّكُمْ وَأَخْشَوُا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (٣٢).

﴿٣٣﴾ يأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي امتثال أوامره وترك زواجه، ويستلقتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهّمه إلا نفسه. ﴿لا يجزي والد عن ولده ولا مولود﴾ عن والده شيئاً: لا يزيد في حسنة ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه. فلفت النظر لهذا اليوم المهيل مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد؛ يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدّهم عليها الثواب، ويحذّرهم من العقاب، ويزعجهم إليه بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين. ﴿إنّ وعد الله حق﴾: فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق؛ فلهذا قال: ﴿فلا تغرّنكم الحياة الدنيا﴾: بزيتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن. ﴿ولا يغرّنكم بالله الغرور﴾: الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان، ولا يغفل عنه في جميع الأوقات؛ فإنّ لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم وهل وفوا حقه أم قصّروا فيه؟ وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه ورأس مال تجارته التي يسعى إليه، ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه الدنيا الفتنة والشيطان الموسوس المسوؤ، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور، ﴿يعدّهم ويؤمنهم وما يعدّهم الشيطان إلا غروراً﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا

تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

﴿٣٤﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة والظواهر والبواطن، وقد يُطْلِعُ الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه الأمور الخمسة من الأمور التي طَوَى علمها عن جميع الخلق؛ فلا يعلمها نبي مرسل ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾؛ أي: يعلم متى مُرْسَاهَا؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا. قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً...﴾ الآية، ﴿وَيُنزَلُ الْغَيْثُ﴾؛ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾: فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو؛ هل هو ذَكَرٌ أم أنثى؟

ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربّه: هل هو ذَكَرٌ أم أنثى؟ فيقضي الله ما يشاء^(١). ﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: من كَسَبَ دينها ودنياها، ﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾: بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه. ولما خَصَّصَ [الله] هذه الأشياء؛ عمم علمه بجميع الأشياء، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾: محيط بالظواهر والبواطن والخفايا والخبايا والسرائر، ومن حكمته التامة أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه والحمد لله.



تفسير سورة السجدة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرِ﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلَائِكِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْ بِمَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِمَّنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

﴿٢﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم تنزيل نزل من رب العالمين، الذي

(١) كما في «صحيح البخاري» (٦٥٩٥)، و«مسلم» (٢٦٤٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

رَبَّاهُمْ بِنِعْمَتِهِ، وَمَنْ أَعْظَمَ مَا رَبَّاهُمْ بِهِ هَذَا الْكِتَابَ، الَّذِي فِيهِ كُلُّ مَا يُضْلِحُ أحوَالَهُمْ وَيَتَمَّمُ أخْلَاقَهُمْ، وَأَنَّهُ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَا شَكَّ وَلَا امْتِرَاءً.

﴿٣﴾ وَمَعَ ذَلِكَ؛ قَالَ الْمَكْذُوبُونَ لِلرَّسُولِ الظَّالِمُونَ فِي ذَلِكَ: افْتَرَاهُ مُحَمَّدٌ وَاخْتَلَقَهُ مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ! وَهَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجِرَاءَةِ عَلَى إِنكَارِ كَلَامِ اللَّهِ، وَرَمَى مُحَمَّدٍ بِأَعْظَمِ الْكُذِبِ، وَقُدْرَةَ الْخَلْقِ عَلَى كَلَامِ مِثْلِ كَلَامِ الْخَالِقِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ، مِنْ الْأُمُورِ الْعِظَامِ، قَالَ اللَّهُ رَادًّا عَلَى مَنْ قَالَ: افْتَرَاهُ: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾: الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿مَنْ رَبُّكَ﴾: أَنْزَلَهُ رَحْمَةً لِلْعِبَادِ، ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَنَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾؛ أَي: هُمْ فِي حَالِ ضَرُورَةٍ وَفَاقَةَ لِإِرْسَالِ الرَّسُولِ وَإِنْزَالِ الْكِتَابِ لِعَدَمِ النَّذِيرِ، بَلْ هُمْ فِي جَهْلِهِمْ يَتَعَمَّهُونَ، وَفِي ظُلْمَةٍ ضَلَالِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ، فَانزَلْنَا الْكِتَابَ عَلَيْكَ، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: مِنْ ضَلَالِهِمْ، فَيَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَيُؤْتِرُونَهُ. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ كُلُّهَا مُنَاقِضَةٌ لِتَكْذِيبِهِمْ لَهُ، وَإِنَّهَا تَقْتَضِي مِنْهُمْ الْإِيمَانَ وَالتَّصَدِيقَ التَّامَّ بِهِ، وَهُوَ كَوْنُهُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَأَنَّهُ حَقٌّ، وَالْحَقُّ مَقْبُولٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنَّهُ لَا رَبَّ فِيهِ بِوَجْهِهِ مِنَ الْوَجْهِهِ؛ فَلَيْسَ فِيهِ مَا يُوجِبُ الرِّيبَةَ؛ لَا بِخَيْرٍ غَيْرِ مُطَابِقٍ لِلْوَاقِعِ^(١)، وَلَا بِخَفَاءٍ وَاشْتِبَاهٍ مَعَانِيهِ، وَأَنَّهُمْ فِي ضَرُورَةٍ وَحَاجَةٍ إِلَى الرِّسَالَةِ، وَأَنَّ فِيهِ الْهَدَايَةَ لِكُلِّ خَيْرٍ وَإِحْسَانٍ.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (١) يُذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٩).

﴿٤﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كِمَالِ قُدْرَتِهِ بِخَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ، أُولَاهَا يَوْمَ الْأَحَدِ، وَآخِرُهَا الْجُمُعَةُ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى خَلْقِهَا بِلِحْظَةٍ، وَلِكُنْهَ تَعَالَى رَفِيقٌ حَكِيمٌ، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾: الَّذِي هُوَ سَقْفُ الْمَخْلُوقَاتِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾: يَتَوْلَاكُمْ فِي أُمُورِكُمْ فَيَنْفَعُكُمْ ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾:

(١) فِي (ب): «لَا بِخَيْرٍ لَا يَطَابِقُ الْوَاقِعَ».

يشفعُ لكم إن توجّه عليكم العقاب. ﴿أفلا تتذكّرون﴾: فتعلمون أنّ خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعةُ كلها، هو المستحقُّ لجميع أنواع العبادة!

﴿٥﴾ ﴿يَدْبِرُ الْأَمْرَ﴾: القدريّ والأمر الشرعيّ، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلةً تلك التدابير من عند الملك القدير، ﴿من السماء إلى الأرض﴾: فيُسعِدُ بها ويشقي، ويغني ويفقّر، ويعزُّ ويذلُّ ويكرم ويهين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وينزل الأرزاق، ﴿ثم يعرّجُ إليه﴾؛ أي: الأمر ينزل من عنده، ويعرّجُ إليه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون﴾: وهو يعرّجُ إليه، ويصلُّه في لحظة.

﴿٦﴾ ﴿ذَلِكَ﴾: الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾: فسعة علمه وكمال عزّته وعموم رحمته أوجدّها، وأودّع فيها من المنافع ما أودّع، ولم يعسُر عليه تدبيرها.

﴿٧﴾ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾؛ أي: كلّ مخلوق خلقه الله؛ فإنّ الله أحسن خلقه، وخلقَه خلقاً يليقُ به ويوافقُه؛ فهذا عامٌّ، ثم خصّ آدمي لشرفه وفضله، فقال: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾: وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿٨﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾؛ أي: ذريّة آدم ناشئة ﴿من ماء مهين﴾: وهو النطفة المستقدرة الضعيفة.

﴿٩﴾ ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كلّ عضو منه بالمحلّ الذي لا يليقُ به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾: بأن أرسل إليه الملك؛ فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد أن كان جماداً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾؛ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئاً فشيئاً حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾: الذي خلقكم، وصوّركم.

﴿وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿١٠﴾ ﴿قُلْ يَتُوبُ إِلَيْكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي يُكَلِّمُكُمْ ثُمَّ إِلَيْكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١﴾

﴿١٠﴾ أي: قال المكذّبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾؛ أي: بلينا وتمزقنا وتفرقنا في المواضع التي لا تعلم، ﴿إننا لفي خلق

جديد؛ أي: لمبعوثون بعثاً جديداً؛ بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء! وذلك بقياسهم^(١) قدرة الخالق على قَدْرِهِمْ^(٢)، وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلمٌ وعنادٌ وكفرٌ بلقاء ربهم وجحدٌ، ولهذا قال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾: فكلامهم عَلِمَ^(٣) مصدره وغايته، وإلا؛ فلو كان قصدهم بيان الحق لبيّن لهم من الأدلة القاطعة على ذلك ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر، ويكفيهم أنهم عندهم^(٤) عَلِمَ أنهم قد ابتدئوا من العدم؛ فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة ينزل الله عليها المطر فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿١١﴾ ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾؛ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾: فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث؛ فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرْجُوثِ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا يَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَكُمُ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ يَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة؛ ذكر حالهم في مقامهم بين يديه، فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾: الذين أصرّوا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾: خاشعين خاضعين، أذلاء مقرّين [بجرمهم]^(٥)، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾؛ أي: بان لنا الأمر ورأيناه عياناً، فصار عين يقين، ﴿فارجعنا نعمل صالحاً إننا موقنون﴾؛ أي: صار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به؛ أي: لرأيت أمراً فظيماً وحالاً مزعجة وأقواماً خاسرين وسؤالاً غير مجاب؛ لأنه قد مضى وقت الإمهال.

﴿١٣﴾ وكلُّ هذا بقضاء الله وقدره؛ حيث خلّى بينهم وبين الكفر والمعاصي؛

(١) في (ب): «لقياسهم».

(٢) بقدرهم.

(٣) في (ب): «ظلم».

(٤) في (ب): «معهم».

(٥) كذا في (ب). وفي (أ): «بجرمكم».

فلهذا قال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾؛ أي: لهدينا الناس كلهم وجمعتناهم على الهدى، فمشتتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾؛ أي: وجب وثبت ثبوتاً لا تغير فيه، ﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾: فهذا الوعد لا بد منه ولا محيد عنه؛ فلا بد من تقرير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾؛ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا؛ ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع، ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه. ﴿إننا نسيناكم﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاءً من جنس عملكم؛ فكما نسيتم نسيتم، ﴿وذوقوا عذاب الخلد﴾؛ أي: العذاب غير المنقطع؛ فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية؛ كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه -؛ فليس فيه روح راحة ولا انقطاع لعذابهم فيها؛ ﴿بما كنتم تعملون﴾: من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿١٦﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً لِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

﴿١٥﴾ لما ذكر الكافرين بآياته وما أعد لهم من العذاب؛ ذكر المؤمنين بها ووصفهم وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾؛ أي: إيماناً حقيقياً من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم، فتليت عليهم آيات القرآن، وأنتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودعوا إلى التذكير؛ سمعوها وقبلوها وانقادوا و﴿خرُّوا سُجَّدًا﴾؛ أي: خاضعين لها خضوع ذكراً لله وفرح بمعرفته، ﴿وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾: لا بقلوبهم ولا بأيديهم فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقَّوها بالقبول والتسليم وقابلوها بالانسراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿١٦﴾ ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾؛ أي: ترتفع جنوبهم وتنزعج عن

مضاجعها اللذيذة إلى ما هو ألدّ عندهم منه وأحبّ إليهم، وهو الصلاة في الليل ومناجاة الله تعالى، ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾؛ أي: في جلب مصالحهم الدنيوية والدينيوية ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾؛ أي: جامعين بين الوصفين؛ خوفاً أن تُردَّ أعمالهم، وطمعاً في قبولها؛ خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾: من الرزق قليلاً أو كثيراً، ﴿يُنْفِقُونَ﴾: ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه؛ ليدلّ على العموم؛ فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة؛ كالزكوات والكفارات ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خيرٌ مطلقاً؛ سواء وافق فقيراً أو غنياً^(١)، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

﴿١٧﴾ وأما جزاؤهم؛ فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾: يدخل فيه جميع نفوس الخلق؛ لكونه نكرة في سياق النفي؛ أي: فلا يعلم أحدٌ ﴿مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: من الخير الكثير والنعيم الغزير والفرح والسرور واللذة والحبور؛ كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطرَ على قلب بشر»^(٢)؛ فكما صلّوا في الليل ودعوا وأخفوا العمل؛ جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ تَزُولُ فِيهَا أَنْهَارٌ يَجْرُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿١٨﴾ ينبّه تعالى العقول على ما تقرّرَ فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا﴾: قد عمّر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته من ترك مساحطِ الله التي يضرُّ وجودها بالإيمان، ﴿كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾: قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازعٌ ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل

(١) في (ب): «غنياً أو فقيراً».

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤) عن أبي هريرة.

والظلم في^(١) كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة ربه، أفيستوي هذان الشخصان؟! ﴿لا يستون﴾: عقلاً وشرعاً؛ كما لا يستوي الليل والنهار والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿١٩﴾ ﴿أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾: من فروض ونوافل، ﴿فلهم جناتٌ﴾ ﴿الماوى﴾؛ أي: الجنات التي هي ماوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه والنظر إلى وجهه وسماع خطابه، ﴿نزلاً﴾: لهم؛ أي: ضيافة وقرى؛ ﴿كما كانوا يعملون﴾: فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿٢٠﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾؛ أي: مقرهم ومحل خلودهم النار، التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يفتر عنهم العقاب ساعة، ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾: فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ؛ زدوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب، ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾.

فهذا عذاب النار الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك ومقدمة له، وهو عذاب البرزخ؛ فقد دكر بقوله:

﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَسْفُوتَ ﴿٢١﴾﴾

﴿٢١﴾ أي: ولنذيقنهم الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا؛ إما بعذاب بالقتل ونحوه كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت؛ كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تُجزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾، ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائلها ظاهرة؛ فإنه قال:

(١) في (ب): «من».

﴿وَلَنذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾؛ أي: بعض وجزء منه، فدلَّ على أن ثمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار، ولما كانت الإذابة من العذاب الأدنى في الدنيا قد لا يتَّصلُ بها الموت، فأخبر تعالى أنَّه يذيقهم ذلك؛ لعلهم يرجعون إليه، ويتوبون من ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (٢٢).

﴿٢٢﴾ أي: لا أحد أظلم من من ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، التي أوصلها إليه ربُّه، الذي يريد تربيته وتكميلَ نعمته عليه على يدِ رسوله، تأمره وتذكُّره مصالحه الدينيَّة والدينيَّة، وتنهاء عن مضاره الدينيَّة والدينيَّة، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضدِّ ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتَّبِعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره؛ فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقُّون شديد النعمة، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢٣) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (٢٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (٢٥).

﴿٢٣﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذُكِّرَ بها عباده، وهو القرآن الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله ﴿موسى الكتاب﴾: الذي هو التوراة المصدَّقة للقرآن، التي قد صدَّقها القرآن، فتطابق حَقُّهما، وثبت برهانهما. ﴿فلا تكن في مريَّة من لقائه﴾: لأنَّه قد تواردت أدلَّة الحقِّ وبيئاته، فلم يبق للشكِّ والمريَّة محلٌّ، ﴿وجعلناه﴾؛ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾: يهتدون به في أصول دينهم، وفروعهم، وشرائعه موافقةً لذلك الزمان في بني إسرائيل، وأما هذا القرآن الكريم؛ فجعله الله هدايةً للناس كلِّهم؛ لأنَّه هدايةٌ للخلق في أمر دينهم ودُنْيَاهُمْ إلى يوم القيامة، وذلك لِكَمَالِهِ وَعُلُوِّهِ، ﴿وإنَّه في أم الكتاب لَدُنَّا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿وجعلنا منهم﴾؛ أي: من بني إسرائيل، ﴿أُمَّةً يهتدون بِأَمْرِنَا﴾؛ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية مهتدين في أنفسهم يهتدون غيرهم بذلك الهدى؛ فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أُمَّة يهتدون

بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم، والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية، ﴿لما صبروا﴾: على التعلم والتعليم والدعوة إلى الله والأذى في سبيله، وكفوا نفوسهم عن جماحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات. ﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾؛ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين؛ لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين، فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك؛ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

﴿٢٥﴾ وثم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾: وهذا القرآن يقصُّ على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه؛ فكلُّ خلاف وقع بينهم، ووُجِدَ في القرآن تصديقٌ لأحد القولين؛ فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكَانِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا إِلَى الْأَرْضِ الْجَبَلَ فَنُخْرِجُ مِنْهُ رِزْقًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿٢٦﴾ يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول^(١) ويهديهم إلى الصواب كم أهلكتنا قبلهم من القرون الذين سلكوا مسلكهم، ﴿يمشون في مساكنهم﴾: فيشاهدونها عياناً؛ كقوم هود وصالح وقوم لوط. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ﴾: يستدلُّ بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم؛ ففعل بهم كما فعل بأشباعه من قبل، وعلى أن الله تعالى مجازي العباد وباعثهم للحشر والتناد. ﴿أفلا يسمعون﴾: آيات الله، فيعونها، فينتفعون بها؛ فلو كان لهم سمعٌ صحيحٌ وعقلٌ رجيحٌ؛ لم يقيموا على حالةٍ يجزم بها^(٢) بالهلاك.

(١) في (ب): «لرسل».

(٢) في (ب): «لم يجزم».

﴿٢٧﴾ ﴿أولم يَرَوْا﴾: بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا، ﴿أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز﴾: التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغها فيها من السحاب أو من الأنهار؛ ﴿فنخرج به زرعاً﴾؛ أي: نباتاً مختلف الأنواع، ﴿تأكل منه أنعامهم﴾: وهو نبات البهائم ﴿وأنفسهم﴾: وهو طعام الآدميين. ﴿أفلا يبصرون﴾: تلك المنة التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهدتدون بذلك البصر وتلك البصيرة إلى الصراط المستقيم؟ ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة ومجرد العادة، فلم يوفقوا للخير.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَاَنْظَرَ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿٣٠﴾.

﴿٢٨﴾ أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب جهلاً منهم ومعاندة، ﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾: الذي يفتح بيننا وبينكم بتعذيبنا على زعمكم ﴿إن كنتم﴾ [أيها الرسل] ﴿صادقين﴾: في دعواكم.

﴿٢٩﴾ ﴿قل يوم الفتح﴾: الذي يحصل به عقابكم لا تستفيدون به شيئاً؛ فلو كان إذا حصل؛ حصل إمهالكم لتستدركوا ما فاتكم حين صار الأمر عندكم يقيناً؛ لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح؛ انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة والابتلاء محل، فلا ﴿ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾: لأنه صار إيماناً ضرورة، ﴿ولا هم ينظرون﴾؛ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿٣٠﴾ ﴿فأعرض عنهم﴾: لما وصل خطابهم لك وظلمهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. ﴿وانظر﴾: الأمر الذي يحل بهم؛ فإنه لا بد منه، ولكن له أجل إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر، ﴿إنهم منتظرون﴾: بك زيب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للتقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله ومنه. فله تعالى كمال الحمد والثناء والمجد.



تفسير سورة الأحزاب

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

﴿١ - ٢﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة واختصه بوحيه وفضله على سائر الخلق! اشكُرْ نعمة ربك عليك باستعمال تقواه التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك؛ فامتثل أوامره ونواهيته، وبلغ رسالاته، وأد إلى عبادته وخيئه، وابدل النصيحة للخلق، ولا يصدتك عن هذا المقصود صاد ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ولرسوله^(١)، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر وأظهر ضده؛ فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة؛ فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم؛ يضلوك عن الصواب. ﴿و﴾ لكن ﴿اتبع ما يوحى إليك من ربك﴾: فإنه هو الهدى والرحمة، وارجُ بذلك ثواب ربك؛ فإنه ﴿بما تعملون خبيراً﴾: يجازيكم بحسب ما تعلمه منكم من الخير والشر.

﴿٣﴾ فإن وقع في قلبك أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلّة؛ حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق؛ فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله؛ بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً في سلامتك من شرهم وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾: توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه وأرأف به من كل

(١) في (ب): «ورسوله».

أحد، خصوصاً خواص عبيده، الذين لم يزل يربّيهم ببرّه ويدرّ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بالقاء أموره إليه، ووعدّه أن يقوم بها؛ فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسّر، وصعب يتسهّل^(١)، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تُقضى، وبركات تنزل، ونقم تُدفع، وشُرور تُرفع. وهناك ترى العبد، الضعيف الذي فوّض أمره لسيدّه قد قام بأمورٍ لا تقوم بها أمة من الناس، وقد سهّل الله عليه ما كان يصعبُ على فحول الرجال. وبالله المستعان.

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ كَلِمَةٌ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿١﴾﴾
 ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿٤﴾ يعاتبُ تعالى عباده عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا؛ فإن ذلك القول منكم كذب وزور يترتب عليه منكرات من الشرع، وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى، ولكن خصّ هذه الأشياء المذكورة لوقوعها وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾: هذا لا يوجد؛ فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلق الإلهية، ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن﴾: بأن يقول أحدكم لزوجته أنت علي كظهر أمي أو كأمي؛ فما جعلهن الله ﴿أمهاتكم﴾: أمك من ولدك وصارت أعظم النساء عليك حرمةً وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك؛ فكيف تشبه أحد المتناقضين بالآخر؟! هذا أمر لا يجوز؛ كما قال تعالى: ﴿الذين يُظَاهِرُونَ مِنكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

﴿وما جعل أدعياءكم أبناءكم﴾: والادعياء: الولد الذي كان الرجل يدعيه وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيّه إياه؛ كما كان الأمر في الجاهلية^(٢) وأول الإسلام، فأراد الله تعالى أن يُبطله ويزيله، فقدّم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله ولا يتّصف به عباد الله،

(١) في (ب): «يسهل».

(٢) في (ب): «الجاهلية».

يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم أو يدعون إليكم أبناءكم؛ فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم؛ فلا جعل الله هذا كهذا، ﴿ذلكم﴾: القول الذي تقولون في الدعوي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان، ﴿قولكم بأفواهكم﴾؛ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له، ﴿والله يقول الحق﴾؛ أي: اليقين والصدق؛ فلذلك أمركم باتباعه على قوله وشرعه؛ فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة والطرق الصادقة، وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته؛ فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

﴿٥﴾ ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوهم﴾؛ أي: الأدعياء ﴿لآبائهم﴾: الذين ولدوهم ﴿هو أقسط عند الله﴾؛ أي: أعدل وأقوم وأهدى، ﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾: الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾؛ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك؛ فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة والموالاتة على ذلك؛ فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها، وأما دعاؤهم لآبائهم؛ فإن علموا؛ دعوا إليهم، وإن لم يعلموا؛ اقتصر على ما يُعلم منهم، وهو أخوة الدين والموالاتة؛ فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بآبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم؛ لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾: بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناهم؛ فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً فدعوتموه إليه، وهو في الباطن غير أبيه^(١)؛ فليس عليكم^(٢) في ذلك حرج إذا كان خطأ. ﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما تعمدت قلوبكم من الكلام بما لا يجوز. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: غفر لكم ورحمكم؛ حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم؛ حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم؛ فله الحمد تعالى.

﴿التي أولئك بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولئك بعض في كتب الله من المؤمنين والمهجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ ﴿٦﴾.

(١) في (ب): «ليس أباه».

(٢) في (ب): «فليس في عليكم».

﴿٦﴾ يخبر تعالى المؤمنين خيراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾: أقرب ما للإنسان وأولى ما له نفسه؛ فالرسول أولى به من نفسه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام بذل لهم من التصح والشفقة والرافة ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم؛ فرسول الله أعظم الخلق مئة عليهم من كل أحد؛ فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر إلا على يديه وبسببه؛ فلذلك وجب عليهم^(١) إذا تعارض مراد النفس أو مراد أحد من الناس مع مراد الرسول أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد كائناً ما كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه، وهو ﷺ أب للمؤمنين؛ كما في قراءة بعض الصحابة يربهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم؛ أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكأن هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان يدعى قبل زيد بن محمد، حتى أنزل الله: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم﴾، فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول؛ فلا مزية لأحد عن أحد، وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة؛ فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه؛ فلا يحزن ولا يأسف، وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين: أنهن لا يحلن^(٢) لأحد من بعده؛ كما سيصرح^(٣) بذلك، ولا يحل لكم أن تتكحوا أزواجه من بعده أبداً.

﴿وأولو الأرحام﴾؛ أي: الأقارب قربوا أو بعدوا ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾؛ أي: في حكمه، فيرث بعضهم بعضاً ويبر بعضهم بعضاً؛ فهم أولى من الحلف والنصرة، والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب دون ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب لطفاً منه وحكمة؛ فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة؛ لحصل من الفساد والشر والتحييل لحرمان الأقارب من الميراث شيء كثير، ﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾؛ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين أو^(٤) غير مهاجرين؛ فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك. وهذه

(٢) في (ب): «لا يحل».

(٤) في (ب): «أو».

(١) في (ب): «عليه».

(٣) في (ب): «كما الله صرح».

الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات؛ كولاية النكاح والمال وغير ذلك، ﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾؛ أي: ليس لهم حق مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا^(١) لهم تبرعاً وتعطوهم معروفاً منكم، ﴿كَانَ﴾: ذلك الحكم المذكور ﴿فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾؛ أي: قد سطر وكتب وقدره الله؛ فلا بد من نفوذه.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ لَسْتَلَّ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾.

﴿٧ - ٨﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من النبيين عموماً ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة المذكورون خصوصاً - ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل المؤكد على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا سبيل قد مشى عليه الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم، وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ؛ هل وفوا فيه وصدقوا فيسيهم جنات النعيم، أم كفروا فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ۝١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾.

﴿٩ - ١١﴾ يذكر تعالى عبادة المؤمنين نعمته عليهم، ويحثهم على شكرها حين جاءتهم جنود أهل مكة والحجاز من فوقهم وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق، ومالاتهم طوائف اليهود الذين حوالي المدينة، فجاؤوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة، وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ لما رأوا من الأسباب

(١) في (ب): «تبرعوا».

المستحكمة والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصارُ على المدينة مدةً طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾؛ أي: الظنون السيئة أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته، ﴿هناك ابتلي المؤمنون﴾: بهذه الفتنة العظيمة، ﴿وزلزلوا زلزالاً شديداً﴾: بالخوف والقلق والجوع؛ ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر ولله الحمد من إيمانهم وشدة يقينهم ما فاقوا فيه الأولين والآخرين. وعندما اشتدَّ الكربُ وتفاقمَت الشدائدُ؛ صار إيمانهم عين اليقين، ﴿فلما رأى المؤمنون الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾.

وهناك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون؛ قال تعالى:

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (١١).

﴿١٢﴾ وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة؛ لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة الحاضرة^(١)، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاقًا﴾ (١٢) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْنَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيْرًا﴾ (١٣) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا لَآلِهِنَا مِنَ الْقَوْمِ الْآخِرِينَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ (١٤) ﴿قُلْ لَن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تَسْعَوْنَ إِلَّا فِيلًا﴾ (١٥) ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِن أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لِمَن ذُوْبَ اللَّهِ وَاِيًّا وَلَا نَصِيْرًا﴾ (١٦) ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنكُمْ وَالْمُؤْمِنِينَ لِيَخْفِيَهُمْ هَلْهُمُ إِلَّا نَجْسٌ وَمَا يَقُونُ إِلَّا الْبَآْسَ إِلَّا قَلِيْلًا﴾ (١٧) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَقْرَعُونَ أَبْوَابَ مُدَيِّنَةٍ وَقَدْ غَلَّتْ عَلَيْهِمُ السَّيْرَةُ فَسَبَّوْا أُولَآئِكَ لَوْ أَنَّهُمْ لَمَسُوْا فِي سَبَبِهَا كَيْدًا لَوَسَّوْا أَصْحَابَ الْمُدَيِّنَةِ وَأَمْلَكُوا اللَّهُ الْعَمَلُ وَأَمَّا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرًا﴾ (١٨) ﴿عَن أَنبِيَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَتَلُوا إِلَّا قَلِيْلًا﴾ (١٩) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُتُوْرَةٌ

(١) في (ب): «القاصرة».

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿١١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْرَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿١٢﴾ مَن الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿١٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَّ بَأْلَؤًا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿١٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِبِهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿١٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوּهُمَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿١﴾

﴿١٣﴾ ﴿١٣﴾ واذا قالت طائفة: من المنافقين بعد ما جزعوا وقل صبرهم صاروا أيضاً من المخدلين؛ فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يا أهل يثرب﴾: يريدون: يا أهل المدينة! فنادوهم باسم الوطن المنبئ^(٢) عن التسمية فيه؛ إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية ليس له في قلوبهم قدر؛ وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي. ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم﴾؛ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فارجعوا﴾: إلى المدينة. فهذه الطائفة تحذل عن الجهاد وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم ويأمرونهم بترك القتال؛ فهذه الطائفة أشد الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخزلوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة﴾؛ أي: عليها الخطر ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء ونحن غيب عنها؛ فأذن لنا؛ نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك، ﴿وما هي بعورة إن يريدون﴾؛ أي: ما قصدهم ﴿إلا فراراً﴾: ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعذراً لهم؛ فهؤلاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿١٤﴾ ﴿١٤﴾ ولو دخلت عليهم: المدينة ﴿من أقطارها﴾؛ أي: لو دخل الكفار إليها

(١) الآيات ما بين المعقوفتين إلى ٢٧ لا توجد في النسختين.

(٢) في (ب): «المنبئ فيه».

من نواحيها واستولوا عليها؛ لا كان ذلك، ثم سُئِلَ هُؤَلَاءُ ﴿الْفِتْنَةَ﴾؛ أي: الانقلاب عن دينهم والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين، ﴿لَا تَوَهَا﴾؛ أي: لأعطوها مبادرين، ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾؛ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء؛ يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم.

﴿١٥﴾ هذه حالهم، والحال أنهم قد ﴿عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً﴾: سيسألهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه؛ فما ظنهم إذا برئهم؟!

﴿١٦﴾ ﴿قل﴾: لهم لانما على فرارهم ومخبراً أنهم لا يفيدهم ذلك شيئاً: ﴿لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾: فلو كنتم في بيوتكم؛ لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم، والأسباب تنفع إذا لم يعارضها القضاء والقدر؛ فإذا جاء القضاء والقدر؛ تلاشى كل سبب، وبطلت^(١) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه، ﴿وإِذَا﴾: حين فررتهم؛ لتسلموا من الموت والقتل، لتنعموا في الدنيا؛ فإنكم ﴿لَا تَمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾: متاعاً لا يسوى فراركم وترككم أمر الله وتفويثكم على أنفسكم التمتع الأبدي في النعيم السرمدى.

﴿١٧﴾ ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أَرَادَهُ اللهُ بِسُوءٍ، فقال: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم﴾؛ أي: يمتنعكم من ﴿الله إن أراد بكم سوءاً﴾؛ أي: شراً، ﴿أو أراد بكم رحمة﴾: فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفعُ السوء إلا هو، ﴿ولا يجدون لهم من دون الله ولياً﴾: يتولاهم فيجلب لهم المنافع^(٢) ﴿ولا نصيراً﴾: ينصرهم^(٣) فيدفع عنهم المضار؛ فلم يمثّلوا طاعة المنفرد بالأمر كلها، الذي نفذت مشيئته ومضى قدره ولم ينفع مع ترك ولايته ونصريته ولي ولا ناصر.

﴿١٨﴾ ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين وتهددهم فقال: ﴿قد يعلم الله المعوقين منكم﴾: عن الخروج لمن لم يخرجوا، ﴿والقائلين لإخوانهم﴾: الذين خرجوا: ﴿هلّم إلينا﴾؛ أي: ارجعوا كما تقدّم من قولهم: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فازجعوا﴾، وهم مع تعويقهم وتخذيّلهم ﴿لا يأتون البأس﴾: القتال والجهاد

(١) في (ب): «وبطل».

(٢) في (ب): «المنفع».

(٣) في (ب): «أي ينصرهم».

بأنفسهم، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: فهم أشد الناس حرصاً على التخلُّف لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، [وجود] المقتضي للجبن من النفاق وعدم الإيمان.

﴿١٩﴾ ﴿أَشْحَةَ عَلَيْهِمْ﴾: بأبدانهم عند^(١) القتال، وأموالهم عند النفقة فيه؛ فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم، ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾: نظر المَغْشِي عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ: من شدَّة الجبن الذي خلع قلوبهم والقلق الذي أذهلهم وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال، ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾: وصاروا في حال الأمن والطمأنينة؛ ﴿سَلَقُوكُمْ بِاللِّسَانِ حِدَادٍ﴾؛ أي: خاطبوكم وتكلّموا معكم بكلام حديد ودعاو غير صحيحة، وحين تسمعهم تظنهم أهل الشجاعة والإقدام. ﴿أَشْحَةَ عَلَى الْخَيْرِ﴾: الذي يُرَادُ مِنْهُمْ، وهذا شرٌّ ما في الإنسان: أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه. ﴿أُولَئِكَ﴾: الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾: بسبب عدم إيمانهم؛ أحبط الله أعمالهم. ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾: وأما المؤمنون؛ فقد وقَّاهم الله شحَّ أنفسهم، ووفَّقهم لبذل ما أمروا به من بذل أبدانهم في القتال في سبيله وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿٢٠﴾ ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾؛ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزَّبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم. ﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾: مرة أخرى، ﴿يُودُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ﴾؛ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة؛ ودَّ هؤلاء المنافقون أنهم ليسوا في المدينة، ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبائكم ماذا حصل عليكم؛ فتباً لهم وبعداً؛ فليسوا ممن يُغَالَى^(٢) بحضورهم، فلو ﴿كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾: فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾: حيث حَضَرَ الهِجَاءَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ، وِبِأَشْرَ مَوْقِفِ الْحَرْبِ وَهُوَ الشَّرِيفُ الْكَامِلُ وَالبَطْلُ^(٣) الْبَاسِلُ، فَكَيْفَ تَشْحُونُ

(٢) في (ب): «يبالي».

(١) في (ب): «عن».

(٣) في (ب): «الكمال البطل».

بأنفسكم عن أمرٍ جادٍ^(١) رسولُ الله ﷺ بنفسه فيه، فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدلَّ الأصوليون في هذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأنَّ الأصل أنَّ أمته أسوته في الأحكام؛ إلا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به؛ فالأسوة نوعان: أسوة حسنةٌ وأسوة سيئةٌ، فالأسوة الحسنةُ في الرسول ﷺ؛ فإنَّ المتأسِّي به سالكُ الطريق الموصول إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأما الأسوة بغيره إذا خالفه؛ فهو الأسوة السيئة؛ كقول المشركين^(٢) حين دعيتهم الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾؛ وهذه الأسوة الحسنةُ إنّما يسلكها ويوفق لها مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر؛ فإنَّ ذلك ما معه^(٣) من الإيمانِ وخوفِ الله ورجاءِ ثوابه وخوفِ عقابه يحثُّه على التأسِّي بالرسول ﷺ.

﴿٢٢﴾ لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف؛ ذكر حال المؤمنين فقال: ﴿ولمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾: الذين تحزَّبوا ونزلوا منازلهم وانتهى الخوف، ﴿قالوا هذا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِبًا﴾ والضرأء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب﴾، ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾: فإنَّا رأينا ما أخبرنا به، ﴿وما زادهم﴾: ذلك الأمر ﴿إلا إيماناً﴾: في قلوبهم، ﴿وتسليماً﴾: في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

﴿٢٣﴾ ولما ذكر أنَّ المنافقين عاهدوا الله لا يولُّون الأديار ونقضوا ذلك العهد؛ ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾؛ أي: وفوا به وأتموه وأكملوه، فبدلوا مهجهم في مرضاته، وسبَّلوا نفوسهم في طاعته. ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾؛ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله أو مات مؤدياً لحقه لم ينقضه شيئاً، ﴿ومنهم من ينتظر﴾: تكميل ما عليه؛ فهو شارعٌ في قضاء ما عليه ووفاء نحبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله ساعٍ في ذلك مجدِّ، ﴿وما بدَّلوا تبديلاً﴾: كما بدَّل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون؛ فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن^(٤) عداهم فضورهم صورُ رجالٍ وأما الصفات؛ فقد قصرت عن صفات الرجال.

(٢) الكفار.

(١) في (ب): «جاء».

(٤) في (ب): «وما».

(٣) في (ب): «فإن ما معه».

﴿٢٤﴾ ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾؛ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله واستواء ظاهريهم وباطنيهم، قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا...﴾ الآية؛ أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم، ﴿ويعذب المنافقين﴾: الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه، ﴿إن شاء﴾: تعذيبهم؛ بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم، فلم يوقفهم، ﴿أو يتوب عليهم﴾: بأن يوقفهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾؛ غفوراً لذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب. ﴿رحيماً﴾: بهم؛ حيث وقفهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

﴿٢٥﴾ ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾؛ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حريصين عليه، مغتاضين، قادرين عليه، جازمين بأن لهم الدائرة، قد غرَّتهم جموعهم وأعجبوا بتحزُّبهم وفرحوا بعددهم وعددهم، فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي ^(١) ريح الصبا، فزعزعت مراكزهم، وقوضت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأزعجتهم، وضربهم الله بالرعب، فانصرفوا بغيظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين. ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾: بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدريَّة. ﴿وكان الله قويّاً عزيزاً﴾: لا يغالبه أحدٌ إلا غلب، ولا يستنصره أحدٌ إلا غلب، ولا يعجزه أمرٌ أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم إن لم يُعنهم بقوته وعزته.

﴿٢٦﴾ ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾؛ أي: عاونوهم ﴿من أهل الكتاب﴾؛ أي: من اليهود ﴿من صياصبهم﴾؛ أي: أنزلهم من حصونهم نزولاً مظهوراً بهم مجعولين تحت حكم الإسلام، ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾: فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا. ﴿فريقاً تقتلون﴾: وهم الرجال المقاتلون، ﴿وتأسرون فريقاً﴾: من عداهم من النساء والصبيان.

(١) في (ب): «وهو».

﴿٢٧﴾ ﴿وَأُورِثُكُمْ﴾؛ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَّوُّوْهَا﴾؛ أي: أرضاً كانت من قبل من شرفها وعزتها عند أهلها لا تتمكنون من وطئها، فمكنكم الله، وخذَلهم، وعَنِمْتُمْ أموالهم، وقتلتموهم، وأسزتموهم، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾: لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر.

وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب هم بنو قريظة من اليهود في قرية خارج المدينة غير بعيد، وكان النبي ﷺ حين هاجر إلى المدينة وادَّعاهم وهاذَنهم فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغيّر عليهم شيئاً، فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزَّبوا على رسول الله وكثرتهم وقلَّة المسلمين، وظنُّوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك تدجيل بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، ومالؤوا المشركين على قتاله، فلما خذَل الله المشركين؛ تفرَّغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم أن تُقتَلَ مقاتلتهم، وتُسبى ذراريهم وتُغنم أموالهم، فاتمَّ الله لرسوله والمؤمنين المنَّة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انخذَل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطفُ الله بعباده المؤمنين مستمراً.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُحِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأَسْرِحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿٢٨﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة؛ طلبن منه أمراً لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات وفي^(١) مرادهن متعنتات، فشقَّ ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألى منهن شهراً، فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن فأمر رسوله أن يخيرهن^(٢)، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾؛ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها وتغضبين لفقدائها؛ فليس لي فيكن أرب وحاجة وأنتن بهذه

(١) في (ب): «متفقات في».

(٢) في (ب): «يخيرهن».

الحال، ﴿فَتَعَالَيْنِ أُمْتُغُنَّ﴾: شيئاً مما عندي من الدنيا، ﴿وَأَسْرُخُنَّ﴾؛ أي: أفارقكن ﴿سراحاً جميلاً﴾: من دون مغاضبة ولا مشاتمة، بل بسعة صدرٍ وانسراح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿٢٩﴾ ﴿وإن كُنتنَّ تُرَدْنَ الله ورسوله والدار الآخرة﴾؛ أي: هذه الأشياء مرادُكنَّ وغاية مقصودكنَّ، وإذا حصل لُكنَّ الله ورسوله والجنة؛ لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها ويُسرها وعُسرها، وقعتنَّ من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبين منه ما يشقُّ عليه، ﴿فإن الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجراً عظيماً﴾: رتب الأجر على وصفهنَّ بالإحسان؛ لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهنَّ زوجاتٍ للرسول؛ فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيرهنَّ رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترنَّ الله ورسوله والدار الآخرة كلهنَّ، لم^(١) يتخلف منهنَّ واحدة رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله والخيرة عليه أن يكون بحالة يشقُّ عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعه حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه إن شاء أعطى وإن شاء منع، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له.

ومنها: تنزيهه عما لو كان فيهنَّ من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها.

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهنَّ عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله، فحسم الله بهذا التخيير عنهنَّ التسخط على الرسول الموجب لسخطه المُسخط الربُّه الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهنَّ وعلو درجاتهنَّ وبيان علو همهنَّ أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهنَّ ومقصودهنَّ دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهنَّ بهذا الاختيار للأمر الخيار للوصول إلى خيار درجات الجنة وأن يكنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

(١) في (ب): «ولم».

ومنها: ظهورُ المناسبةِ بينه وبينهنَّ؛ فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه كاملاتٍ مكملاتٍ طيباتٍ مطيباتٍ، ﴿الطيباتُ للطيبين والطيبونُ للطيباتِ﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع وموجب للقناعة التي يطمئنُّ لها القلبُ وينشرح لها الصدرُ، ويزول عنهنَّ جشعُ الحرصِ وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه وهمه وغمه.

ومنها: أن يكون اختيارهنَّ لهذا سبباً لزيادة أجرهنَّ ومضاعفته، وأن يكنَّ بمرتبة ليس فيها أحدٌ من النساء، ولهذا قال:

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَفْعَلْ مِنْكُم مِّنْهُ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٣٠﴾ لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ ذكّر مضاعفة أجرهنَّ ومضاعفة وزرهنَّ وإثمننَّ لو جرى منهنَّ؛ ليزداد حذرهنَّ وشكرهنَّ الله تعالى، فجعل من أتى منهنَّ بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿٣١﴾ ﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنْكُم مِّنْهُ﴾؛ أي: تطيع الله ورسوله وتعمل صالحاً قليلاً أو كثيراً، ﴿نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾: وهي الجنة، فقتننَّ لله ورسوله وعمِلنَّ صالحاً، فعلم بذلك أجرهنَّ.

﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا بُشَلَّ فِي بُيُوتِكُنَّ مَن آيَنَتِ اللَّهُ وَاللَّيْكَةَ إِنَّا اللَّهُ كَاتِبٌ لَّطِيفٌ خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٣٢﴾ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾: خطابٌ لهنَّ كلهنَّ ﴿لستنَّ كأحدٍ من النساء إن اتقيتنَّ﴾: الله؛ فإنكُنَّ بذلك تفقن النساء ولا يلحقكُنَّ أحدٌ من النساء؛ فكمِلنَّ التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها، فلهدا أرشدهنَّ إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾؛ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون، فتلنَّ في ذلك، وتكلمنَّ بكلام رقيق، يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرضٌ﴾؛ أي:

مرض شهوة الزنا فإنه مستعدٌ ينتظرُ أدنى محركٍ يحركه لأن قلبه غيرُ صحيح؛ فإن القلب الصحيح ليس فيه شهوةٌ لما حرّم الله؛ فإن ذلك لا تكاد تُميله ولا تُحركه الأسباب لصحة قلبه وسلامته من المرض؛ بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمّل ما يتحمّل الصحيح، ولا يصبرُ على ما يصبرُ عليه؛ فأدنى سببٍ يوجد ويدعوه إلى الحرام يُجيب دعوته ولا يتعاصى عليه؛ فهذا دليلٌ على أن الوسائل لها أحكام المقاصد؛ فإن الخضوع بالقول واللين فيه في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلةً إلى المحرّم؛ منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال أن لا تُلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول؛ فربما تُوهّم أنهن مأموراتٌ بإغلاظ القول؛ دَفَعَ هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: غير غليظ ولا جاف؛ كما أنه ليس بليّن خاضع. وتأمّل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾، ولم يقل: فلا تَلين بالقول، وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يُطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً لينا ليس فيه خضوع، بل ربّما صار فيه ترفعٌ وقهرٌ للخصم؛ فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾، وقال لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ. فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَينًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

ودل قوله: ﴿فِيَطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا: أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يهش^(١) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام من يهواه ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فليعرف أن ذلك مرض، فليجتهد في إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديئة ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿٣٣﴾ ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ أي: افترزن فيها؛ لأنه أسلم وأحفظ لكنن، ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَىٰ﴾؛ أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين؛ فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

(١) في (ب): «يشتهي».

ولما أمرهنَّ بالتقوى عموماً وبجزئيات من التقوى نصَّ عليها لحاجة النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة اللتان يحتاجهما ويضطرُّ إليهما كلُّ أحد، وهما أكبر العبادات وأجلُّ الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهنَّ بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يدخلُ في طاعة الله ورسوله كلُّ أمرٍ أمرًا^(١) به أمرٌ إيجابٌ أو^(٢) استحبابٌ، ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾: بأمرِكُنَّ بما أمرَكُنَّ به ونَهَيْكُنَّ عَمَّا^(٣) نَهَاكُنَّ عَنْهُ؛ ﴿لِيَذْهَبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾؛ أي: الأذى والشر والخبث ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾: حتى تكونوا طاهرين مطهرين؛ أي: فاحمدوا، ربيكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي التي أخبركم بمصلحتها، وأنها محضُ مصلحتِكُم، لم يريد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقةً، بل لتتزكى نفوسكم، وتتطهر^(٤) أخلاقكم، وتُحسُن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

﴿٣٤﴾ ولما أمرهنَّ بالعمل الذي هو فعلٌ وتركٌ؛ أمرهنَّ بالعلم، وبين لهنَّ طريقه، فقال: ﴿وَأذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾، والمرادُ بآياتِ الله القرآن، والحكمة أسرارُه أو سنَّةُ رسوله، وأمرهنَّ بذكره يشمل ذكْرَ لفظِه بتلاوته وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه واستخراج أحكامه وحِكْمِه، وذكْرَ العمل به وتأويله.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾: يدرك سرائر^(٥) الأمور وخفايا الصدور وخبايا السماوات والأرض والأعمال التي تبين وتُسَرُّ؛ فلطفه وخبرته يقتضي حُثُّه على الإخلاص وإسرار الأعمال ومجازاة الله على تلك الأعمال. ومن معاني اللطيف: الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشرِّ بطرقٍ خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدره، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس، ما يكون ذلك طريقاً له إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ

(١) في (ب): «أمر».

(٢) في (ب): «بما».

(٣) في (ب): «أسرار».

(٤) في (ب): «و».

(٥) في (ب): «ولتطهر».

وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ وَالمُتَّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ .

﴿٣٥﴾ لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن لو قدر عدم الامتثال وأنه ليس مثلهن أحد من النساء؛ ذكر بقية النساء غيرهن، ولما كان حكمهن والرجال واحداً؛ جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾: وهذا في الشرائع الظاهرة إذا كانوا قاتمين بها، ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾: وهذا في الأمور الباطنة من عقائد القلب وأعماله، ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾؛ أي: المطيعين لله ولرسوله، ﴿وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾: في مقالهم وفعالهم، ﴿وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ﴾: على الشدائد والمصائب، ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ﴾: في جميع أحوالهم خصوصاً في عباداتهم ولا سيما^(١) في صلواتهم، ﴿وَالخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾: فرضاً ونفلاً، ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ﴾: شمل ذلك الفرض والنفل، ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾: عن الزنا ومقدماته، ﴿وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ أي: في أكثر الأوقات، خصوصاً في أوقات الأوراد المقيّدة؛ كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات، ﴿وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾؛ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة والمناقب الجليلة، التي هي ما بين اعتقادات وأعمال قلوب وأعمال جوارح وأقوال لسان ونفع متعدّد وقاصر وما بين أفعال الخير وترك الشر الذي من قام بهن فقد قام بالذين كلّه ظاهره وباطنه بالإسلام والإيمان والإحسان، فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأنّ الحسنات يُذهبن السيئات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾: لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه؛ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. نسأل الله أن يجعلنا منهم.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿٣٦﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق بمن^(٢) اتّصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله والهرب من سخط الله ورسوله وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما؛ فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة، ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾: من الأمور

(٢) في (ب): «من».

(١) في (ب): «خصوصاً».

وَحَتْمًا بِهِ وَالزُّمًا بِهِ ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾؛ أي: الخيار هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه؛ فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجاباً بينه وبين أمر الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾؛ أي: بيتنا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً السبب الموجب لعدم معارضة أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكّر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٣٧﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات^(١) أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعاً عاماً للمؤمنين أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبتأهم نكاحهن، وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولاً من رسوله وفعلاً، وإذا أراد الله أمراً؛ جعل له سبباً، فكان^(٢) زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد، قد تبتأه النبي ﷺ، فصار يُدعى إليه، حتى نزل ﴿أذعوهم لأبائهم﴾؛ فقيل له: زيد بن حارثة، وكانت تحته زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله ﷺ، وكان قد^(٣) وقع في قلب الرسول لو طلقها زيد لتزوجها، فقدّر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها؛ قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾؛ أي: بالإسلام، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾: بالعتق والإرشاد والتعليم حين جاءك مشاوراً في فراقها، فقلت له ناصحاً له ومخبراً بمصلحته مقدماً لها على رغبتك مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾؛ أي: لا تفارقها واصبر على ما جاءك منها.

(١) أخرجه البخاري (٤٧٨٧ و٧٤٢٠)، وقال الحافظ في «الفتح» (٥٢٣/٨): «وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فسانها سياقاً واضحاً حسناً».

(٢) في (ب): «وكان».

(٣) في (ب): «وقد كان قد».

﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾: تعالى في أمورك عامَّةً وفي أمر زوجك خاصَّةً؛ فَإِنَّ التقوى تحثُّ على الصبر وتأمُر به، ﴿وتُخَفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾: والذي أخفاه الله لو طَلَّقَهَا زَيْدًا؛ لتزوّجها ﷺ، ﴿وتُخَشِي النَّاسَ﴾: في عدم إيداء ما في نفسك، ﴿والله أحنُّ أَنْ تُخْشَاهُ﴾: فَإِنَّ خشيتَه جالبةٌ لكلِّ خيرٍ مانعةٌ من كلِّ شرٍّ، ﴿فلما قضى زيدٌ منها وطراً﴾؛ أي: طابت نفسه ورغب عنها وفارقها، ﴿زوّجناكها﴾: وإِنَّمَا فَعَلْنَا ذَلِكَ لِفَائِدَةٍ عَظِيمَةٍ، وهي: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ﴾: حيث رأوك تزوّجت زوج زيد بن حارثة الذي كان من قَبْلُ يَنْتَسِبُ إِلَيْكَ، ولما كان قوله: ﴿لكيلا يكونَ على المؤمنين حرجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ﴾: عامًّا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها؛ قَيَّدَ ذَلِكَ بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾؛ أي: لا بدُّ من فعله ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات^(١) على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أَنَّ اللَّهَ سَمَّاهُ فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَسْمُ مِنَ الصَّحَابَةِ بِاسْمِهِ غَيْرَهُ. والثاني: أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِ؛ أَي: بِنِعْمَةِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَهَذِهِ شَهَادَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَإِلَّا؛ فَلَا وَجْهَ لِتَخْصِيصِهِ بِالنِّعْمَةِ؛ إِلَّا أَنْ^(٢) المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أَنَّ الْمُتَعَتَّقَ فِي نِعْمَةِ الْمُعْتَقِ.

ومنها: جواز تزوج زوجة^(٣) الدَّعِي كما صرح به.

ومنها: أَنَّ التَّعْلِيمَ الْفَعْلِيَّ أْبْلَغُ مِنَ الْقَوْلِي، خُصُوصًا إِذَا اقْتَرَنَ بِالْقَوْلِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ نُوِّرَ عَلَى نُورِ.

ومنها: أَنَّ الْمُحِبَّةَ الَّتِي فِي قَلْبِ الْعَبْدِ لغير زوجته ومملوكته ومحارمه إذا لم يَقْتَرِنَ بِهَا مَحْذُورٌ لَا يَأْتِمُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، وَلَوْ اقْتَرَنَ بِذَلِكَ أَمْنِيَّتُهُ أَنْ لَوْ طَلَّقَهَا زَوْجَهَا لَتَزَوَّجَهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْعَى فِي فِرْقَةٍ بَيْنَهُمَا أَوْ يَتَسَبَّبُ بِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَخْفَى ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ.

ومنها: أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ بَلَغَ الْبَلَاغَ الْمُبِينِ، فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا مِمَّا أَوْحَى إِلَيْهِ إِلَّا

(٢) في (ب): «لولا أن».

(١) في (ب): «المشتملة».

(٣) في (ب): «بزوجة».

وبلَّغَهُ، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه، ولهذا يدلُّ على أنَّه رسولُ الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيمَ نفسه.

ومنها: أنَّ المستشارَ مؤتمَنٌ، يجبُ عليه - إذا استُشيرَ في أمرٍ من الأمور - أن يُشيرَ بما يعلمُه أصلحُ للمستشير^(١)، ولو كان له حظُّ نفسٍ بتقدُّم^(٢) مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أنَّ من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجة أن يُؤمَرَ بإمسакها مهما أمكن صلاحُ الحال؛ فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: أنه يتعيَّن أن يقدِّم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحقُّ منها وأولى.

ومنها: فضيلةُ زينب رضي الله عنها أم المؤمنين؛ حيث تولَّى الله تزويجها من رسوله ﷺ من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخرُ بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ^(٣).

ومنها: أنَّ المرأة إذا كانت ذات زوج لا يجوزُ نكاحها ولا السعيُّ فيه وفي أسبابه حتى يقضيَ زوجها وطْرَهُ منها، ولا يقضيَ وطْرَهُ حتى تنقضيَ عدَّتُها؛ لأنَّها قبل انقضاء عدتها وهي في عصمتِهِ أو في حقِّه الذي له وطْرٌ إليها ولو من بعض الوجوه.

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ (٣٨) ﴿الَّذِينَ يَلْعَنُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ اللَّهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٣٩).

﴿٣٨﴾ هذا دفع لظعن من طعن في الرسول ﷺ في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال: ﴿ما كان على النبي من حرج﴾؛ أي: إثم وذنوب ﴿فيما فرض الله له﴾؛ أي: قدر له من الزوجات؛ فإنَّ هذا قد أباحه الله له كما أباحه للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرًا مقدورًا﴾؛ أي: لا بد من وقوعه.

(١) في (ب): «للمستشار».

(٢) في (ب): «فيقدم».

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك.

﴿٣٩﴾ ثم ذَكَرَ مَنْ هُم الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ قَدْ خَلَوْا وَهَذِهِ سُنَّتُهُمْ وَعَادَتُهُمْ، وَأَنْهُمْ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ: ﴿فَيَتْلُونَ عَلَى الْعِبَادِ آيَاتِ اللَّهِ وَحُجَّجَهُ وَبِرَاهِمِنَهُ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى اللَّهِ، ﴿وَيَخْشَوْنَهُ﴾: وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾: إِلَّا اللَّهَ؛ فَإِذَا كَانَ هَذَا سَنَةً فِي الْأَنْبِيَاءِ الْمُعْصُومِينَ الَّذِينَ وَظِيفْتَهُمْ قَدْ أَدَوْهَا وَقَامُوا بِهَا أْتَمَّ الْقِيَامَ، وَهُوَ دَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ وَالْخَشْيَةِ مِنْهُ وَحَدَّهُ، الَّتِي تَقْتَضِي فِعْلَ كُلِّ مَأْمُورٍ وَتَرْكَ كُلِّ مُحْظُورٍ، [دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهِ]. ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾: مُحَاسِبًا عِبَادَهُ مُرَاقِبًا أَعْمَالَهُمْ. وَعُلِمَ مِنْ هَذَا أَنَّ النِّكَاحَ مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿محمد﴾: ﷺ ﴿أبا أحدٍ من رجالكم﴾: أيها الأمة، فقطع انتساب زيد بن حارثة منه من هذا الباب. ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال إن حُمِلَ ظاهر اللفظ على ظاهره؛ أي: لا أبوة نسب ولا أبوة ادعاء، وكان قد^(١) تقرر فيما تقدم أن الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحترز أن يدخل هذا النوع بعموم النهي المذكور؛ فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾؛ أي: هذه مرتبته؛ مرتبة المطاع المتبوع المهتدى به المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح، الذي لهم - أي: للمؤمنين - من بره ونصحه كأنه أب لهم، ﴿وكان الله بكل شيء عليمًا﴾؛ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿٤١﴾ ﴿وَسَخَّوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ نَجَّيْتَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامًا وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾.

﴿٤١﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً كثيراً؛ من تهليل وتحميد وتسيح وتكبير

(١) في (ب): «وقد كان».

وغير ذلك من كل قولٍ فيه قُرْبَةٌ إلى اللَّهِ، وأقلُّ ذلك أن يلازمَ الإنسانُ أوراِدَ الصباحِ والمساءِ وأدبارِ الصلواتِ الخمسِ وعندِ العوارضِ والأسبابِ، وينبغي مداومةَ ذلكِ في جميعِ الأوقاتِ على جميعِ الأحوالِ؛ فإنَّ ذلكَ عبادةٌ يسبِقُ بها العاملُ وهو مستريحٌ وداعٍ إلى محبةِ اللَّهِ ومعرفةِهِ وِعَوْنٌ على الخيرِ وكفٌّ للسانِ عن الكلامِ القبيحِ.

﴿٤٢﴾ ﴿وسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أولَ النهارِ وآخره؛ لفضلهما وشرفهما وسهولةِ العملِ فيهما.

﴿٤٣﴾ ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخارجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً﴾؛ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم أن جعلَ من صلاتِهِ عليهم وثنائه وصلاحه ملائكته ودعائهم ما يخرجهم من ظلماتِ الذنوبِ والجهلِ إلى نورِ الإيمانِ والتوفيقِ والعلمِ والعملِ؛ فهذه أعظمُ نعمةٍ أنعمَ بها على العبادِ الطائعينِ، تستدعي منهم شكرها والإكثارَ من ذكرِ اللَّهِ الذي لطفَ بهم ورحمهم وجعلَ حملاً عرشِهِ أفضلَ الملائكةِ ومن حوله يسبحون بحمدي ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا، فيقولون: ﴿ربُّنا وسعت كلَّ شيءٍ رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلَكَ وقِهِمْ عذابَ الجحيمِ. ربُّنا وأدخلهم جناتِ عدنٍ التي وعدتَهُمْ ومَنْ صَلَحَ من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ. وقِهِمُ السيئاتِ ومَنْ تَقِ السيئاتِ يومئذٍ فقد رجِمتهُ وذلكَ الفوزُ العظيمُ﴾: فهذه رحمتهُ ونعمتهُ عليهم في الدنيا.

﴿٤٤﴾ ﴿وأما رحمتهُ بهم في الآخرة؛ فأجلُّ رحمةٍ وأفضلُ ثوابٍ، وهو الفوزُ برضا ربهم وتحيتهُ، واستماعُ كلامه الجليلِ، ورؤيةُ وجهه الجميلِ، وحصولُ الأجرِ الكبيرِ الذي لا يدرية ولا يعرفُ كُنْهَهُ إلا من أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وأعدَّ لهم أجراً كريماً﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْوَاهُمْ أذُنُهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ ﴿٤٨﴾.

﴿٤٥﴾ ﴿هذه الأشياءُ التي وصفَ الله بها رسولهَ محمداً ﷺ هي المقصودُ من رسالتهِ وزيدتها وأصولها التي اختصَّ بها، وهي خمسةُ أشياء:

أحدها: كونه ﴿شاهداً﴾؛ أي: شاهداً^(١) على أمته بما عملوه من خيرٍ وشرٍّ؛ كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ [وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً]﴾: فهو ﷺ شاهدٌ عدلٌ مقبولٌ.

الثاني والثالث: كونه ﴿مبشراً ونذيراً﴾: وهذا يستلزم ذكر المبشّر والمنذر وما يبشّر به ويُنذَرُ والأعمال الموجبة لذلك: فالمبشّر هم المؤمنون المتقون، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح وترك المعاصي، لهم البشّرى في الحياة الدنيا بكل ثواب دنيويٍّ ودينيٍّ رُتّبَ على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم، وذلك كلُّه يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا من العقوبات الدنيويّة والدينيّة المرتّبة على الجهل والظلم، وفي الآخرة بالعقاب الوييل والعذاب الطويل. وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﷺ من الكتاب والسنة المشتمل على ذلك.

﴿٤٦﴾ الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾؛ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربهم ويشوقهم^(٢) لكرامته ويأمرهم بعبادته التي خلّقوا لها، وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه وذكر تفاصيل ما يدعو إليه؛ بتعريفهم لربهم بصفاته المقدّسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبوديّة، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه، وإخلاص الدّعوة إلى الله لا إلى نفسه وتعظيمها؛ كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كلُّه بإذن ربه له^(٣) في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أنّ الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدلُّ به في جهاتها، حتى جاء الله بهذا النبيِّ الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم، فأصبح أهل الاستقامة قد وضح لهم الطريق، فمَسَّوْا خلف هذا الإمام، وعرفوا به الخير والشرَّ وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به

(٢) في (ب): «ويشوقهم».

(١) في (ب): «مشاهداً».

(٣) في (ب): «بإذن الله».

لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة وأفعاله السديدة وأحكامه الرشيدة.

﴿٤٧﴾ وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾: ذكر في هذه الجملة المبشّر، وهم المؤمنون، وعند ذِكْرِ الإيمان بمفرده تدخل فيه الأعمال الصالحة، وذَكَرَ المبشّر به، وهو الفضلُ الكبير؛ أي: العظيم الجليل الذي لا يقاَدَرُ قَدْرُهُ من النصر في الدنيا وهداية القلوب وغفران الذنوب وكشف الكروب وكثرة الأرزاق الدائرة وحصول النعم السارة والفوز برضا ربهم وثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا مما ينشطُ العاملين أن يذكُرَ لهم من ثواب الله على أعمالهم ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حِكَمِ الشرع: كما أن من حَكَمَهُ أن يذكُرَ في مقام الترهيب العقوبات المرتبة على ما يرهَّبُ منه؛ ليكون عوناً على الكفِّ عما حرم الله.

﴿٤٨﴾ ولَمَّا كَانَ ثَمَّ طَائِفَةٌ مِنَ النَّاسِ مُسْتَعِدَّةٌ لِلْقِيَامِ بِصُدِّ الدَّاعِينَ إِلَى اللَّهِ مِنَ الرِّسْلِ وَأَتْبَاعِهِمْ، وَهَمَّ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْمَوَافَقَةَ فِي الْإِيمَانِ وَهَمَّ كُفْرَةٌ فَجْرَةٌ فِي الْبَاطِنِ، وَالْكَفَّارُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا؛ نَهَى اللَّهُ رَسُولَهُ عَنِ طَاعَتِهِمْ وَحَذَرَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿وَلَا تَطْعَمِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾؛ أي: فِي كُلِّ أَمْرٍ يَصُدُّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَكِنْ لَا يَقْتَضِي هَذَا أَذَاهُمْ، بَلْ لَا تُطْعِمُهُمْ، ﴿وَدَخَّ أَذَاهُمْ﴾: فَإِنَّ ذَلِكَ جَالِبٌ لَهُمْ وَدَاعٌ إِلَى قَبُولِ الْإِسْلَامِ وَإِلَى كَفِّ كَثِيرٍ مِنْ أَذْيَتِهِمْ لَهُ وَآهْلِهِ، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾: فِي إِتْمَامِ أَمْرِكَ وَخِذْلَانِ عَدُوِّكَ، ﴿وَكْفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: تَوَكَّلْ إِلَيْهِ الْأُمُورَ الْمَهْمَةَ، فَيَقُومُ بِهَا وَيَسْهِّلُهَا عَلَى عَبْدِهِ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْدُوْنَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿٤٩﴾ يخبر تعالى المؤمنين أنهم إذا نكحوا المؤمنات ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن؛ فليس عليهن في ذلك عدة يعتد بها أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعهن بهذه الحالة بشيء من متاع الدنيا الذي يكون فيه جبر لخواتمهن لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جميلاً من غير مخاصمة ولا مشامة ولا مطالبية ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها أو علق طلاقها على نكاحها؛ لم يقع؛ لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾، فجعل الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له. وإذا

كان الطلاق الذي هو فرقة تامّة وتحريم تام لا يقع قبل النكاح؛ فالتحريم ناقص لظهار أو إيلاء ونحوه من باب أولى وأحرى أن لا يقع قبل النكاح؛ كما هو أصح قولي العلماء.

[ويدل] على جواز الطلاق لأنّ الله أخبر به عن المؤمنين على وجه لم يلهم عليه، ولم يؤت بهم مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل الميسيس؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾.

وعلى أنّ المطلقة قبل الدخول لا عدّة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج حيث لا مانع.

وعلى أنّ عليها العدّة بعد الدخول. وهل المراد بالدخول والميسيس الوطء كما هو مجمع عليه أو وكذلك الخلوة ولو لم يحصل معها وطء كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح؛ فمتى^(١) دخل عليها وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدّة.

وعلى أنّ المطلقة قبل الميسيس تمتع على الموسع قدره وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر؛ فإن كان لها مهر مفروض؛ فإنه إذا طلق قبل الدخول؛ تنصّف المهر، وكفى عن المتعة.

وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده أن يكون الفراق جميلاً يحمّد فيه كلّ منهما الآخر، ولا يكون غير جميل؛ فإن في ذلك من الشر المترتب عليه من قبح كلّ منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدّة حقّ للزوج؛ لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾: دلّ مفهومه أنه لو طلقها بعد الميسيس؛ كان له عليها عدة.

وعلى أنّ المفارقة بالوفاة تعتدّ مطلقاً؛ لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ...﴾ الآية. وعلى أنّ من عدا غير المدخول بها من المفارقات من الزوجات بموت أو حياة عليهنّ العدّة.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَطْلَقْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ النَّبِيُّءَاتِيَتْ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ

(١) في (ب): «فمن».

اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ عَمَّتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأَمْرَةً
مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ
عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ
وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ .

﴿٥٠﴾ يقول تعالى ممتثلاً على رسوله بإحلاله له ما أحلّ مما يشترك هو
والمؤمنون وما ينفردُ به ويختصُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ
أَجُورَهُنَّ﴾؛ أي: أعطيتهنَّ مهورهنَّ من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه
وبين المؤمنين؛ فإنَّ المؤمنين كذلك يباح لهم منَّ^(١) آتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ مِنَ الْأَزْوَاجِ .
﴿و﴾ كذلك أحللنا لك ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾؛ أي: الإماء التي ملكت، ﴿مِمَّا
أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾: من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهنَّ زوجٌ منهم ومن
لا زوجَ لهن، وهذا أيضاً مشترك، وكذلك من المشترك قوله: ﴿وَبَنَاتٍ عَمَّكَ وَبَنَاتٍ
عَمَاتِكَ وَبَنَاتٍ خَالَكَ وَبَنَاتٍ خَالَاتِكَ﴾: شمل العمَّ والعمَّة والخال والخالة القرييين
والبعيدين، وهذا حصرُ المحللات، يؤخذ من مفهومه أنَّ ما عداهنَّ من الأقارب
غير محلل؛ كما تقدَّم في سورة النساء؛ فإنه لا يُباح من الأقارب من النساء غير
هؤلاء الأربع، وما عداهنَّ من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم،
وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه؛ فإنه لا يُباح.

وقوله: ﴿اللَّاتِي هَاجَرْنَ [مَعَكَ]﴾: قيَّدَ لحلَّ هؤلاء للرسول؛ كما هو الصواب
من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام؛ فقد علم أنَّ هذا
قيد لغير الصَّحَّة. ﴿و﴾ أحللنا لك ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾: بمجرد
هبتها نفسها، ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾؛ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة،
﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ يعني: إباحة الموهوبة^(٢)، وأما المؤمنون؛ فلا
يحلُّ لهم أن يتزوجوا امرأةً بمجرد هبتها نفسها لهم. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي
أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾؛ أي: قد علمنا ما على المؤمنين وما يحلُّ لهم وما
لا يحلُّ من الزوجات وملك اليمين، وقد أعلمناهم بذلك، وبيئنا فرائضه فما في
هذه الآية مما يخالف ذلك؛ فإنه خاصُّ لك؛ لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده
بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ...﴾ إلى آخر الآية.

(٢) في (ب): «الموهبة».

(١) في (ب): «ما».

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾: وأبخنا لك يا أيها النبي ما لم نُبِح لهم، ووسَّغنا عليك ما لم نوسِّغ على غيرك؛ ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾: وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾؛ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ تَشَاءُ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مَعَنَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقْرَءَ آيَاتِهِنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَبِرِضَتِكَ بِمَا آتَيْنَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

﴿٥١﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك؛ فهو تبرع منه، ومع ذلك؛ فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم! هذا قسمي فيما أملك؛ فلا تلمني فيما لا أملك»^(١)، فقال هنا: ﴿تُرْجَى مِنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾؛ أي: تؤخر من أردت من زوجاتك، فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾؛ أي: تضمها وتبيت عندها، ﴿ومع ذلك؛ لا يتعین هذا الأمر. فمن ابتغيت﴾؛ أي: أن تؤويها، ﴿فلا جناح عليك﴾: والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله. وقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء؛ أي: إن شاء؛ قبل من وهبت نفسها له، وإن شاء؛ لم يقبلها. والله أعلم.

ثم بين الحكمة في ذلك، فقال: ﴿ذلك﴾؛ أي: التوسعة عليك وكون الأمر راجعاً إليك وبيدك وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك؛ ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزنن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾: لعلمهن أنك لم تترك واجباً ولم تفرط في حق لازم، ﴿والله يعلم ما في قلوبكم﴾؛ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة وعند المزاحمة في الحقوق؛ فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله؛ لتطمئن قلوب زوجاتك، ﴿وكان الله عليماً حلماً﴾؛ أي: واسع العلم، كثير

(١) أخرجه أحمد (١٤٤/٦)، وأبو داود (٢١٣٤)، وابن ماجه (١٩٧١)، والنسائي (٦٤/٧)، والترمذي (١١٤٠)، وابن حبان (٥/١٠)، والحاكم (١٨٢/٢)، وصححه ووافقه الذهبي، واختلف في وصله وإرساله، وانظر: «الأرواء» (٢٠١٨).

الحلم، ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم وأكثر لأجوركم، ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حَسَنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٥٢﴾ وهذا شكر من الله الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ أن رجمهن وقصر رسوله عليهن، فقال: ﴿لا يحل لك النساء من بعد﴾: زوجات الموجودات، ﴿ولا أن تبدل بهن من أزواج﴾؛ أي: ولا أن تطلق بعضهن فتأخذ بدلها، فحصل بهذا أمنهن من الضرائر ومن الطلاق؛ لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة، ﴿ولو أعجبك حسنهن﴾؛ أي: حسن غيرهن؛ فلا يخللن لك، ﴿إلا ما ملكت يمينك﴾؛ أي: السراري؛ فذلك جائز لك؛ لأن المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات. ﴿وكان الله على كل شيء رقيباً﴾؛ أي: مراقباً للأمور وعالماً بما إليه تؤول وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام وأحسن إحكام.

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير نظيرين إنه ولكن إذا دُعيتُم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي، منكم والله لا يستحي، من الحي وإذا سألتوهن متعاً فسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجهم من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴿٥٣﴾ إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ﴿٥٤﴾﴾.

﴿٥٣﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالتأدب مع رسول الله ﷺ في دخول بيوتيه، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام﴾؛ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام، وأيضاً لا تكونوا ﴿ناظرين إنه﴾؛ أي: منتظرين ومتأنين لانتظار نضجه أو سعة صدر بعد الفراغ منه. والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿ولكن إذا دُعيتُم فادخلوا فإذا طعمتم

فانتشروا ولا مُستأنسينَ لحديثٍ ﴿٥١﴾؛ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بيّن حكمة النهي وفائدته، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾؛ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾؛ أي: يتكلّف منه ويشقّ عليه حبسكم إيّاه عن شؤون بيته وأشغاله فيه، ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾: أن يقول لكم: اخرجوا! كما هو جاري العادة أن الناس - خصوصاً أهل الكرم منهم - يستخيون أن يُخرجوا الناس من مساكنهم، ﴿وَ﴾ لكن ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾: فالأمر الشرعي، ولو كان يُتَوَهَّم أن في تركه أدباً وحياءً؛ فإن^(١) الحزم كلّ الحزم أتباع الأمر الشرعي، وأن يجزّم أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء، والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم والرفق لرسوله كائناً ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوته، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته؛ فإنه: إمّا أن يحتاج إلى ذلك، أو لا يحتاج إليه؛ فإن لم يحتج إليه؛ فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كأن يسألهنّ متاعاً أو غيره من أواني البيت أو نحوها؛ فإنهنّ يُسألنّ ﴿من وراء حجاب﴾؛ أي: يكون بينكم وبينهنّ سترٌ يستر عن النظر؛ لعدم الحاجة إليه، فصار النظر إليهنّ ممنوعاً بكلّ حال، وكلامهنّ فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطَهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾؛ لأنه أبعّد عن الريّة، وكلّما بعّد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشرّ؛ فإنه أسلم له وأطهر لقلبه؛ فلهذا من الأمور الشرعيّة التي بيّن الله كثيراً من تفاصيلها أن جميع وسائل الشرّ وأسبابه ومقدّماته ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكلّ طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾: يا معشر المؤمنين؛ أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء، ﴿أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾؛ أي: أذية قولية أو فعلية بجميع ما يتعلّق به، ﴿وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَانًا﴾: هذا من جملة ما يؤذيه؛ فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته بعده مخلّ بهذا المقام، وأيضاً؛ فإنهنّ زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجيّة باقية بعد موته؛ فلذلك لا يحلّ نكاح زوجاته بعده لأحدٍ من أمته. ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً﴾: وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، ولله الحمد والشكر.

(١) في (ب): «فإنه».

﴿٥٤﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا﴾؛ أي: تظهروه، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾: يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه؛ فيجازيكم عليه.

﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا إِسَائِيهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَتْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾.

﴿٥٥﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً لكل أحد؛ احتيج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لا جناح عليهن﴾ في عدم الاحتجاب عنهم، ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال؛ لأنهن إذا لم يحتجبن عنهن من عمات وخالاته من أبناء الإخوة والأخوات مع رفعتهن عليهم؛ فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى المصرحة بذكر العم والخال مقدمة على ما يفهم من هذه الآية، وقوله: ﴿ولا نساءهن﴾؛ أي: لا جناح عليهن أن لا يحتجبن عن نساءهن؛ أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء؛ فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة، ﴿ولا ما ملكت أيمانهن﴾: ما دام العبد في ملكها جميعه، ولما رفع الجناح عن هؤلاء؛ شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في ذلك محذور شرعي، فقال: ﴿وأتقين الله﴾؛ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال. ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾: يشهد أعمال العباد ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم؛ ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿٥٦﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته وعلو منزلته عند الله وعند خلقه ورفع ذكره، و﴿إن الله﴾ تعالى ﴿وملائكته يصلون﴾ عليه؛ أي: ينسئ الله عليه بين الملائكة وفي الملائكة وفي الأعلى لمحبتة تعالى له، ويُنسئ عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون. ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾: اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم. وتكفيراً من سيئاتكم، وأفضل هيات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما علم به أصحابه: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد^(١). وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبته كثير من العلماء في الصلاة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾
وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

﴿٥٧ - ٥٨﴾ لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ والصلاة والسلام عليه؛ نهى عن أذيته، وتوعد عليها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: وهذا يشمل كل أذية قولية أو فعلية من سب وشتم أو تنقص له أو لدينه أو ما يعود إليه بالأذى، ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾؛ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم في الدنيا أنه يتحتم^(٢) قتل من شتم الرسول وآذاه، ﴿وَالْآخِرَةَ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّبِينًا﴾^(٣): جزاء له على أذاه أن يؤذى بالعذاب [الأيام]^(٤)، فأذية الرسول ليست كأذية غيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمن العبد بالله حتى يؤمن برسوله، وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره، وإن كان أذية المؤمنين عظيمة وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا﴾؛ أي: بغير جناية منهم موجبة للأذى، ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾: على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾: حيث آذوهم بغير سب، ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾: حيث تعدوا عليهم وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها، ولهذا كان سب آحاد المؤمنين موجباً للتعزير بحسب حالته وعلو مرتبته؛ فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿يَأْتِيهَا النَّارُ قُلُوبًا لَّازِقَاتٍ لِّالَّذِينَ كَفَرُوا وَلِلسَّيِّئِينَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ عَلَى اللَّهِ أَهْلٌ عَدُوٌّ ﴿٥٩﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٠﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦١﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٢﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٣﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٤﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٥﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٦﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٧﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٨﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٦٩﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٠﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧١﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٢﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٣﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٤﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٥﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٦﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٧﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٨﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٧٩﴾﴾
﴿لَنْ يَنْصُرَكَ اللَّهُ جُنُودًا رَجِيمًا ﴿٨٠﴾﴾

(١) أخرجه البخاري (٦٣٥٧)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عجرة. وانظر «جلاء الأنفهام»

لابن القيم.

(٢) في (ب): «يتحتم».

(٣) في النسختين: «الأيما».

(٤) كذا في النسختين.

آيِنَا تُقْفُوا أُخْدُوا وَقْتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ .

﴿٥٩﴾ هذه الآية هي التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته - لأنهن أكد من غيرهن، ولأن^(١) الأمر لغيره ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾. ﴿أن يُذَنِّبَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ﴾: وهن اللاتي يكنن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه؛ أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن، ثم ذكر حكمة ذلك، فقال: ﴿ذلك أدنى أن يُعْرَفَنَّ فلا يُؤْذِنَنَّ﴾: دل على وجود أدية إن لم يحتججن، وذلك لأنهن إذا لم يحتججن، ربما ظنَّ أنهنَّ غير عفيفات، فيتعرض لهنَّ من في قلبه مرض، فيؤذيهنَّ، وربما استهين بهنَّ، وظنَّ أنهنَّ إماء، فتهاون بهنَّ من يريد الشر؛ فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهنَّ. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾: حيث غفر لكم ما سلف ورجمكم بأن بين لكم الأحكام وأوضح الحلال والحرام؛ فهذا سدُّ للباب من جهتهنَّ.

﴿٦٠ - ٦١﴾ وأما من جهة أهل الشر؛ فقد توعددهم بقوله: ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ﴾؛ أي: مرض شك أو شهوة، ﴿والمرجفون في المدينة﴾؛ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المتحدثون^(٢) بكثرتهم وقوتهم وضعف المسلمين، ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه؛ ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة. وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَتُعْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾؛ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك؛ لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾؛ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً؛ بأن تقتلهم أو تفتيهم، وهذا فيه دليل لنفي أهل الشر الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين؛ فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿ملمونين إنما تُقْفُوا أُخْدُوا وَقْتَلُوا تَقْتِيلًا﴾؛ أي: مبعدين حيث^(٣)

(٢) في (ب): «المحدثون».

(١) في (ب): «ولأنه».

(٣) في (ب): «أين».

وُجِدُوا، لا يحصلُ لهم أمنٌ، ولا يقرُّ^(١) لهم قرارٌ، يخشون أن يُقتلوا أو يُحبسوا أو يعاقبوا.

﴿٦٢﴾ ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾: أَنْ مَنْ تَمَادَى فِي الْعَصِيانِ وَتَجَرَأَ عَلَى الْأَذَى وَلَمْ يَنْتَهَ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ يَعَاقِبُ عَقُوبَةً بَلِيغَةً، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ أَي: تَغْيِيرًا، بَلِ سُنَّتِهِ تَعَالَى وَعَادَتُهُ جَارِيَةٌ مَعَ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَةِ لِأَسْبَابِهَا.

﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَهُمْ مِنْ عَذَابِ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

﴿٦٣﴾ أَي: يَسْتَخْبِرُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ اسْتِعْجَالًا لَهَا، وَبَعْضُهُمْ تَكْذِيبًا لَوْ قَوَّعَهَا وَتَعْجِيزًا لِلَّذِي أَخْبَرَ بِهَا، ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾؛ أَي: لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ؛ فَلَيْسَ لِي وَلَا لِغَيْرِي بِهَا عِلْمٌ، وَمَعَ هَذَا؛ فَلَا^(٢) تَسْتَبْطِئُوهَا، ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ وَمَجْرَدُ مَجِيءِ السَّاعَةِ قَرِيبًا وَبَعْدًا لَيْسَ تَحْتَهُ نَتِيجَةٌ وَلَا فَائِدَةٌ، وَإِنَّمَا النَتِيجَةُ وَالْخَسَارُ وَالرِّيحُ وَالشَّقَاوَةُ^(٣) وَالسَّعَادَةُ: هَلِ يَسْتَحِقُّ الْعَبْدُ الْعَذَابَ أَوْ يَسْتَحِقُّ الشَّوَابَ؛ فَهَذِهِ سَاخِرُكُمْ بِهَا وَأَصْفُ لَكُمْ مَسْتَحِقَّهَا، فَوَصَفَ مَسْتَحِقَّ الْعَذَابِ وَوَصَفَ الْعَذَابَ؛ لِأَنَّ الْوَصْفَ الْمَذْكُورَ مَنْطَبَقٌ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالسَّاعَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾؛ أَي: الَّذِينَ صَارَ الْكُفْرُ دَابَّهُمْ وَطَرِيقَتَهُمُ الْكُفْرَ بِاللَّهِ وَبِرُسُلِهِ وَبِمَا جَاؤُوا بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَبْعَدَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَكَفَى بِذَلِكَ عِقَابًا، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾؛ أَي: نَارًا مَوْقِدَةً تُسَعَّرُ فِي أَجْسَامِهِمْ، وَيَبْلُغُ الْعَذَابَ إِلَى أَفْتَدَتِهِمْ، وَيَخْلُدُونَ فِي ذَلِكَ الْعَذَابِ الشَّدِيدِ، فَلَا يَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَلَا يُقْتَرُّ عَنْهُمْ سَاعَةٌ، ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لَهُمْ ﴿وَلِيًّا﴾: فَيُعْطِيهِمْ مَا طَلَبُوهُ ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: يَدْفَعُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ، بَلِ قَدْ تَخَلَّى عَنْهُمْ الْعَلِيِّ النَّصِيرِ وَأَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُ السَّعِيرِ، وَبَلَغَ مِنْهُمْ مَبْلَغًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾: فَيَذُوقُونَ

(٢) في (ب): «قد تستبطئونها».

(١) في (ب): «ولا يقرُّ».

(٣) في (ب): «والشقا».

حرّها، ويشتدّ عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا. و ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾: فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب، ولكن أمنية فات وقتها، فلم تقدمهم إلا حسرةً وندماً وهماً وغماً وأماً.

﴿٦٧﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا: وقلدناهم على ضلالهم، فأضلّونا السبيلاً؛ كقوله تعالى: ﴿ويوم يعضّ الظالم على يديه يقول يا ليتني اتّخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً. لقد أضلني عن الذكر [بعد إذ جاءني]... الآية.

﴿٦٨﴾ ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب؛ أرادوا أن يشفوا ممن أضلّوهم، فقالوا: ﴿ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾: فيقول الله ﴿لكل ضعف﴾: فكلكم اشتركم في الكفر والمعاصي، فتشركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَرُوا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ اللَّهُ وَجِيهاً﴾.

﴿٦٩﴾ يحذّر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ النبي الكريم الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضدّ ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آدّوا موسى بن عمران كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية؛ أي: أظهر الله لهم براءته، والحال أنه عليه الصلاة والسلام ليس محلّ التهمة والأذية؛ فإنّه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباد الله^(١) المخلصين، فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره. فاحذروا أيها المؤمنون أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل عن موسى^(٢) لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: إنّه ما يمنعه من ذلك إلا أنّه آدر؛ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففرّ الحجر بثوبه، فأهوى موسى عليه السلام في طلبه، فمرّ به على مجالس بني إسرائيل، فأروه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به^(٣).

(١) في (ب): «عباده».

(٢) في (ب): «الموسى».

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٠٤)، ومسلم (٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٥﴾ يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٦﴾﴾

﴿٧٥﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه في جميع أحوالهم في السر والعلانية، ويخص منها ويندب للقول السديد، وهو القول الموافق للصواب أو المقارب له عند تعذر اليقين من قراءة وذكر وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر وتعلم علم وتعليمه والحرص على إصابة الصواب في المسائل العلمية وسلوك كل طريق موصل لذلك وكل وسيلة تُعين عليه. ومن القول السديد لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام والقول المتضمن للتصح والإشارة بما هو الأصح.

﴿٧٦﴾ ثم ذَكَرَ ما يترتب على تقواه وقول القول السديد، فقال: ﴿يُضْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾؛ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى تُتَقَبَّلُ به الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾: ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويُضْلِحُ الله الأعمال أيضاً بحفظها عما يُفْسِدُها وحفظ ثوابها ومضاعفته؛ كما أن الإخلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها وعدم ترتب آثارها عليها، ﴿ويَغْفِرْ لَكُمْ﴾: أيضاً ﴿ذُنُوبِكُمْ﴾: التي هي السبب في هلاككم؛ فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنَّا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِعَذِبِ اللَّهِ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

﴿٧٢﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر واجتناب المنحارم في حال السر والخفية كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة السماوات والأرض والجبال عرض تخيير لا تحميم، وأنك إن قمت بها وأدبيتها على وجهها؛ فلك الثواب، وإن لم تقومي بها ولم تؤدبها؛ فعليك العقاب، ﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾؛ أي: خوفاً أن لا يقمن بما حملن، لا عصياناً لرؤهن ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

﴿٧٣﴾ فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه إلى ثلاثة أقسام: منافقون

[أظهروا أنهم] قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون قائمون بها ظاهراً وباطناً. فذكرَ الله تعالى أعمالَ هذه الأقسام الثلاثة وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾: فله تعالى الحمدُ حيث حَتَمَ هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين الدالّين على تمام مغفرة الله وسعة رحمته وعموم جوده، مع أنّ المحكوم عليهم كثيرٌ، منهم لم يستحقّ المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.



تفسير سورة سبأ

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْأْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿الحمدُ﴾: الشناء بالصفات الحميدة والأفعال الحسنة؛ فله تعالى الحمد؛ لأنّ جميع صفاته يُحمد عليها لكونها صفات كمال، وأفعاله يُحمد عليها لأنّها دائرة بين الفضل الذي يُحمد عليه ويُشكر، والعدل الذي يُحمد عليه ويُعترف بحكمته فيه. وحمدَ نفسه هنا على أنّ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾: مُلكاً وعبيداً يتصرّف فيهم بحمده. ﴿وله الحمدُ في الآخرة﴾: لأنّ في الآخرة يظهر من حمده والشناء عليه ما لا يكون في الدنيا؛ فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه؛ حمدوه كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب؛ ما دخلوا النار إلاّ وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأنّ هذا من جزاء أعمالهم، وأنّه عادلٌ في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب؛ فذلك شيء قد تواردت به الأخبار وتوافق عليه الدليل السمعى والعقلى؛ فإنّهم في الجنة يرون من توالي نعم الله

وإدراج خيره وكثرة بركاته وسعة عطاياه التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة إلا وقد أعطي فوق ما تمثى وأراد، بل يُعْطُونَ من الخير ما لم تتعلّق به أمانيتهم ولم يخْطُرْ بقلوبهم؛ فما ظنك بحمديهم لرّبهم في هذه الحال مع أنّ في الجنة تضمحلّ العوارض والقواطع التي تقطع عن معرفة الله ومحبيّه والثناء عليه، ويكون ذلك أحبّ إلى أهلها من كلّ نعيم وألذّ عليهم من كلّ لذّة؟! ولهذا؛ إذا رأوا الله تعالى وسمعوا كلامه عند خطابه لهم؛ أذهلهم ذلك عن كلّ نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالتنفس متواصلًا في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنّه يظهر لأهل الجنة في الجنة كلّ وقت من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه. ﴿وهو الحكيم﴾: في ملكه وتدييره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾: المطلع على سرائر الأمور وخفاياها.

﴿٢﴾ ولهذا فصلّ علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾؛ أي: من مطر وينزل وحيوان، ﴿وما يخرج منها﴾: من أنواع النباتات وأصناف الحيوانات، ﴿وما ينزل من السماء﴾: من الأملاك والأرزاق والأقدار، ﴿وما يعرج فيها﴾: من الملائكة والأرواح وغير ذلك. ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها وعلمه بأحوالها؛ ذكر مغفرتة ورحمته لها، فقال: ﴿وهو الرحيم الغفور﴾؛ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آتاؤها تنزل على العباد^(١) كلّ وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَلَىٰ الْغَيْبِ لَا يُعْرَبُ عَنْهُ يُثْقَلُ ذَرَّةً فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجَزٍ أَلِيمٍ ﴿٥﴾﴾.

﴿٣﴾ لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به؛ ذكر أنّ من أصناف الناس طائفة لم تُقدّر ربها حقّ قدره، ولم تعظّمه حق عظمته، بل كفروا به وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾؛ أي: بالله ويرسله وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾؛ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا

(١) في (ب): «عباده».

نموت ونحيا! فأمر الله رسوله أن يردّ قولهم ويُبَيِّنْهُ وَيَقْسِمَ عَلَى الْبَعْثِ وَأَنَّهُ سَيَأْتِيهِمْ، واستدلَّ على ذلك بدليل مَنْ أَقْرَبَ بِهِ؛ لزمه أن يصدّق بالبعث ضرورةً، وهو علمه تعالى الواسعُ العامُّ، فقال: ﴿عالم الغيب﴾؛ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا؛ فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يعزّب﴾؛ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها، ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: قد أحاط به علمه وجرى به قلمه وتضمّنه الكتابُ المبيّنُ الذي هو اللوحُ المحفوظ.

فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تَنَقَّصُ الْأَرْضُ مِنَ الْأَمْوَاتِ وما يبقى من أجسادهم؛ قادرٌ على بعثهم من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

﴿٤﴾ ثم ذكر المقصودَ من البعث، فقال: ﴿ليجزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: بقلوبهم صدّقوا الله، وصدّقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾: تصديقاً لإيمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾: لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم يندفع بها كلُّ شرٍّ وعقابٍ، ﴿ورزق كريم﴾: بإحسانهم، يحصل لهم به كلُّ مطلوبٍ ومرغوبٍ وأمنية.

﴿٥﴾ ﴿والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾؛ أي: سعوا فيها كفرأ بها وتعجيزاً لمن جاء بها وتعجيزاً لمن أنزلها كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز أليم﴾؛ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُبِينٍ﴾
الْحَمِيدُ ﴿٦﴾.

﴿٦﴾ لما ذكر تعالى إنكارَ من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق؛ ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله؛ من الكتاب وما اشتمل عليه من الأخبارِ ﴿هو الحق﴾؛ أي: الحقُّ منحصرٌ فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل؛ لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة

(١) في (ب): «وعلم».

اليقين، ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه؛ ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾: وذلك لأنهم^(١) جزموا بصدق ما أخبر بها من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق مَنْ أخبر بها، ومن جهة موافقتها للأمور الواقعة والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم، ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه، ويرون في الأوامر والنواهي أنها تهدي إلى الصراط المستقيم المتضمن للأمور^(٢) بكل صفة تزكي النفس وتنمي الأجر وتفيد العامل وغيره؛ كالصدق والإخلاص وبر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى عموم الخلق ونحو ذلك، وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك والزنا والربا والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول وأعظم معرفةً بحكم أوامره ونواهيه؛ كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجةً على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين كما في هذه الآية وغيرها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مِّنْكُمْ إِنِّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِنْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن شَاءَ نَحْصِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُلِّ عِبْدٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾﴾

﴿٧﴾ أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾: على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد؛ أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾؛ يعنون بذلك الرجل رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار بزعمهم فرجةً يتفرجون عليه وأعجوبةً يسخرون منه، وأنه كيف يقول: إنكم مبعوثون بعد ما مزقكم البلى وتفرقت أوصالكم، واضمحلّت أعضاؤكم!

﴿٨﴾ فهذا الرجل الذي يأتي بذلك: ﴿على الله كذباً﴾: فتجراً عليه

(٢) في (ب): «للامر».

(١) في (ب): «أنهم».

وقال ما قال، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾: فلا يُستغرب منه؛ فإنَّ الجنون فنونٌ، وكلُّ هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدقُ خلقِ الله وأعقلهم، ومن علمهم أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صدِّ الناس عنه؛ فلو كان كاذباً مجنوناً؛ لم ينبغ لكم يا أهل العقول غير الزاكية أن تُضغوا لما قال ولا تحتفلوا بدعوته؛ فإنَّ المجنون لا ينبغي للعاقل أن يُلفت إليه نظره أو يبلغ قوله منه كلُّ مبلغ، ولولا عنادكم وظلمكم؛ لباذرتم لإجابته ولبيئتم دعوته، ولكن ما تُغني الآيات والتذر عن قوم لا يؤمنون، ولهذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾، ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾؛ أي: في الشقاء العظيم والضلال البعيد الذي ليس بقريب من الصواب، وأيُّ شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسولهم الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأنَّ ما جاؤوا به هو الحقُّ فرأوا الحقَّ باطلاً والباطل والضلال حقاً وهدى؟!

﴿٩﴾ ثم نبههم على الدليل العقلي الدالُّ على عدم استبعاد البعث الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فرأوا من قدرة الله فيهما ما يهزُّ العقول، ومن عظمته ما يذهلُ العلماء الفحول، وأنَّ خلقهما وعظمتهما وما فيهما من المخلوقات أعظمُ من إعادة الناس بعد موتهم من قبورهم؛ فما الحامل لهم على ذلك التكذيب مع التصديق بما هو أكبر منه؟! نعم؛ ذاك خبرٌ غيبيٌّ إلى الآن ما شاهدوه؛ فلذلك كذبوا به. قال الله: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾؛ أي: من العذاب؛ لأنَّ الأرض والسماء تحت تدبيرنا؛ فإنَّ أمرناهما؛ لم يستعصيا؛ فاحذروا إصراركم على تكذيبكم فنعايقكم أشدَّ العقوبة. ﴿إن في ذلك﴾؛ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات ﴿آيةً لكلِّ عبدٍ منيبٍ﴾: فكلُّما كان العبدُ أعظم إنابةً إلى الله؛ كان انتفاعه بالآيات أعظم؛ لأنَّ المنيبَ مقبلٌ إلى ربه، قد توجهت إرادته وهماؤه لربه، ورجع إليه في كلِّ أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له همٌّ إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظراً فكرياً وعبرياً لا نظراً غفلةً غير نافية.

﴿٩﴾ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَالُ آيَاتٍ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَالنَّارَ لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ .

﴿١٠ - ١١﴾ أي: ولقد منّا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع والعمل الصالح والنعم الدنيئة والدنيوية: ومن نعمه عليه:

ما خصّه به من أمره تعالى الجمادات كالجبال والحيوانات من الطيور أن تؤوب معه وتُرَجِّع التسيح بحمد ربّها مجاوية له، وفي هذا من النعمة عليه أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجاوب بتسيح ربّها وتمجيدِه وتكبيره وتحميده؛ كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء أنه طرباً بصوت داود؛ فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رجّع التسيح والتهليل والتمجيد^(١) بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب؛ طرب كل من سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبّحت بحمد ربّها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسيحها، لأنه سبب ذلك، وتسيح تبعاً له.

ومن فضله عليه أن الآن له الحديد؛ ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته؛ بأن يقدره في ﴿السرد﴾؛ أي: يقدره خلقاً ويصنعه كذلك ثم يدخل بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿وعلمناه صنعة لبوس لكم لتخصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾، ولما ذكر ما امتن به عليه وعلى آله؛ أمره بشكره وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات؛ فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليها، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿وَلَسَلِمَنَّ الرِّيحُ عُذُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَّ آمْرًا نُّدْفِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٧﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحْرِبٍ وَتَمْثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتِهِمْ فَلَمَّا خَرَّ تَبَنَّى الْجِنُّ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٩﴾﴾

﴿١٢﴾ لَمَّا ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ ذَكَرَ فَضْلَهُ عَلَى ابْنِهِ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ، وَأَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ وَتَحْمِلُهُ وَتَحْمِلُ جَمِيعَ مَا مَعَهُ وَتَقْطَعُ الْمَسَافَةَ الْبَعِيدَةَ جَدًّا فِي مَدَّةٍ يَسِيرَةٍ، فَتَسِيرُ فِي الْيَوْمِ مَسِيرَةَ شَهْرَيْنِ: ﴿عَدُوُّهَا شَهْرٌ﴾؛ أَي: أَوَّلُ النَّهَارِ إِلَى الزَّوَالِ، ﴿وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ﴾: مِنَ الزَّوَالِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾؛ أَي: سَخَّرْنَا لَهُ عَيْنَ الثُّحَاسِ وَسَهَّلْنَا^(١) لَهُ الْأَسْبَابَ فِي اسْتِخْرَاجِ مَا يُسْتَخْرَجُ مِنْهَا مِنَ الْأَوَانِي وَغَيْرِهَا، وَسَخَّرَ اللَّهُ لَهُ أَيْضًا^(٢) الشَّيَاطِينَ وَالْجِنَّ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْتَعْصُوا^(٣) عَنْ أَمْرِهِ، ﴿وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿١٣﴾ وَأَعْمَالُهُمْ^(٤)؛ كُلُّ مَا شَاءَ سَلِيمَانُ عَمَلُوهُ؛ ﴿مَنْ مَحَارِبٌ﴾: وَهُوَ كُلُّ بِنَاءٍ يُعْقَدُ وَتَحْكَمُ بِهِ الْأَبْنِيَّةُ؛ فَهَذَا فِيهِ ذِكْرُ الْأَبْنِيَّةِ الْفَخْمَةِ. ﴿وَتَمَائِيلٌ﴾؛ أَي: صُورُ الْحَيَوَانَاتِ وَالْجِمَادَاتِ مِنْ إِتْقَانِ صَنَعَتِهِمْ، وَقَدْرَتِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَعَمَلُهُمْ لِسَلِيمَانَ. ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾؛ أَي: كَالْبِرْكَ الْكَبِيرِ يَعْمَلُونَهَا لِسَلِيمَانَ لِلطَّعَامِ؛ لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى مَا لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ. ﴿وَو﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ قَدُورًا ﴿رَاسِيَاتٍ﴾: لَا تَزَالُ^(٥) عَنْ أَمَاكِنِهَا مِنْ عِظْمِهَا، فَلَمَّا ذَكَرَ مِثْلَهُ عَلَيْهِمْ؛ أَمَرَهُمْ بِشُكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ﴾: وَهُمْ دَاوُدُ وَأَوْلَادُهُ وَأَهْلُهُ؛ لِأَنَّ الْمِنَّةَ عَلَى الْجَمِيعِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحِ عَائِدَةٌ لِكُلِّهِمْ ﴿شُكْرًا﴾: لِلَّهِ عَلَى مَا أَعْطَاهُمْ، وَمُقَابِلَةٌ لِمَا أَوْلَاهُمْ. ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾: فَأَكْثَرُهُمْ لَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا أَوْلَاهُمْ مِنْ نِعْمِهِ وَدَفَعَ عَنْهُمْ مِنَ النِّقَمِ. وَالشُّكْرُ: اعْتِرَافُ الْقَلْبِ بِمِنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَلْقِيهَا افْتِقَارًا إِلَيْهَا، وَصَرْفُهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَصَوْنُهَا عَنْ صَرْفِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ.

﴿١٤﴾ فَلَمْ يَزَلِ الشَّيَاطِينُ يَعْمَلُونَ لِسَلِيمَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامُ كُلَّ بِنَاءٍ، وَكَانُوا قَدْ مَوَّهُوا عَلَى الْإِنْسِ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَيَطَّلِعُونَ عَلَى الْمَكْتُونَاتِ، فَأَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُرِيَ الْعِبَادَ كَذِبَهُمْ فِي هَذِهِ الدَّعْوَى، فَمَكَّنُوا يَعْمَلُونَ عَلَى عَمَلِهِمْ، وَقَضَى اللَّهُ الْمَوْتَ عَلَى سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَاتَّكَأَ عَلَى عَصَاهُ، وَهِيَ الْمَنْسَأَةُ، فَصَارُوا إِذَا مَرَوْا بِهِ وَهُوَ مَتَكِيٌّ عَلَيْهَا؛ ظَنُّوهُ حَيًّا وَهَابُوهُ، فَغَدُوا عَلَى عَمَلِهِمْ كَذَلِكَ سَنَةً كَامِلَةً عَلَى مَا قِيلَ، حَتَّى سُلِّطَتْ دَابَّةُ الْأَرْضِ عَلَى عَصَاهُ، فَلَمْ

(٢) فِي (ب): «أَيْضًا لَهُ».

(٤) فِي (ب): «وَأَعْمَالُهُ».

(١) فِي (ب): «سَهَّلْنَا».

(٣) فِي (ب): «لَا يَسْتَعْصُونَ».

(٥) فِي (ب): «لَا تَزُولُ».

تزل ترعاه حتى باد وسقط، فسقط سليمان، وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين: وهو العمل الشاق عليهم؛ فلو علموا الغيب؛ لعلموا موت سليمان الذي هم أحرص شيء عليه لیسلموا مما هم فيه.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَمْ بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبُّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمْطٍ وَأَنْثَىٰ وَنَقَعٍ مِنَ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكُفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قَرْيَ ظَهْرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لِيَالٍ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُم عَلَيْهِمْ مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُّؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّن هُوَ مِنهَا فِي سَكِّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ﴿٢١﴾﴾

﴿١٥ - ١٩﴾ سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها: مأرب، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً وبالعرب خصوصاً أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره؛ ليكون ذلك أدعى إلى التصديق وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾؛ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾: والآية هنا ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسّر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾: وكان لهم وادٍ عظيم تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً يكون مجمعا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتغلل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدتهم بلدة طيبة لحسن هوائها وقلة وخبثها وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَّهُمْ إِنْ شَكَرُوا أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ وَيَرْحَمَهُمْ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أَنَّ اللَّهَ لَمَّا عَلِمَ احتياجهم في تجاراتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها قُرى صنعاء كما قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها الشام؛ - هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة من الأمن وعدم الخوف وتواصل القرى بينهم وبينها؛ بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد، ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾؛ أي: سيراً مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه بحيث لا يتيهون عنه ليالي وأياماً.

﴿آمنين﴾؛ أي: مطمئنين في السير في تلك الليالي والأيام غير خائفين، وهذا من تمام نعمة الله عليهم أَنَّ أُمَّتَهُمْ مِنَ الخوف. فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً. ﴿وظلموا أنفسهم﴾: بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أظعنهم، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها ﴿سبل العرم﴾؛ أي: السبل المتوغر الذي خرب سدّهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتيتهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها. ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنّتهم جنّتين ذواتي أكل﴾؛ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا، ﴿خمط وأثل وشيء من سدر قليل﴾: وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم؛ فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح؛ بدلوا تلك النعمة بما ذكر. ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾؛ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَبَطَرَ النِّعْمَةَ؟! فلما أصابهم ما أصابهم؛ تفرقوا وتمزقوا بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدّث بهم وأسماراً للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ»؛ فكلُّ أحدٍ يتحدّث بما جرى لهم، ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا مَنْ قال الله: ﴿إنَّ في ذلك لآياتٍ لكلِّ صابِرٍ شكورٍ﴾: صابِرٍ على المكاره والشدائد، يتحمّلها لوجه الله، ولا يتسخطها، بل يصبر عليها، شكورٍ لنعمة الله تعالى، يُقرُّ بها، ويعترف، ويشي على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصّتهم وما جرى منهم وعليهم؛ عرّف بذلك أَنَّ تلك العقوبة

جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم؛ ففعل به كما فعل بهم، وأن شكر الله تعالى حافظ للنعمة دافع للنعمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

﴿٢٠﴾ ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدق عليهم إبليس ظنه؛ حيث قال لربه: ﴿فبِعزَّتِكَ لأغويَنَّهُمْ أجمعين. إلاً عبادك منهم المُخلصين﴾: وهذا ظن من إبليس لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب ولم يأتيه خبر من الله أنه سيغويهم أجمعين؛ إلاً من استثنى؛ فهؤلاء وأمثالهم ممن صدق عليه إبليس ظنه ودعاهم وأغواهم، ﴿فاتبِعوه إلاً فريقاً من المؤمنين﴾: ممن لم يكفر بنعمة الله؛ فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس، ويحتمل أن قصة سبأ انتهت عند قوله: ﴿إن في ذلك لآياتٍ لكل صبار شكور﴾. ثم ابتداء فقال: ﴿ولقد صدق عليهم﴾؛ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

﴿٢١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وما كان له﴾؛ أي: لإبليس ﴿عليهم من سلطان﴾؛ أي: تسلط وقهر وقسر على ما يريد منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم؛ ﴿لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾؛ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحاً يثبت عند الامتحان والاختبار والقائه الشبه الشيطانية ممن إيمانه غير ثابت يتزلزل بأدنى شبهة ويزول بأقل داع يدعو إلى ضده؛ فالله تعالى جعله امتحاناً يمتحن به عباده ويظهر الخبيث من الطيب. ﴿وربك على كل شيء حفيظ﴾: يحفظ العباد ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها؛ فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُمْ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول للمشركين بالله غيره من المخلوقات التي لا تنفع ولا تضر ملزماً لهم بعجزها ومبيناً بطلان عبادتها: ﴿ادعوا الذين زعمتهم من دون الله﴾؛ أي: زعمتهم شركاء لله إن كان دعاؤكم ينفع؛ فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز وعدم إجابة الدعاء من كل وجه؛ فإنهم ليس لهم أدنى ملك، فلا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض: على وجه الاستقلال، ولا على

وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وما لهم﴾؛ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فيهما﴾؛ أي: في السماوات والأرض ﴿من شرك﴾؛ أي: لا شرك قليل ولا كثير؛ فليس لهم ملك ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك؛ فقد يكونون أعواناً للمالك ووزراء له؛ فدعاؤهم يكون نافعاً؛ لأنهم بسبب حاجة الملك إليهم يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة، فقال: ﴿وما له﴾؛ أي: لله تعالى الواحد القهار ﴿منهم﴾؛ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿من ظهير﴾؛ أي: معاون ووزير يساعده على الملك والتدبير. فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾: فهذه أنواع التعلقات التي يتعلق بها المشركون بأندادهم وأوثانهم من البشر والشجر والحجر وغيرهم، قطعها الله وبين بطلانها تبييناً حاسماً لمواد الشرك قاطعاً لأصوله؛ لأنَّ المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله؛ لما يرجو منه من النفع؛ فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك؛ فإذا كان من يدعو غير الله لا مالكا للنفع والضر ولا شريكاً للمالك ولا عوناً وظهيراً للمالك ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك؛ كان هذا الدعاء وهذه العبادة ضلالاً في العقل باطلة في الشرع، بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده؛ فإنه يريد منها النفع، فيبين الله بطلانه وعدمه، ويبيّن في آيات آخر ضررها على عابديها^(١)، وأنه يوم القيامة يكفر بعضهم ببعض ويلعن بعضهم بعضاً ومأواهم النار، وإذا حشّر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين.

والعجب أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول بزعمهم أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي بعبادة من ضره أقرب من نفعه طاعة لأعدى عدو له وهو الشيطان!

وقوله: ﴿حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾: يُحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين؛ لأنهم المذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشركين؛ أي: زال الفزع وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل؛ أنهم

(١) في (ب): «ضرره على عابديه».

يَقْرُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالشُّرْكِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ مَا قَالَ اللَّهُ وَأَخْبِرَتْ بِهِ عَنْهُ رِسَالُهُ هُوَ الْحَقُّ، فَبِذَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ، وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ. ﴿وهو العليُّ﴾: بذاته فوق جميع المخلوقات، وقهره لهم وعلو قدره بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار. ﴿الكبير﴾: في ذاته وصفاته، ومن علوه أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، ولهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ سَمِعَتْهُ الْمَلَائِكَةُ فَصَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ؛ فَإِذَا زَالَ الصَّعَقُ عَنْ قُلُوبِ الْمَلَائِكَةِ وَزَالَ الْفَزَعُ، فَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَنْ ذَلِكَ الْكَلَامِ الَّذِي صَعِقُوا مِنْهُ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَالَ الْحَقُّ: إِمَّا إِجْمَالًا لَعَلَّهُمْ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا، وَإِمَّا أَنْ يَقُولُوا: قَالَ كَذَا وَكَذَا^(١)، لِلْكَلامِ الَّذِي سَمِعُوهُ مِنْهُ، وَذَلِكَ مِنَ الْحَقِّ. فَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَى هَذَا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ عَبَدُوا مَعَ اللَّهِ تِلْكَ الْأَلْهَةَ الَّتِي وَصَفْنَا لَكُمْ عَجْزَهَا وَنَقْصَهَا وَعَدَمَ نَفْعِهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ كَيْفَ صَدَفُوا وَصَرَفُوا عَنْ إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لِلرَّبِّ الْعَظِيمِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ الَّذِي مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكِرَامَ وَالْمُقَرَّبِينَ مِنَ الْخَلْقِ يَبْلُغُ بِهِمُ الْخُضُوعَ وَالصَّعَقُ عِنْدَ سَمَاعِ كَلَامِهِ هَذَا الْمَبْلُغَ، وَيَقْرُونَ كُلُّهُمْ لِلَّهِ أَنَّهُ لَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ؛ فَمَا بِالْهُؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ اسْتَكْبَرُوا عَنْ عِبَادَةِ مَنْ هَذَا شَأْنُهُ وَعَظْمَةُ مَلِكِهِ وَسُلْطَانِهِ؟ فَتَعَالَى الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ عَنْ شُرْكِ الْمُشْرِكِينَ وَإِفْكِهِمْ وَكُذِّبِهِمْ.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنشَأُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَحَقَّتْ بِهِمْ شُرْكَاةُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٩﴾﴾

﴿٢٤﴾ يَا مَرْءَ تَعَالَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَقُولَ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَيَسْأَلُهُ عَنْ صِحَّةِ (٢)

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٨٠٠)، و«السنة» لأبي عاصم (٥١٥).

(٢) في (ب): «حجة».

شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾: فَإِنَّهُمْ لَا بَدَّ أَنْ يَقْرُؤُوا أَنَّهُ اللَّهُ، وَلَنْ لَمْ يَقْرُؤُوا؛ وَقَدْ قِيلَ لِلَّهِ: فَإِنَّكَ لَا تَجِدُ مَنْ يَدْفَعُ هَذَا الْقَوْلَ. فَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الَّذِي يَرْزُقْكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيُنْزِلُ لَكُمْ الْمَطَرَ وَيُنْثِيَتْ لَكُمْ النَّبَاتَ وَيَفْجُرُ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَيُطْلِعُ لَكُمْ مِنْ ثَمَارِ الْأَشْجَارِ وَجَعَلَ لَكُمْ الْحَيَوَانَاتِ جَمِيعَهَا لِنَفْعِكُمْ وَرَزَقَكُمْ؛ فَلِمَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ مَنْ لَا يَرْزُقْكُمْ شَيْئاً وَلَا يَفِيدُكُمْ نَفْعاً؟! وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هَدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾؛ أَي: إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ مِنَّا وَمَنْكُم عَلَى الْهَدَىٰ مُسْتَعْلِيَةً عَلَيْهِ، أَوْ فِي ضَلَالٍ بَيِّنٍ مَنْغَمَرَةٌ فِيهِ.

وهذا الكلام يقوله من تبين له الحق واتضح له الصواب وجزم بالحق الذي هو عليه وبطلان ما عليه خصمه؛ أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة عندنا وعندكم ما به يُعْلَمُ علماً يقينياً لا شك فيه من المحق منا ومن المبطل ومن المهتدي ومن الضال، حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه؛ فَإِنَّكَ إِذَا وازنت^(١) بين من يدعو إلى عبادة الخالق لسائر المخلوقات، المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم وأوصل إليهم كل نعمة ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله وكل أحد من الملائكة فمن دونهم خاضعون لهيبته متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه، العليُّ الكبير في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور لا تخلق ولا ترزق ولا تملك لأنفسها ولا لِمَنْ عَبَدَهَا نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته؛ ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم ويتبرؤون منهم ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعَةٌ يستقلون بها دون الله؛ فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده؛ تبين لك^(٢) أي الفريقتين: المهتدي من الضال والشقي من السعيد، ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك؛ لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

(١) فعل الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

(٢) جواب الشرط، كذا في الحاشية بخط المؤلف رحمه الله.

﴿٢٥﴾ ﴿قل﴾ لهم: ﴿لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أُخْرِفْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: كلُّ مئاً ومنكم له عمله، أنتم لا تُسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نُسأل عن أعمالكم؛ فليكن المقصودُ مئاً ومنكم طلبُ الحقائق وسلوكُ طريق الإنصاف، ودَعُوا ما كُنَّا نعملُ، ولا يكن مانعاً لكم من اتِّباع الحقِّ؛ فإنَّ أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويَتَّبَع فيها الحقُّ ويُجْتَنَب الباطلُ، وأما الأعمال؛ فلها دارٌ أخرى يَحْكُمُ فيها أحكمُ الحاكمين، ويفصلُ بين المختصمين أعدلُ العادلين.

﴿٢٦﴾ ولهذا قال: ﴿قل يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾؛ أي: يحكم بيننا حكماً يبيِّن به الصادقُ من الكاذب، والمستحقُّ للثواب من المستحقُّ للعقاب وهو خير الفاتحين.

﴿٢٧﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيها الرسولُ، وَمَنْ نَاب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾؛ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض أم في السماء؟ فإنَّ عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنَّه ليس في الوجود له شريكٌ: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ قل أتنبئون الله بما لا يعلم... ﴿[الآية]﴾، وما يتَّبَع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ إنَّ يتَّبَعون إلا الظنَّ وإنَّ هم إلا يخرُصون، وكذلك خواصُّ خلقه من الأنبياء والمرسلين لا يعلمون له شريكاً؛ فيا أيها المشركون! أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله شركاء! وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾؛ أي: ليس لله شريكٌ ولا ندٌّ ولا ضدٌّ، ﴿بل هو الله﴾: الذي لا يستحقُّ التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾: الذي قهر كلَّ شيء؛ فكلُّ ما سواه فهو مقهورٌ مسخرٌ مدبَّر. ﴿الحكيم﴾: الذي أتقن ما خلَّقه، وأحسن ما شرَّعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنَّه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحبَّ ذلك وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك؛ لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته؛ فكيف وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتملٌ على الحكمة؟!

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(١) في (ب): «يكفي».

﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعْرِفُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِرُونَ ﴿٣٠﴾ .

﴿٢٨﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا ليبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له؛ فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد؛ فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾؛ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهالاً أو معاندون لم^(١) يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول موجباً لرد دعوته.

﴿٢٩﴾ فمما اقترحوه استعجالهم العذاب الذي أنذروهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾: وهذا ظلم منهم؛ فأى ملازمة بين صدق وبين الإخبار بوقت وقوعه؟! وهل هذا إلا رد للحق وسفه في العقل؟! أليس النذير في أمر من أحوال الدنيا لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار يريد اجتياحكم واستئصالكم؛ فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً؛ فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا؟ وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً أم يحكم بسفه وجنونه؟! هذا والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم وقد تنحل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم؛ فكيف بمن كذب أصدق الخلق المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه، أليس رد خبره بحجة عدم بيان وقت وقوعه من أسفه السفه؟!

﴿٣٠﴾ ﴿قل﴾ لهم مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾: فاخذروا ذلك اليوم وأعدوا له عدته.

﴿وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴿٣١﴾ قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن

(١) في (ب): «ولم».

صَدَدْنَاكَ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكَ بَلٌّ كُنْتُمْ تُخْرِمُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلٌّ مَكْرٌ أَلِيلٌ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَلَ فِي آصْنَافِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿٣١﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنت لو رأيت حالهم إذ وقفوا عند ربهم واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال؛ لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع و «يرجع بعضهم إلى بعض القول»، فيقول «الذين استضعفوا»: وهم الأتباع، «للذين استكبروا»: وهم القادة: «لولا أنتم لكنا مؤمنين»: ولكنكم حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، وزيتُم لنا الكفران^(١)، فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿٣٢﴾ «قال الذين استكبروا للذين استضعفوا»: مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: «أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم»: أي: بقوتنا وقهرنا لكم، «بل كنتم مجرمين»: أي: مختارين للإجرام، لسبب مقهورين عليه، وإن كنا قد زيتنا لكم؛ فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿٣٣﴾ فقال «الذين استضعفوا للذين استكبروا بلٌّ مكرٌ الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً»: أي: بل الذي دهانا منكم ووصل إلينا من إضلالكم ما دبّزتموه من المكر في الليل والنهار؛ إذ تحسّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقدحون في الحق، وتهجنونه وتزعمون أنه الباطل؛ فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا حتى أغويتمونا وقتلتمونا. فلم تُفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض والندامة العظيمة، ولهذا قال: «وأسروا الندامة لما رأوا العذاب»: أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم^(٢) لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالمٌ مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، وأنه ترك^(٣) الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرّاً في أنفسهم؛ لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم! وفي بعض مواقف القيامة وعند

(٢) في (ب): «بعضهم على بعض».

(١) في (ب): «الكفر».

(٣) في (ب): «وترك».

دخولهم النار يُظهرون ذلك الندم جهراً: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا...﴾ الآيات، ﴿وقالوا لو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ. فاعترفوا بذنبيهم فسحقاً لأصحاب السَّعِيرِ﴾. ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾: يُغْلَوْنَ كما يُغْلَى المسجون الذي سيهان في سجنه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ...﴾ الآيات. ﴿هل يُجْزَوْنَ﴾: في هذا العذاب والثَّكَالِ وتلك الأغلال الثقال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: من الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرَّبُكُمْ عِنْدَنَا ذُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعِيفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٤﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسول أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى؛ كفر به متترفوها، وأبترتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿٣٥﴾ ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾؛ أي: ممن أتبع الحق، ﴿وما نحن بمُعذَّبين﴾؛ أي: أولاً لسانا بمبعوثين؛ فإن بعثنا؛ فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا؛ سيُعطينا أكثر من ذلك في الآخرة، ولا يعذبنا.

﴿٣٦﴾ فأجابهم الله تعالى بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلاً على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله؛ إن شاء؛ بسطه لعبده، وإن شاء؛ ضيقه.

﴿٣٧﴾ وليست الأموال والأولاد ﴿بالتى﴾ تقرب إلى الله ﴿رُزْقِي﴾؛ وتُذني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى الإيمان بما جاء به المرسلون والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان؛ فإن أولئك^(١) لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً الحسنه بعشر

(١) في (ب): «فأولئك».

أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة لا يعلمها إلا الله. ﴿وهم في العُرفَات آمنون﴾؛ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

﴿٣٨﴾ وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا والتكذيب؛ أولئك في العذاب مُخضرون﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ: وَيَقْدِرُ لَهُ ليرتّب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾: نفقةً واجبةً أو مستحبةً على قريب أو جارٍ أو مسكين أو يتيم أو^(١) غير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يُخْلِقه﴾: فلا تتوهموا أن الإنفاق مما يُنقِصُ الرِّزْقَ، بل وعد بالخلف للمنفق الذي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر. ﴿وهو خيرُ الرازقين﴾: فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿وَيَوْمَ يحشُرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴿٤٠﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجنَّ أكثرهم بهم مؤمنون ﴿٤١﴾ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿٤٢﴾﴾.

﴿٤٠ - ٤١﴾ ﴿ويوم يحشُرهم جميعاً﴾؛ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه من الملائكة، ﴿ثم يقول﴾: الله ﴿للملائكة﴾: على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾؟ فتبرؤوا من عبادتهم ﴿قالوا سبحانك﴾؛ أي: تنزيهاً لك وتقديساً أن يكون لك شريك أو ند، ﴿أنت ولينا من دونهم﴾: فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها؛ فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف نصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء، ولكن هؤلاء المشركون ﴿كانوا يعبدون الجنَّ﴾؛ أي: الشياطين، يأمرونهم^(٢) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك، وطاقته هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة؛ كما قال تعالى مخاطباً لكل من اتخذ معه آلهة: ﴿الم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين. وإن أعبدوني هذا صراط مستقيم﴾. ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾؛ أي: مصدقون للجن متقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

(٢) في (ب): «يأمرن».

(١) في (ب): «أو».

﴿٤٢﴾ فلما تبرؤوا منهم؛ قال تعالى مخاطباً لهم^(١): ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾: تقطعت بينكم الأسباب، وانقطع بعضكم من بعض، ﴿ونقول للذين ظلموا﴾: بالكفر والمعاصي بعدما ندخلهم النار: ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾: فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب من عدم الهرب من أسبابها.

﴿وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آٰتِنَا يَتَّبِعْتِ قَالُوْا مَا هٰذَا اِلَّا رَجُلٌ يَّرِيْدُ اَنْ يَّصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَتْ اٰبَاؤُكُمْ وَقَالُوْا مَا هٰذَا اِلَّا اِنْفَاكٌ مَّفْرُوْٓءٌ وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ اِنْ هٰذَا اِلَّا سِحْرٌ مُّبِيْنٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آٰتَيْنٰهُمْ مِنْ كِتٰبٍ يَّدْرُسُوْنَهَا وَمَا اَرْسَلْنَا اِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيْرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوْا وَعَسَّارٌ مَا آٰتَيْنٰهُمْ فَكَذَّبُوْا رُسُلِيْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيْرٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين عندما تلى عليهم آيات الله البينات وحججه الظاهرات وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم ومئة وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما ينبغي ويكذبون من جاءهم بها ويقولون: ﴿ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم﴾؛ أي: هذا قصده حين يأمركم بالإخلاص لله لتركوا عوائد آباؤكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا^(٢) برهاناً ولا شبهة؛ فأى شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟! وهذه السفاهة ورد الحق بأقوال الضالين إذا تأملت كل حق رد؛ فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين والدّهريين والفلاسفة والصابئين والملحدين في دين الله المارقين؛ فهم أسوء كل من رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آباؤهم وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل؛ طعنوا بعد هذا بالحق، ﴿وقالوا ما هذا إلا إنفاك مفترى﴾؛ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به، ﴿وقال الذين كفروا للحق لَمَّا جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾؛ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد؛ تكذيباً بالحق وترويحاً على السفهاء.

﴿٤٤﴾ ولما بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً أن

(١) في (ب): «قال تعالى لهم».

(٢) في (ب): «ليردوا».

تكون حجة؛ ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم؛ فإنهم لا مستند لهم ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾: حتى تكون عمدة لهم، ﴿وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير﴾: حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله ما يدفعون به ما جئتهم به؛ فليس عندهم علم ولا أثاره من علم.

﴿٤٥﴾ ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين قبلهم، فقال: ﴿وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا﴾؛ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿معشار ما آتيناهم فكذبوا﴾؛ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رسلي فكيف كان نكير﴾؛ أي: إنكاري عليهم وعقوبتي إياهم، قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم من أهلكه بالريح العقيم وبالصيحة وبالرجفة وبالخسف بالأرض وبارسال الحاصب من السماء؛ فاحذروا يا هؤلاء المكذبون أن تدوموا على التكذيب، فياخذكم كما أخذ من قبلكم ويصيبكم ما أصابهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِزْفٍ وَمَا يُنَادِي بِسْمِ اللَّهِ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ لَا يَدْرِي لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَمَ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرْسِي إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٦﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيها الرسول لهؤلاء المكذبين المعاندين المتصددين لرد الحق وتكذيبه والقدح بمن جاء به: ﴿إنما أعظكم بواحدة﴾؛ أي: بخصلة واحدة أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها، وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي: ﴿أن تقوموا لله مثني وفرادى﴾؛ أي: تهضوا بهمة ونشاط وقصد لاتباع الصواب وإخلاص لله مجتمعين ومتباحين في ذلك ومتناظرين وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك؛ فإذا قُمتم لله مثني وفرادى؛ استعملتم فكركم وأجلتموه وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون فيه صفات المجانين من كلامه وهيبته وصفته؟ أم هو نبي صادق منذر لكم ما يضركم مما أمامكم من العذاب الشديد؟ فلو قبلوا هذه الموعظة واستعملوها؛ لتبين لهم أكثر من غيرهم أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون؛ لأن هيبته ليست كهيبات المجانين في خفتهم واختلاجهم ونظرهم، بل هيبته أحسن الهيئات، وحركاته أجل الحركات، وهو أكمل الخلق أدباً وسكينةً وتواضعاً ووقاراً، لا يكون إلا لأرزن الرجال عقلاً.

ثم إذا تأملوا كلامه الفصيح ولفظه المليح وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً وتزكي النفوس وتطهر القلوب وتبعث على مكارم الأخلاق وتحث على محاسن الشيم وترهب عن مساوىء الأخلاق وردائيلها، إذا تكلم؛ رَمَقَتْهُ العيونُ هيبَةً وإجلالاً وتعظيماً؛ فهل هذا يشبه هذيان المجانين وعربدتهنم وكلامهم الذي يشبه أحوالهم؟! فكلُّ من تدبَّر أحواله وقصده استعلام: هل هو رسولُ الله أم لا؟ سواء تفكَّر وحده أم معه غيره؛ جزم بأنه رسولُ الله حقاً ونيه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم، يعرفون أول أمره وآخره.

﴿٤٧﴾ وثم مانعٌ للنفوس آخرٌ عن اتباعِ الداعي إلى الحقِّ، وهو أنه يأخذُ أموالَ مَنْ يستجيبُ له ويأخذُ أجره على دعوته، فيبين الله تعالى نزاهةَ رسوله عن هذا الأمر، فقال: ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ﴾؛ أي: على أتباعكم للحقِّ ﴿فهو لكم﴾؛ أي: فأشهدكم أن ذلك الأجر على التقدير أنه لكم. ﴿إن أجري إلا على الله وهو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ﴾؛ أي: محيطٌ علمه بما أدعو إليه؛ فلو كنتُ كاذباً؛ لأخذني بعقوبته، وشهيدٌ أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم ثم يجازيكم بها.

﴿٤٨﴾ ولما بينَ البراهينَ الدالةَ على صحةِ الحقِّ وبطلانِ الباطل؛ أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن يقدِّف بالحقِّ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهقٌ؛ لأنه بين من الحقِّ في هذا الموضع وردَّ به أقوالَ المكذبين ما كان عبرةً للمعتبرين وأيةً للمتأملين؛ فإنك كما ترى كيف اضمحلت أقوالُ المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحقُّ وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿عَلَامِ الغُيُوبِ﴾، الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب من الوسواس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من الحجج، فيعلم بها عباده، ويبينها لهم.

﴿٤٩﴾ ولهذا قال: ﴿قل جاء الحقُّ﴾؛ أي: ظهر وبان وصار بمنزلة الشمس وظهر سلطانه، ﴿وما يُبدىء الباطل وما يعيدُ﴾؛ أي: اضمحل وبطل أمره وذهب سلطانه؛ فلا يُبدىء ولا يُعيد.

﴿٥٠﴾ ولما تبين الحقُّ بما دعا إليه الرسولُ، وكان المكذَّبونَ له يرمونه بالضلال؛ أخبرهم بالحقِّ، ووضحه لهم وبين لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميهم له بالضلال ليس بضائر الحقِّ شيئاً ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضلَّ - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزُّل في المجادلة -؛ فإنما يضلُّ على نفسه؛ أي: ضلاله قاصرٌ على نفسه، غيرٌ متعدُّ إلى غيره، ﴿وإن اهتديتُ﴾: فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي،

وإنما هدايتي بما ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ رُبِّي﴾: فهو مادة هدايتي؛ كما هو مادة هداية غيري؛ إن رُبِّي سميعٌ للأقوال والأصوات كلها، قريبٌ ممن دعاه وسأله وعبَّده.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فِرَعُوقُ فَلَاحَ قَوْتٍ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَٰمُ التَّنَاقُوشِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿ولو ترى﴾: أيها الرسولُ ومن قام مقامك حال هؤلاء المكذبين ﴿إذ فرعوا﴾: حين رأوا العذاب وما أخبرتهم به الرسلُ وما كذبوا به؛ لرأيتُ أمراً هائلاً ومنظراً مفضعاً وحالةً منكراً وشدةً شديدةً، وذلك حين يحقُّ عليهم العذاب، وليس لهم عنه مهربٌ ولا فوتٌ، ﴿وأخذوا من مكانٍ قريبٍ﴾؛ أي: ليس بعيداً عن محلِّ العذاب، بل يُؤخذون ثم يُقدِّفون في النار.

﴿٥٢﴾ ﴿وقالوا﴾: في تلك الحال: آمنا بالله، وصدقتنا ما به كذبنا، ﴿و﴾ لكن أنى لهم التناقوشُ؟ أي: تناولُ الإيمان، ﴿من مكانٍ بعيدٍ﴾: قد حيلَ بينهم وبينه، وصار من الأمورِ المُحالَةِ في هذه الحالة.

﴿٥٣﴾ فلو أنهم آمنوا وقتَ الإمكان؛ لكان إيمانهم مقبولاً، ولكنهم ﴿كفروا به من قبلُ ويُقدِّفون﴾؛ أي: يرمون ﴿بالغيبِ من مكانٍ بعيدٍ﴾: بقذفهم الباطل ليُدحضوا به الحقُّ، ولكن لا سبيلَ إلى ذلك؛ كما لا سبيلَ للرامي من مكانٍ بعيدٍ إلى إصابةِ الغرضِ؛ فكذلك الباطلُ من المُحالِ أن يغلبَ الحقُّ أو يدفعه، وإنما يكون له صولةٌ وقتَ غفلةِ الحقِّ عنه، فإذا برزَ الحقُّ وقاومَ الباطلُ؛ قمعه.

﴿٥٤﴾ ﴿وحيلَ بينهم وبينَ ما يشتهون﴾: من الشهواتِ واللذاتِ والأولادِ والأموالِ والخدمِ والجنودِ، قد انفردوا بأعمالهم، وجاؤوا فرادى كما خلِّقوا وتركوا ما حوَّلوا وراءَ ظهورهم، ﴿كما فعلَ بأشْياعِهِمْ﴾: من الأممِ السابقين حين جاءهم الهلاكُ وحيلَ بينهم وبينَ ما يشتهون. ﴿إنهم كانوا في شكٍّ مرِيبٍ﴾؛ أي: مُحدثِ الريبةِ وقلقِ القلبِ؛ فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتَبوا حين استغثبوا.

تم تفسير سورة سبأ.

ولله الحمد والمئة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكُّل، وبه الثقة^(١).

(١) في (ب): «والثقة».

تفسير سورة فاطر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ زَيْدٍ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ .

﴿١﴾ يمدح [اللَّهِ] تعالى نفسه الكريمة المقدَّسة على خلقه السماوات والأرض وما اشتمَلتا عليه من المخلوقات؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على كمال قدرته وسعة ملكه وعموم رحمته وبديع حكمته وإحاطة علمه. ولَمَّا ذَكَرَ الخلق؛ ذَكَرَ بعده ما يتضمَّن الأمر، وهو أنه جعل ﴿الملائكة رسلاً﴾: في تدبير أوامره القدرية ووسائط بيته وبين خلقه في تبليغ أوامره الدينية. وفي ذكْرِهِ أَنَّهُ جعل الملائكة رسلاً ولم يستثن منهم أحداً دليلٌ على كمال طاعتهم لربهم وانقيادهم لأمره؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾. ولما كانت الملائكة مدبرَات يَأْذَنُ اللَّهُ مَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ مُوَكَّلِينَ فِيهِ؛ ذَكَرَ قُوَّتَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وسرعة سيرهم؛ بَأَن جَعَلَهُمُ ﴿أُولِي أجنحة﴾: تطير بها فتسرُع بتنفيذ ما أمرت به، ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾؛ أي: منهم من له جناحان وثلاثة وأربعة بحسب ما اقتضته حكمته. ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾؛ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض في صفة خلقها وفي القوة وفي الحسن وفي زيادة الأعضاء المعهودة وفي حسن الأصوات ولذَّة النغمات. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: فقدرته تعالى تأتي على ما يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

﴿٢﴾ ثم ذَكَرَ انفرادة تعالى بالتدبير والعطاء والمنع، فقال: ﴿ما يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ﴾: من رحمته عنهم ﴿فلا مرسل له من بعده﴾: فهذا يوجب التعلُّق باللَّهِ تعالى والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يُدعى إلا هو ولا يُخاف ويُرجى إلا هو. ﴿وهو العزيز﴾: الذي فَهَرَ الأشياءَ كُلَّهَا. ﴿الحكيم﴾: الذي يضع الأشياء مواضعها، ويُنزِلُها منازلها.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا

إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَىٰ تُوَفَّكَونَ ﴿٣﴾ وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾

﴿٣﴾ يأمرُ تعالى جميع الناس أن يذكروا نعمته عليهم، وهذا شاملٌ لذكرها بالقلب اعترافاً وباللسان ثناءً وبالجوارح انقياداً، فإن ذكَّرَ نعيمه تعالى داعٍ لشكركه. ثم نبههم على أصول النعم، وهي الخلق والرزق، فقال: ﴿هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض﴾: ولما كان من المعلوم أنه ليس أحدٌ يخلق ويرزق إلا الله؛ نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لا إله إلا هو فاتى توفكون﴾؛ أي: تُضرفون من عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿٤﴾ ﴿وإن يكذبوك﴾: يا أيها الرسول؛ فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين؛ ﴿فقد كذبت رسل من قبلك﴾: فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم. ﴿والى الله ترجع الأمور﴾.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

﴿٥ - ٦﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن وعد الله: بالبعث والجزاء على الأعمال ﴿حق﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مريبة ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً؛ فتهيؤوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة ولا يقطعكم عن ذلك قاطع. ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾: بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾: الذي هو الشيطان، الذي هو عدوكم في الحقيقة. ﴿فاتخذوه عدوا﴾؛ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربتة كل وقت؛ فإنه يراكم وأنتم لا تروونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد. ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾: هذا غايته ومقصوده ممن تبعه أن يهان غاية الإهانة بالعذاب الشديد.

﴿٧﴾ ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكَّرَ جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين كفروا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل ودلت عليه الكتب ﴿لهم عذاب شديد﴾: في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه،

وَأَنَّهُمْ خَالِدُونَ فِيهَا أَبَدًا، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾: بِقُلُوبِهِمْ بِمَا دَعَا اللَّهُ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ، ﴿وَعَمَلُوا﴾ - بِمَقْتَضَى ذَلِكَ الْإِيمَانِ بِجَوَارِحِهِمْ - الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾: لَذُنُوبِهِمْ، يَزُولُ بِهَا عَنْهُمْ الشَّرُّ وَالْمَكْرُوهُ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾: يَحْضُلُ بِهِ الْمَطْلُوبُ.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ (٨).

﴿٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ﴾: عَمَلُهُ السَّيِّئَ الْقَبِيحَ، زَيَّنَّهُ لَهُ الشَّيْطَانُ وَحَسَّنَهُ فِي عَيْنِهِ^(١)، ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾؛ أَي: كَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَالِدِينَ الْقَوِيمِ؛ فَهَلْ يَسْتَوِي هَذَا وَهَذَا؟! فَالْأَوَّلُ عَمَلُ السَّيِّئِ، وَرَأَى الْحَقَّ بَاطِلًا وَالْبَاطِلَ حَقًّا، وَالثَّانِي عَمَلُ الْحَسَنِ وَرَأَى الْحَقَّ حَقًّا وَالْبَاطِلَ بَاطِلًا، وَلَكِنِ الْهُدَايَةَ وَالْإِضْلَالَ بِيَدِ اللَّهِ تَعَالَى. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أَي: عَلَى الضَّالِّينَ الَّذِينَ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَصَدَّهُمُ الشَّيْطَانُ عَنِ الْحَقِّ ﴿حَسْرَاتٍ﴾: فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَلَيْسَ عَلَيْكَ مِنْ هِدَايِهِمْ شَيْءٌ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا مُسْقِنَةً إِلَى بَلَدٍ مَمِيَّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ (٩).

﴿٩﴾ يَخْبِرُ تَعَالَى عَنِ كَمَالِ اقْتِدَارِهِ وَسَعَةِ جُودِهِ وَأَنَّهُ ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا مُسْقِنَةً إِلَى بَلَدٍ مَمِيَّتٍ﴾: فَأَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا، ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: فَحَيَّتِ الْبِلَادُ وَالْعِبَادُ، وَارْتَزَقَتِ الْحَيَوَانَاتُ، وَرَتَعَتِ فِي تِلْكَ الْخَيْرَاتِ، ﴿كَذَلِكَ﴾: الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا يَنْشُرُ الْأَمْوَاتَ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَمَا مَرَّقَهُمُ الْبَلَاءُ، فَيَسُوقُ إِلَيْهِمْ مَطْرًا كَمَا سَاقَهُ إِلَى الْأَرْضِ الْمَيِّتَةِ، فَيَنْزِلُهُ عَلَيْهِمْ، فَتَحْيَا الْأَجْسَادُ وَالْأَرْوَاحُ مِنَ الْقُبُورِ، فَيَأْتُونَ لِلْقِيَامِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ، لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ وَيَقْضِلَ بِحُكْمِهِ الْعَدْلَ.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (١٠).

﴿١٠﴾ أَي: يَا مَنْ يُرِيدُ الْعِزَّةَ! اظْلُبْنَهَا مِمَّنْ هِيَ بِيَدِهِ؛ فَإِنَّ الْعِزَّةَ بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا

(١) فِي (ب): «عَيْنِهِ».

تُنال إِلَّا بطاعته، وقد ذَكَرَهَا بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾: من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل وكل كلام حسن طَيِّب، فيُرفع إلى الله، ويُعرض عليه، ويُثني الله على صاحبه بين الملائكة الأعلى، ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾: من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾: الله تعالى إليه أيضاً كالكلم الطيب. وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب؛ فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح؛ لم يُزَفَّعْ له قول إلى الله تعالى. فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى وَيُزَفَّعُ اللهُ صَاحِبَهَا وَيَعِزُّهُ، وَأَمَّا السَّيِّئَاتُ؛ فَإِنَّهَا بِالْعَكْسِ، يَرِيدُ صَاحِبَهَا الرِّفْعَةَ بِهَا، وَيَمَكِّرُ وَيَكِيدُ وَيَعُودُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَلَا يَزِدَادُ إِلَّا هَوَانًا وَنَزُولًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: يُهَانُونَ فِيهِ غَايَةَ الْإِهَانَةِ. ﴿وَمَكَّرُ أَوْلَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾؛ أي: يهلك ويضمحل ولا يفيدهم شيئاً؛ لَأَنَّهُ مَكَّرَ بِالْبَاطِلِ لِأَجْلِ الْبَاطِلِ.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿١١﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي وتنقله في هذه الأطوار من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾؛ أي: لم يزل ينقلكم طوراً بعد طور حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً؛ ذكر يتزوج أنثى، ويراد بالزواج الذرية والأولاد؛ فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه؛ فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾: وكذلك أطوار الآدمي كلها بعلمه وقضائه ﴿وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾؛ أي: عمر الذي كان معمراً عمراً طويلاً، ﴿إِلَّا﴾: بعلمه تعالى، أو: وما ينقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر؛ كالزنا وعقوق الوالدين وقطيعة الأرحام ونحو ذلك مما ذُكِرَ أَنَّهَا مِنْ أَسْبَابِ قِصْرِ الْعُمُرِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ طَوْلَ الْعُمُرِ وَقِصْرَهُ بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ سَبَبٍ كُلَّهُ بِعِلْمِهِ تَعَالَى، وَقَدْ أُثْبِتَ ذَلِكَ ﴿فِي كِتَابٍ﴾: حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته. ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه بها.

فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيها سيحيي الموتى. وتنتقل الآدمي في تلك الأطوار، فالذي أوجده وتقله طبقاً بعد طبق وحالاً بعد حال حتى بلغ ما

قَدَّرَ له؛ فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدَرُ، وهو أهونُ عليه. وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم العلوي والسفلي دقيقتها وجليلها، الذي في القلوب، والأجثة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب؛ فالذي كان هذا^(١) يسيراً عليه؛ فإعادته للأموات أيسرُ وأيسرُ. فتبارك من كثرَ خيرُه، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم في معاشهم ومعادهم.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَىٰ أَلْفَاكٌ فِيهِ مَوَازِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنَ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَكَذَّبُوا بِفِئْتِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿١٢﴾ هذا إخبارٌ عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما؛ لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبةً فراتاً سائغاً شرابها؛ لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً؛ لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكنٌ لا يجري؛ فملوحته تمنعه من التغيير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿ومن كل﴾: من البحر الملح والعذب ﴿تأكلون لهما طرياً﴾: وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وتستخرجون حليّة تلبسونها﴾: من لؤلؤ ومرجان وغيره مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضاً والمنافع في البحر أن سخّره الله تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخرُ البحر وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر ومن محل إلى محل، فتحمل الساترين وأنقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وليتبّعوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

﴿١٣﴾ ومن ذلك أيضاً إيلاجه تعالى الليل بالنهار والنهار بالليل؛ يَدْخُلُ هذا على هذا وهذا على هذا، كلما أتى أحدهما؛ ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص

(١) أضاف الشيخ هنا في هامش (أ) و(ب): «نعت» ثم شطب عليها في هامش (أ).

الآخِرُ ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في أبدانهم وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم، وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر من مصالح الضياء والنور والحركة والسكون وانتشار العباد في طلب فضله وما فيهما من توضيح الثمار وتجفيف ما يجفّف^(١) وغير ذلك مما هو من الضروريات التي لو فُقدت؛ لَلْحَقَّ النَّاسُ الضَّرْرُ.

وقوله ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ أي: كلٌّ من الشمس والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا؛ فإذا جاء الأجل وقرب انقضاء الدنيا؛ انقطع سيرهما، وتعطل سلطانهما، وحسف القمر، وكوّرت الشمس، وانتثرت النجوم.

فلما بيّن تعالى ما بيّن من هذه المخلوقات العظيمة وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها هو الربُّ المألوه المعبود الذي له الملك كله. ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: من الأوثان والأصنام، لا يملكون ﴿مَنْ قَطْمِيرٍ﴾؛ أي: لا يملكون شيئاً لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيب النفي وعمومه؛ فكيف يدعون وهم غير مالكين لشيء من ملك السماوات والأرض؟!

﴿١٤﴾ ومع هذا: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾: لا يسمعونكم؛ لأنهم ما بين جماد^(٢) وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿ولو سمعوا﴾: على وجه الفرض والتقدير ﴿ما استجابوا لكم﴾: لأنهم لا يملكون شيئاً ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾؛ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: سبحانك أنت ولينا من دونهم، ﴿ولا يبتك مثل خبير﴾؛ أي: لا أحد يبتك أصدق من الله العليم الخبير؛ فاجزم بأن هذا الأمر الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تمتري. فتضمنت هذه الآيات الأدلة والبراهين الساطعة الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواء، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة باطل لا تفيد عباده شيئاً.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ إِنَّ يَسْأَلُ يَدْبِكُمْ

(١) في (ب): «وتجفيف ما يخفف».

(٢) في (ب): «جمادات».

وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهَيْهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴿

﴿١٥﴾ يخاطبُ تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه: فقراء في إيجادهم؛ فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا، فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها؛ لما استعدوا لأي عمل كان، فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة؛ فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء، فقراء في صرف النقم عنهم ودفع المكارِه وإزالة الكروب والشدائد؛ فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم وإزالته لعسرهم؛ لاستمرت عليهم المكارة والشدائد، فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير، فقراء إليه في تألههم له وحبهم له وتعبدهم وإخلاص العباداة له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك؛ لهلكوا وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم، فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون وعملهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه؛ لم يتعلموا، ولولا توفيقه؛ لم يصلحوا؛ فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له ويسأله أن لا يكفه إلى نفسه طرفة عين وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت؛ فهذا حربي بالإعانة التامة من ربه وإلهه الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿والله هو الغني الحميد﴾؛ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه؛ فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه؛ لأنها حسنى، وأوصافه؛ لكونها عليا، وأفعاله؛ لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه؛ فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه^(١)، وهو الحميد في غناه، الغني في حمده.

(١) «قوله على ما فيه: أي من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعلى الجزء بالعدل»، كذا في هامش نسخة (أ) بخط المؤلف.

﴿١٦﴾ ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾: يُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ: إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِغَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ أَطْوَعَ لِلَّهِ مِنْكُمْ، وَيَكُونُ فِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْهَلَاكِ وَالْإِبَادَةِ، وَأَنْ مَشِيئَتَهُ غَيْرُ قَاصِرَةٍ عَنْ ذَلِكَ. وَيُحْتَمَلُ أَنَّ الْمَرَادَ بِذَلِكَ إِثْبَاتُ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، وَأَنْ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَعَالَى نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَفِي إِعَادَتِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا، وَلَكِنْ لِذَلِكَ الْوَقْتُ أَجَلَ قَدْرِهِ اللَّهُ لَا يَتَقَدَّمُ عَنْهُ وَلَا يَتَأَخَّرُ.

﴿١٧﴾ ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾؛ أَي: بِمَمْتَنِعٍ وَلَا مَعْجِزٍ لَهُ.

﴿١٨﴾ ﴿وَيَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْأَخِيرِ مَا ذَكَرَهُ بَعْدَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾؛ أَي: فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلُّ أَحَدٍ يُجَازَى بِعَمَلِهِ، وَلَا يَحْمَلُ أَحَدٌ ذَنْبَ أَحَدٍ. ﴿وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ نُفْسٍ مُثْقَلَةٍ بِالْخَطَايَا وَالذُّنُوبِ تَسْتَعِيْثُ بِمَنْ يَحْمَلُ عَنْهَا بَعْضَ أَوْزَارِهَا، ﴿لَا يَحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: فَإِنَّهُ لَا يَخْمَلُ عَنْ قَرِيبٍ، فَلَيْسَتْ حَالُ الْآخِرَةِ بِمَنْزِلَةِ حَالِ الدُّنْيَا يَسَاعِدُ الْحَمِيمَ حَمِيمَهُ وَالصَّدِيقُ صَدِيقَهُ، بَلْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَتَمَنَّى الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ لَهُ حَقٌّ عَلَى أَحَدٍ، وَلَوْ عَلَى وَالِدِيهِ وَأَقْرَابِهِ. ﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾؛ أَي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ النَّذَاةَ وَيَتَتَفَعُونَ بِهَا، أَهْلُ الْخَشْيَةِ لِلَّهِ بِالْغَيْبِ. الَّذِينَ^(١) يَخْشَوْنَهُ فِي حَالِ السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْمَشْهَدِ وَالْمَغِيبِ وَأَهْلُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ بِحُدُودِهَا وَشُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَوَاجِبَاتِهَا وَخُشُوعِهَا؛ لِأَنَّ الْخَشْيَةَ لِلَّهِ تَسْتَدْعِي مِنَ الْعَبْدِ الْعَمَلَ بِمَا يَخْشَى مِنْ تَضْيِيعِ الْعِقَابِ وَالْهَرَبِ مِمَّا يَخْشَى مِنْ ارْتِكَابِهِ الْعَذَابِ، وَالصَّلَاةُ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ وَتَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾؛ أَي: وَمَنْ زَكَّىٰ نَفْسَهُ بِالتَّنْفِيهِ مِنَ الْعِيُوبِ كَالرِّبَا وَالْكِبْرِ وَالْكَذْبِ وَالغَشِّ وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالنَّفَاقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّىٰ بِالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ مِنَ الصَّدَقِ وَالْإِحْلَاصِ وَالتَّوَاضُّعِ وَلِينِ الْجَانِبِ وَالتُّصْحِحِ لِلْعِبَادِ وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ مَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ؛ فَإِنَّ تَزَكِّيَتَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيْعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ. ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾: فَيَجَازِي الْخَلَائِقَ عَلَى مَا أَسْلَفُوهُ، وَيَحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا قَدَّمُوهُ وَعَمَلُوهُ، وَلَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُّ وَلَا النُّورُ﴾

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَلَا الْأَمْرُتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٢١﴾﴾

(١) في (ب): «أَي الَّذِينَ».

إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ .

﴿١٩ - ٢٣﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله وفيما أودع في فطر عباده، فلا ﴿يستوي الأعمى﴾: فاقد البصر ﴿والبصير﴾. ولا الظلمات ولا النور. ولا الظل ولا الخرور. وما يستوي الأحياء ولا الأموات؛ فكما أنه من المتقرر عندكم الذي لا يقبل الشك أن هذه المذكورات لا تتساوى؛ فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى؛ فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها؛ فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى. فإذا علمت المراتب وميزت الأشياء وبان الذي ينبغي أن يتناقس في تحصيله من ضده؛ فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحق بالإثارة. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾: سماع فهم وقبول؛ لأنه تعالى هو الهادي الموفق. ﴿وما أنت بمسمع من في القبور﴾؛ أي: أموات القلوب، أو: كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئاً، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئاً، ولكن وظيفة النذارة وإبلاغ ما أرسلت به؛ قبل منك أم لا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾.

﴿٢٤﴾ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾؛ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق؛ لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل وطموس من السبل واندراس من العلم وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين، وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق، ﴿بشيراً﴾: لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل ﴿ونذيراً﴾^(١): لمن عصاك بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بدع من الرسل. فما ﴿من أمة﴾: من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إلا خلا فيها نذير﴾: يقم عليهم حجة الله؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْيُزُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ .

(١) في (ب): «نذيراً».

﴿٢٥﴾ أي: وإن يكذبك أيها الرسول هؤلاء المشركون؛ فلست أول رسول كُذِّبَ، ﴿فقد كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾: الدالّاتِ على الحقِّ وعلى صدقهم فيما أخبروهم به. ﴿وَالزُّبُرِ﴾؛ أي: الكتب المكتوبة المجموع فيها كثير من الأحكام. ﴿وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾؛ أي: المضيء في أخباره الصادقة وأحكامه العادلة، فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئاً عن اشتباه أو قصورٍ بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿٢٦﴾ ثم أخذت الذين كفروا: بأنواع العقوبات ﴿فكيف كان نكير﴾: عليهم؟ كان أشدَّ النكير وأعظم التنكيل؛ فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيكم كما أصاب أولئك من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيُّ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات التي أصلها واحدٌ ومادتها واحدةٌ وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهدٌ معروف؛ ليدلُّ العبادَ على كمال قدرته وبديع حكمته:

﴿٢٧﴾ فمن ذلك أن الله تعالى أنزل من السماء ماءً، فأخرج به من الثمرات المختلفة والنباتات المتنوعات ما هو مشاهدٌ للناظرين، والماء واحدٌ والأرض واحدةٌ. ومن ذلك الجبال التي جعلها الله أوتاداً للأرض؛ تجدها جبالاً مشبكيةً، بل جبلاً واحداً، وفيها ألوان متعددة، فيها ﴿جُدَدٌ بِيضٌ﴾؛ أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفراً وحمراً، وفيها ﴿عَرَبِيُّ سُودٌ﴾؛ أي: شديدة السواد جداً.

﴿٢٨﴾ ومن ذلك الناس والدواب والأنعام؛ فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات ما هو مرئيٌّ بالابصار مشهودٌ للنظار، والكُلُّ من أصل واحدٍ ومادة واحدة، فتفاوتها دليلٌ عقليٌّ على مشيئة الله تعالى التي خصصت ما خصصت منها بلونه ووصفه، وقدرة الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت فيه من المصالح والمنافع ومعرفة الطرق ومعرفة الناس بعضهم بعضاً ما هو معلوم، وذلك أيضاً دليلٌ على سعة علم الله تعالى، وأنه يتبع من في القبور. ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر غفلة لا تحدث

له تذكراً، وإنما ينتفع بها من يخشى الله تعالى ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها، ولهذا قال: ﴿أَتَمَّا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾: فكل من كان بالله أعلم؛ كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله الانكفاف عن المعاصي والاستعداد للقاء مَنْ يَخْشَاهُ، وهذا دليل على فضيلة العلم؛ فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته؛ كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾: كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غَفُورٌ﴾: لذنوب التائبين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾؛ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها وفي نواهيهم فيتركونها وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها، ثم خص من التلاوة بعدما عم الصلاة - التي هي عماد الدين ونور المسلمين وميزان الإيمان وعلامة صدق الإسلام - النفقة^(١) على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات، ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾: في جميع الأوقات؛ ﴿يَرْجُونَ﴾: بذلك ﴿تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾؛ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها ألا وهي رضا ربهم والفوز بجزيل ثوابه والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه الإخلاص^(٢) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

﴿٣٠﴾ ذكر أنهم حصل لهم ما رجوه، فقال: ﴿لِيُوفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾؛ أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها وحسنها وعلوها، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾: زيادة عن أجورهم. ﴿إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾: غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ

(٢) في (ب): «أنهم يخلصون».

(١) في (ب): «والنفقة».

بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

﴿٣١﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾: من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه؛ فلا يكن في قلوبكم حرج منه ولا تتبرموا منه ولا تستهينوا به؛ فإذا كان هو الحق؛ لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها مطابق لما في الواقع؛ فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه. ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾: من الكتب والرسول؛ لأنها أخبرت به، فلما وُجِدَ وظهر؛ ظهر به صدقها؛ فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحداً أن يؤمن بالكتب السابقة وهو كافر بالقرآن أبداً؛ لأن كفره به ينقض إيمانه بها؛ لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن. ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾: فيعطي كل أمة وكل شخص ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول حتى حتمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت، ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً وأحسنهم أفكاراً وأزفهم قلوباً وأزكاهم أنفسهم؛ اصطفاهم تعالى واصطفى لهم دين الإسلام وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب.

﴿٣٢﴾ ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾: وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾: بالمعاصي التي هي دون الكفر، ﴿ومنهم مقتصد﴾: مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم، ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾: أي: سارع فيها، واجتهد فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه؛ فكلهم اصطفاه الله تعالى لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم وتميزت أحوالهم؛ فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه؛ فإن ما معه من أصل الإيمان وعلوم الإيمان وأعمال الإيمان من وراثته الكتاب؛ لأن المراد بوراثته الكتاب وراثته علمه وعمله ودراسة ألفاظه واستخراج معانيه، وقوله:

﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: راجع إلى السابق إلى الخيرات^(١)؛ لثلاً يغترّ بعمله، بل ما سَبَقَ إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته؛ فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه. ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾؛ أي: ورائة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده هو الفضل الكبير الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق وأكبر الفضل ورائة هذا الكتاب.

﴿٣٣﴾ ثم ذكر جزاء الذين أوزنهم كتابه، ﴿جَنَاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾؛ أي: جناتٍ مشتملاتٍ على الأشجار والظّل والظلليل والحدائق الحسنة والأنهار المتدفقة والقصور العالية والمنازل المزخرفة في أبد لا يزول وعيش لا ينفد. والعَدْنُ: الإقامة؛ فجنات عدنٍ؛ أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها، ﴿يُحَلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾: وهو الحلي الذي يجعل في اليدين على ما يحبون ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيَحَلَوْنَ فِيهَا لَوْلُؤًا﴾: يُنظَّم في ثيابهم وأجسادهم، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾: من سندس ومن إستبرق أخضر.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَمَّا تَمَّ نَعِيمُهُمْ وَكَمَلَتْ لَدُنَّهُمْ﴾؛ قالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن: وهذا يشمل كل حزن؛ فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم ولا في طعامهم وشرابهم ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم ولا في دوام لبيهم؛ فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾: حيث غفر لنا الزلات. ﴿شُكُورٌ﴾: حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا. فبمغفرته؛ نَجُوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله؛ حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿٣٥﴾ ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا﴾؛ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبرٍ واعتبار ﴿دَارِ الْمُقَامَةِ﴾؛ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يُرغب في المقام فيها؛ لكثرة خيراتها وتوالي مسراتها وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال بفضله علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولوا فضله؛ لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه، ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾؛ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والثقوى ولا في كثرة التمتع.

(١) في (ب): «بالخيرات».

وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام ما يكونون بهذه الصفة؛ بحيث لا يمسههم نصب ولا لغوب ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائدته زوال التعب وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون. جعلنا الله منهم بمئه وكرمه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿٣٦﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم؛ ذكر حال أهل النار وعذابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسُلهم من الآيات وأنكروا لقاء ربهم، ﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾: يعذبون فيها أشد العذاب وأبلغ العقاب، ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾: بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾: فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾: فشدّة العذاب وعظمته مستمرّ عليهم في جميع الآنات واللحظات. كذلك نجزي كل كافر.

﴿٣٧﴾ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾: فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم ألم: ﴿نُعَمِّرْكُم مَّا﴾؛ أي: دهرًا وعمراً ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ أي: يتمكّن فيه من أراد التذكّر من العمل، متذكّركم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابغنا عليكم الآيات، وواصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء؛ ليُنَبِّئُوا إِلَيْنَا وترجعوا إلينا، فلم ينبغ فيكم إنذار، ولم تُفد فيكم موعظة، وأخزنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على

(١) في (ب): «ومدينا».

الأعمال؛ سألتُم الرجعة! هيهات هيهات! فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتدَّ عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾: ينصُرهم فيُخْرِجُهم منها، أو يخفِّفُ عنهم من عذابها.

﴿١٣﴾ اللَّهُ عَلَيْكُمُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧٨﴾.

﴿٣٨﴾ لَمَّا ذَكَرَ جِزَاءَ أَهْلِ الدَّارَيْنِ، وَذَكَرَ أَعْمَالَ الْفَرِيقَيْنِ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ سَعَةِ عِلْمِهِ تَعَالَى وَأَطْلَاعِهِ عَلَى غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّتِي غَابَتْ عَنْ أَبْصَارِ الْخَلْقِ وَعَنْ عِلْمِهِمْ، وَأَنَّهُ عَالِمٌ بِالسَّرَائِرِ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ الصُّدُورُ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالزَّكَاةِ وَغَيْرِهِ، فَيُعْطِي كَلَّامًا يَسْتَحْفَهُ، وَيَنْزِلُ كُلَّ أَحَدٍ مِنْزِلَتَهُ.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٣٩﴾.

﴿٣٩﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعبادته أنه قدَّر بقضائه السابق أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذير، فينظر كيف يعملون؛ ﴿فمن كفر﴾: بالله وبما جاءت به رسله؛ فإن كفره عليه، وعليه إثم وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفوره إلا مقت رب له وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟! ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾؛ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة؛ فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ لَاتُنزِلُهَا مِنْ سَمَاءٍ غَمَامًا يُنْزِلُ مِنْهَا مَاءً بَارِقًا فَيَنْسِفُ بِهَا السَّانِدَاتِ فَيَذَرُ مِنْهَا بَقَاعًا لِغُلَامٍ يَلْعَبُونَ فَيَجْعَلُ لَهَا فِجَاجًا وَوَعْرًا أَمْ لَهُمْ حُكْمٌ فَلَا يُخَفَّفُونَ عَنْ عِبَادِهِمْ شِوَاهُ الذُّلِّ﴾ ﴿٤٠﴾.

﴿٤٠﴾ يقول تعالى معجزاً لآلهة المشركين ومبيناً نقضها وبطلان شركهم من جميع الوجوه: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرأيتم﴾؛ أي: أخبروني عن شركائكم ﴿الذين تدعون من دون الله﴾: هل هم مستحقون للدعاء والعبادة؟! فأروني ﴿ماذا خلقوا من الأرض﴾: هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا حيواناً أو خلقوا جماداً؟! سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى. أم لشركائكم ﴿شرك في السموات﴾: في خلقها وتديرها؟! سيقولون: ليس لهم شركة! فإذا لم يخلق شيئاً

ولم يَشْرِكُوا الخَالِقَ فِي خَلْقِهِ؛ فلم عبدُتموهم ودعوتوهم مع إقراركم بعجزهم؟! فانتهى الدليل العقلي على صحّة عبادتهم، ودلّ على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً منتف، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا: يتكلّم بما كانوا به يشركون؛ يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾: في شركهم ﴿على بينة﴾: من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك، ليس الأمر كذلك؛ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدّر نزول كتاب إليهم وإرسال رسول إليهم وزعموا أنه أمرهم يشركهم؛ فإننا نجزم بكذبهم؛ لأنّ الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون﴾: فالرسل والكتب كلّها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى: ﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾. فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّا على بطلان الشرك؛ فما الذي حمل المشركين على الشرك وفيهم ذور العقول والذكاء والفتنة؟! أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعبد الظالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً﴾؛ أي: ذلك الذي مشوا عليه ليس لهم فيه حجة، وإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانى مآها الشياطين، وزين لهم سوء أعمالهم^(١)، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُنَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (١).

﴿٤١﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته وتماز رحمته وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى ﴿يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عن الزوال؛ فإنهما لو زالتا؛ ما أمسكهما أحد من الخلق، لعجزت قدرتهم وقواهم عنهما، ولكنّه تعالى قضى أن يكونا كما وجدّا؛ ليحصل للخلق القرائ والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين وعدم معاجلتهم للعاصين، مع أنه لو أمر السماء؛ لخصبتهم، ولو أذن للأرض؛ لابتلعنهم، ولكن وسعتهم مغفرته وحلمه وكرمه. ﴿إنه كان حلماً غفوراً﴾.

(١) في (ب): «وزين لهم أعمالهم».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِمَّنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولِينَ فَلَنْ نَحْدِلَّ إِلَّا تَبْدِيلًا ۗ وَلَنْ نَحْدِلَّ إِلَّا تَبْدِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿٤٢﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذيرٌ ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم﴾؛ أي: أهدى من اليهود والنصارى أهل الكتب، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود، ﴿فلما جاءهم نذيرٌ﴾: لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾: زيادة ضلال وبغي وعناد.

﴿٤٣﴾ وليس إقسامهم المذكور لقصدي حسن وطلبٍ للحق، وإلا؛ لوقفوا له، ولكنه صادرٌ عن استكبارٍ في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا؛ يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق الحريصون على طلبه، فيغتر بهم المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون، ﴿ولا يحيق المكر السيئ﴾: الذي مقصوده مقصود سيئ وماله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إلا بأهله﴾: فمكرهم إنما يعود عليهم. وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحوهم، وردَّ الله كيدهم في صدورهم، فلم يبق لهم إلا انتظار ما يجلب بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تُغيَّر؛ أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد أن تحلَّ به نعمته وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء ما فعل بأولئك.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِيهَا مِن دَابَّةٍ وَلَا كِنَّ يُؤَخِّرُهُمْ إِنَّ أَجَلَ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَأَبَى اللَّهُ كَانَ يَعْجِزُهُ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ .

﴿٤٤﴾ يحضُّ تعالى على السير في الأرض في القلوب والأبدان للاعتبار لا مجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل

وكانوا أكثر منهم أموالاً وأولاداً وأشدَّ قوَّةً وعمروا الأرض أكثر مما عمرها^(١) هؤلاء، فلما جاءهم العذاب؛ لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة الله ومشيتته، ﴿وما كان الله ليُنَجِّزَهُ من شيءٍ في السمواتِ ولا في الأرضِ﴾: لكمال علمه وقدرته. ﴿إنَّه كان عليماً قديراً﴾.

﴿٤٥﴾ ثم ذكَّرَ تعالى كمالَ حلمِهِ وشِدَّةَ إِمهالِهِ وإنظارِهِ أربابَ الجرائمِ والذنوبِ، فقال: ﴿ولو يواخِذُ اللهُ النَّاسَ بما كَسَبوا﴾: من الذنوبِ ﴿ما تركَ على ظَهْرِها من دابَّةٍ﴾؛ أي: لاستوعبت العقوبةُ حتى الحيواناتِ غيرَ المكلفةِ. ﴿ولكن﴾: يُمهَلهم تعالى ولا يُمهَلهم^(٢)، ﴿يؤخِّرهم إلى أجلٍ مسمًى فإذا جاء أجلهم فإنَّ الله كان بعبادِهِ بصيراً﴾: فيجازيهم بحسبِ ما عَلِمَهُ منهم من خيرٍ وشرِّ. تم تفسير سورة فاطر. والحمد لله رب العالمين.



تفسير سورة يس

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يس ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَئِن لَّمْ تَرْتُدَّ إِلَيْنَا لِنَرْسُلَنَّ لَهُمُ الْمُغْرِبِينَ ﴿٣﴾ عَلَيْنَا يَصْرُوعُ فَتَشْتَبِهُونَ ﴿٤﴾ نَزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا بِآيَاتِهِمْ فَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيْنَا أَكْثَرَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْشَاءً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَوِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَنَشِرُهُ بِغَيْفٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾

﴿٢﴾ هذا قسمٌ من الله تعالى بالقرآن الحكيم الذي وَضَعَهُ الحكمة، وهي وضعُ

(١) في (ب): «وعمرها أكثر مما عمرها». (٢) في (ب): «يمهلهم».

كلُّ شيءٍ موضَعه: وضعُ الأمر والنهي في المحلِّ^(١) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشرِّ في محلِّهما اللائق بهما؛ فأحكامه الشرعيَّةُ والجزائيَّةُ كُلُّها مشتملةٌ على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن أنه يجمع بين ذِكرِ الحُكْمِ وحِكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها.

﴿٣﴾ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين﴾: هذا المقسَم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وأنت يا محمد من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل. وأيضاً؛ فجنث بما جاء به الرسل من الأصول الدينيَّة. وأيضاً؛ فمن تأمل أحوال^(٢) المرسلين وأوصافهم وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم؛ عرف أنك من خيار المرسلين بما فيك من الصفات الكاملة والأخلاق الفاضلة. ولا يخفى ما بين المقسَم به وهو القرآن الحكيم وبين المقسَم عليه وهو رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال، وأنه لو لم يكن لرسالته دليلٌ ولا شاهدٌ إلا هذا القرآن الحكيم؛ لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فادلة القرآن كُلُّها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

﴿٤﴾ ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿على صراطٍ مستقيم﴾: معتدل، موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتملٌ على أعمال، وهي الأعمال الصالحة المصلحة للقلب والبدن والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم الذي هو وصفُ الرسول ﷺ ووصفُ دينه الذي جاء به.

فتأمل جلالَةَ هذا القرآن الكريم؛ كيف جَمَعَ بين القَسَمِ بأشرف الأقسام على أجلِّ مُقسَم عليه، وخبرُ الله وحده كافٍ، ولُكِنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحَّة ما أقسم عليه من رسالة رسوله ما نبهنا عليه وأشرنا إشارة لطيفة لسلوك طريقه.

﴿٥﴾ وهذا الصراط المستقيم ﴿تنزيلَ العزيزِ الرَّحِيمِ﴾؛ فهو الذي أنزلَ به كتابه وأنزلَه طريقاً لعباده موصلاً لهم إليه، فحماه بعزَّته عن التغيير والتبديل، ورجمَ به عباده رحمةً أتصلت بهم حتى أوصلتهم إلى دار رحمته، ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين العزيز الرحيم.

(١) في (ب): «الموضع».

(٢) في (ب): «أصول».

﴿٦﴾ فلما أقسم تعالى على رسالته، وأقام الأدلة عليها؛ ذكّر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها، فقال: ﴿لَتُنذِرَ قوماً ما أُنذِرَ آبائهم فهم غافلون﴾: وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمّتهم الجهالة وغمرتهم الضلالة، وأضحكوا عليهم وعلى سقّهم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم يزكّهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكّر أهل الكتب بما عندهم من الكتب؛ فنعمت الله به على العرب خصوصاً وعلى غيرهم عموماً.

﴿٧﴾ ولكن هؤلاء الذين بُعثت [فيهم] لإنذارهم بعدما أُنذرتهم انقسموا قسمين: قسم ردّ لما جئت به ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾؛ أي: نفذ فيهم القضاء والمشية أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حقّ عليهم القول بعد أن عُرض عليهم الحقّ فرفضوه؛ فحيث عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

﴿٨﴾ وذكّر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾: وهي جمع غلّ، والغلّ ما يُغلّ به العنق؛ فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل. وهذه الأغلال التي في [الأذقان]^(١) عظيمة قد وصلت إلى: ﴿أذقانهم، ورفعت رؤوسهم إلى فوق.﴾ فهم مُقْمَحُونَ؛ أي: رافعوا رؤوسهم من شدة الغلّ الذي في أعناقهم؛ فلا يستطيعون أن يخفّضوها.

﴿٩﴾ ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً﴾؛ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان؛ ﴿فهم لا يبصرون﴾: قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تُفد فيهم النذارة.

﴿١٠﴾ ﴿وسواء عليهم أُنذرتهم أم لم تُنذِرهم لا يؤمنون﴾: وكيف يؤمن من طبع على قلبه ورأى الحقّ باطلاً والباطل حقاً؟!

﴿١١﴾ والقسم الثاني الذين قبلوا النذارة وقد ذكّرهم بقوله: ﴿إنما تُنذِرُ﴾؛ أي: إنّما تنفع نذارتك ويتعظ بضحكك ﴿من اتبع الذكر﴾؛ أي: من قضده اتباع الحقّ وما ذكّر به، ﴿وخشي الرحمن بالغيب﴾؛ أي: من اتّصف بهذين الأمرين: القصد

(١) كذا في (أ) و (ب)، وقد صوبت في (أ) بخط مغاير «الأعناق».

الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى؛ فهم الذين ينتفعون برسالتك ويزكّون بتعليمك، وهذا الذي وُفّق لهذين الأمرين، بشره ﴿بمغفرة﴾: لذنوبه ﴿وأجر كريم﴾: لأعماله الصالحة ونبيّه الحسنة.

﴿١٢﴾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾؛ أي: نبعثهم بعد موتهم لئجازيهم على الأعمال، ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾: من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وبأشروها في حال حياتهم، ﴿وَأَنزَلْنَاهُمْ﴾: وهي آثار الخير وآثار الشر التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم؛ فكل خير عمل به أحد من الناس بسبب علم العبد وتعليمه أو نصحه أو أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر أو علم أودعه عند المتعلمين أو في كتب يُنتفع بها في حياته وبعد موته أو عمل خيراً من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس وما أشبه ذلك؛ فإنها من آثاره التي تُكْتَبُ له، وكذلك عمل الشر، ولهذا: «من سنَّ سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنَّ سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

وهذا الموضع يبيّن لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليفة وأشدّهم جرماً وأعظمهم إثماً، ﴿وكل شيء﴾: من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أخصيناه في إمام مبین﴾؛ أي: كتاب هو أم الكتب، وإليه مرجع الكتب التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٣) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّيْطَانِ فَقَالُوا لِنَا إِلَهُكُمْ مُرْسَلُونَ﴾^(١٤) ﴿قَالُوا مَا أَنشَأَ لَنَا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن سَمَاءٍ إِلَّا أَسْفُوفٌ وَإِنَّا لَنَنظُرُكَ بِكَيْدٍ لِّئَلَّا تُبَدِّلَ مِنَّا عَلِيمًا﴾^(١٥) ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(١٦) ﴿قَالُوا إِنَّا نَطِيرُنَا بِكُمْ لَيْلًا لَّئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١٧) ﴿قَالُوا طَائِفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكْرُكُمْ بَلْ أَنشَأَ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾^(١٨) ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى

(١) كما في «صحيح مسلم» برقم: (١٠١٧) عن جرير بن عبدالله.

(٢) في النسختين: إلى آخر القصة.

قَالَ يَنْقَرُوا الْأَعْيُنُ الْمَرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أُنِيعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَؤُا أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا
 أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَلَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي
 عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُفْعِدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ تَأْمَنْتَ بِرَبِّكُمْ
 فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا عَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ
 الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ
 كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَخْصَرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٦﴾
 وَإِنْ كُلُّ لُتَمًا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴿

﴿١٣﴾ أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك الراديين لدعوتك مثلاً يعتبرون به
 ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير، وذلك المثل أصحاب القرية وما جرى منهم
 من التكذيب لرسول الله وما جرى عليهم من عقوبته وتكاله، وتعيين تلك القرية لو
 كان فيه ^(١) فائدة؛ لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم
 بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذه الأمور؛ تجد عنده من الخبط والخلط
 والاختلاف الذي لا يستقر له قرار ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح الوقوف مع
 الحقائق وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم من حيث
 يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها ولا حجة عليها ولا يحصل
 منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتياد الأمور المشكوك فيها. والشاهد أن هذه
 القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين. ﴿إذ جاءها المرسلون﴾: من الله تعالى؛
 يأمرونهم بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٤﴾ ﴿إذ أرسلنا إليهم اثنتين فكذبوهما فعرزنا بثالث﴾؛ أي: قويناها بثالث،
 فصاروا ثلاثة رسل؛ اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم،
 ﴿فقالوا﴾ لهم: ﴿إنا إليكم مرسلون﴾.

﴿١٥﴾ فأجابوهم بالجواب الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل،
 فقالوا: ﴿ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾؛ أي: فما الذي فضلكم علينا وخصكم من دوننا؟!﴾

(١) في (ب): «فيها».

قالت الرسل لأممهم: **﴿إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ، وَلَكِنْ [اللَّهُ] يَمُنُّ عَلَىٰ مِنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، ﴿١٦﴾ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾**؛ أي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: **﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾**.

﴿١٦﴾ فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: **﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّهُ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾**: فلو كنا كاذبين؛ لأظهر^(١) الله خزينا ولبادرنا بالعقوبة.

﴿١٧﴾ **﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾**؛ أي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح أو^(٢) من سرعة العذاب؛ فليس إلينا، وإنما وظيفتنا التي هي البلاغ المبين فمنا بها وبيئنا لكم؛ فإن اهتديتم؛ فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتكم؛ فليس لنا من الأمر شيء.

﴿١٨﴾ فقال أصحاب القرية لرسلهم: **﴿إِنَّا نَطَّيَّرْنَا بِكُمْ﴾**؛ أي: لم نر على قدمكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب؛ أن يجعل من قديم عليهم بأجل نعمة يُنعِمُ الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قدم بحالة شر زادت على الشر الذي هم عليه واستشأموها بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق يصنع بصاحبه أعظم مما^(٣) يصنع به عدوه، ثم توعدوهم فقالوا: **﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ﴾**؛ أي: لنتفثلكم رجماً بالحجارة أشنع القتلات، **﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**.

﴿١٩﴾ فقالت لهم رسلهم: **﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾**: وهو ما معهم من الشرك والشر المقتضي لوقوع المكروه والنقمة وارتفاع المحبوب والنعمة. **﴿إِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾**؛ أي: بسبب أننا ذكركم ما فيه صلاحكم وحظكم قلتم لنا ما قلتم، **﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾**: متجاوزون للحد متجزهمون في قولكم. فلم يزدكم دعاؤهم إلا نفوراً واستكباراً.

﴿٢٠﴾ **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾**: حرصاً على نضح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به وعلم ما رد به قومه عليهم، فقال لهم: **﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾**: فأمرهم باتباعهم، ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

﴿٢١﴾ ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: **﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ**

(٢) في (ب): «و».

(١) في (ب): «لظهر».

(٣) في (ب): «ما».

أَجْرًا؛ أَي: اتَّبِعُوا مَنْ نَصَحَكُمْ نَصْحًا يَعُودُ إِلَيْكُمْ بِالْخَيْرِ، وَلَيْسَ يَرِيدُ مِنْكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَجْرًا عَلَى نَصِيحِهِ لَكُمْ وَإِرْشَادِهِ؛ فَهَذَا مُوجِبٌ لِاتِّبَاعِ مَنْ هَذَا وَصْفُهُ: بَقِيَ أَنْ يُقَالَ: فَلَعَلَّهُ يَدْعُو وَلَا يَأْخُذُ أَجْرَةً وَلَكِنَّهُ لَيْسَ عَلَى الْحَقِّ، فَدَفَعَ هَذَا الْاِحْتِرَازَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾: لِأَنَّهُمْ لَا يَدْعُونَ إِلَّا لِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِحُسْنِهِ، وَلَا يَنْهَوْنَ إِلَّا بِمَا يَشْهَدُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ بِقُبْحِهِ.

﴿٢٢ - ٢٥﴾ فَكَأَنَّ قَوْمَهُ لَمْ يَقْبَلُوا نَصِيحَهُ، بَلْ عَادُوا لِاتِّمِنِ لَهُ عَلَى اتِّبَاعِ الرِّسْلِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، فَقَالَ: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؛ أَي: وَمَا الْمَانِعُ لِي مِنْ عِبَادَةِ مَنْ هُوَ الْمَسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّهُ الَّذِي فَطَرَنِي وَخَلَقَنِي وَرَزَقَنِي وَإِلَيْهِ مَالُ جَمِيعِ الْخَلْقِ فَيَجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ؛ فَالَّذِي بِيَدِهِ الْخَلْقُ وَالرِّزْقُ وَالْحُكْمُ بَيْنَ الْعِبَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُنْسَى عَلَيْهِ وَيُتَّجَدَّ دُونَ مَنْ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَلَا عَطَاءً وَلَا مَنَعًا وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿أَتَأْخُذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا﴾: لِأَنَّهُ لَا أَحَدٌ يَشْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ؛ فَلَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ عَنِّي شَيْئًا ﴿وَلَا هُمْ يُنْقِذُونَ﴾: مِنْ الضَّرِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِي. ﴿إِنِّي إِذَا﴾؛ أَي: إِنْ عَبَدْتُ آلِهَةً هَذَا وَصَفُهَا ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾: فَجَمَعَ فِي هَذَا الْكَلَامِ بَيْنَ نَصِيحَتِهِمْ، وَالشَّهَادَةِ لِلرِّسْلِ بِالرِّسَالَةِ وَالْإِهْتِدَاءِ، وَالْإِخْبَارِ بِتَعْيِينِ^(١) عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَذَكَرَ الْأَدْلَةَ عَلَيْهَا، وَأَنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ بَاطِلَةٌ، وَذَكَرَ الْبِرَاهِينَ عَلَيْهَا وَالْإِخْبَارَ بِضَلَالِ مَنْ عَبَدَهَا، وَالْإِعْلَانَ بِإِيمَانِهِ جَهْرًا مَعَ خَوْفِهِ الشَّدِيدِ مِنْ قَتْلِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ فَقَتَلَهُ قَوْمُهُ لَمَّا سَمِعُوا مِنْهُ وَرَاجَعَهُمْ بِمَا رَاجَعَهُمْ بِهِ. ﴿قِيلَ﴾: لَهُ فِي الْحَالِ: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾. فَقَالَ مَخْبِرًا بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنَ الْكِرَامَةِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصِهِ وَنَاصِحًا لِقَوْمِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَمَا نَصَحَ لَهُمْ فِي حَيَاتِهِ: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ. بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾؛ أَي: بِأَيِّ شَيْءٍ غَفَرَ لِي فَأَزَالَ عَنِّي أَنْوَاعَ الْعُقُوبَاتِ، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾: بِأَنْوَاعِ الْمَثُوبَاتِ وَالْمَسْرُوتِ؛ أَي: لَوْ وَصَلَ عَلْمُ ذَلِكَ إِلَى قُلُوبِهِمْ؛ لَمْ يَقِيمُوا عَلَى شِرْكِهِمْ.

﴿٢٨﴾ قَالَ اللَّهُ فِي عِقُوبَةِ قَوْمِهِ: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾؛ أَي: مَا اخْتَجْنَا أَنْ نَتَكَلَّفَ فِي عِقُوبَتِهِمْ فَنَنْزِلَ جُنْدًا مِنَ السَّمَاءِ لِاتِّلَافِهِمْ.

(١) فِي (ب): «بَتَعْيِينِ».

﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾: لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ﴾؛ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾؛ أي: صوتاً واحداً تكلم به بعض ملائكة الله؛ ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾: قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم وانزعجوا لتلك الصيحة فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح وتجبرهم عليهم.

﴿٣٠﴾ قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾؛ أي: ما أعظم شقاءهم وأطول عناءهم وأشد جهلهم حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ. وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾؛ يقول تعالى: ألم يَرَ هؤلاء وَيَعْتَبِرُوا بِمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ الْمَكْذُوبَةِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَأَوْقَعَ بِهَا عِقَابَهَا، وَأَنَّ جَمِيعَهُمْ قَدْ بَادَ وَهَلَكَ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى الدُّنْيَا وَلَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهَا، وَسَيَعِيدُ اللَّهُ الْجَمِيعَ خَلْقًا جَدِيدًا، وَيَبْعَثُهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، وَيَحْضُرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ تَعَالَى؛ ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا.

﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي تَتَّبَعُوا وَخَرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿٣٣﴾ أي: ﴿وَأَيُّ لَهُمُ﴾: على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال هذه ﴿الْأَرْضُ الَّتِي تَتَّبَعُوا﴾: أنزل الله عليها المطر فأخياها^(١) بعد موتها، ﴿وَخَرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾: من جميع أصناف الزروع ومن جميع أصناف النبات التي تأكله أنعامهم.

(١) في (ب): «فأصابها».

﴿٣٤﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾؛ أي: بساتين فيها أشجارٌ كثيرةٌ، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وفَجَّرْنَا فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾: جعلنا في الأرض تلك الأشجار والنخيل والأعناب.

﴿٣٥﴾ ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾: قوتاً وفاكهةً وأداماً ولذّةً. ﴿وَالْحَالِ أَنْ تَلِكِ الثَّمَارُ﴾: عملتها ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: وليس لهم فيها صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين وخير الرازقين، وأيضاً؛ فلم تَعْمَلْهُ أَيْدِيهِمْ بطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار غير محتاجة لطبخ ولا شيءٍ تَوْخَذُ مِنْ أَشْجَارِهَا فتؤكل في الحال. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾: مَنْ سَأَلَ لَهُمْ هَذِهِ النِّعَمَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنْ جُودِهِ وَإِحْسَانِهِ مَا بِهِ تَضَلَّحُ أُمُورُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، أَلَيْسَ الَّذِي أَحْيَا الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَنْبَتَ فِيهَا الزُّرُوعَ وَالْأَشْجَارَ وَأَوْدَعَ فِيهَا لَذِيذَ الثَّمَارِ وَأَظْهَرَ ذَلِكَ الْجَنَى مِنْ تِلْكَ الْغُصُونِ وَفَجَّرَ الْأَرْضَ الْيَابِسَةَ الْمَيْتَةَ بِالْعُيُونِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿٣٦﴾ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾؛ أي: الأصناف كلها ﴿مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ﴾: فَتَوَعَّ فِيهَا مِنَ الْأَصْنَافِ مَا يَعْسُرُ تَعْدَادُهُ، ﴿وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾: فَتَوَعَّهِمْ إِلَى ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَفَاوَتْ بَيْنَ خَلْقِهِمْ وَخُلُقِهِمْ وَأَوْصَفَهُمُ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾: مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي قَدْ خُلِقَتْ وَغَابَتْ عَنْ عِلْمِنَا، وَالَّتِي لَمْ تُخْلَقْ بَعْدَ فَسْحَانِهِ وَتَعَالَى أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ ظَهِيرٌ أَوْ عَوِينٌ أَوْ وَزِيرٌ أَوْ صَاحِبَةٌ أَوْ وَلَدٌ أَوْ سَمِيٌّ أَوْ شَبِيهٌ أَوْ مِثْلٌ فِي صِفَاتِ كَمَالِهِ وَنِعْوَتِ جَلَالِهِ، أَوْ يُعْجِزُهُ شَيْءٌ يَرِيدُهُ.

﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ (٣٧) ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (٣٨) ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ (٣٩) ﴿لَا الشَّمْسُ يَلْبَغِيهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الْبَلَدُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤٠).

﴿٣٧﴾ أي: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾: على نفوذ مشيئته وكمال قدرته وإحيائه الموتى بعد موتهم ﴿اللَّيْلُ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾؛ أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبَّق الأرض فبديله بالظلمة ونجَّلها محلّه؛ ﴿فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

﴿٣٨﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمَّتْهم وشملتْهم، فَنُطِّلَعُ (١) الشَّمْسُ،

فتضيء الأقطار، وينتشر الخلق لمعايشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمُستَقَرِّ لها﴾؛ أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدرها الله، لا تتعداه ولا تقصر عنه وليس لها تصرف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله تعالى. ﴿ذلك تقدير العزيز﴾: الذي بعزته دبر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام. ﴿العليم﴾: الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿٣٩﴾ ﴿والقمر قدرناه منازل﴾: ينزلها^(١)، كل ليلة ينزل منها واحدة، حتى: يصغر جداً فيعود كالعرجون القديم؛ أي: عرجون النخلة الذي من قدمه نش وصر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتم نوره، ويتسق ضياؤه.

﴿٤٠﴾ وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدره الله تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وجد؛ عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر﴾؛ أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿ولا الليل سابق النهار﴾: فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه. ﴿وكل﴾: من الشمس والقمر والنجوم ﴿في فلك يسبحون﴾؛ أي: يترددون على الدوام؛ فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع.

﴿وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المسحور﴾ (٣٩) ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾ (٤٠) وإن نشأ نفرقهم فلا يصح لهم ولا هم يقدرون (٤١) إلا رحمة بنا ومنعاً لك حين (٤٢) وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٣) وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (٤٤) وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كففوا للذين آمنوا أنفق من لو يشاء الله أطعمه إن أنشر إلا في ضلال مبين (٤٥) ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين (٤٦) ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يصممون (٤٧) فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون (٤٨).

﴿٤١﴾ أي: ودليل لهم وبرهان على أن الله وحده المعبود؛ لأنه المنعم بالنعمة

(١) في (ب): «ينزل بها».

الصارف للثقم الذي من جملة نعمه ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: قال كثير من المفسرين المراد بذلك آباؤهم^(١).

﴿٤٢﴾ ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ﴾؛ أي: للموجودين من^(٢) بعدهم ﴿من مثله﴾؛ أي: من مثل ذلك الفلك؛ أي: جنسه ﴿ما يركبون﴾: به. فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن؛ لأن النعمة عليهم نعمته على الذرية.

وهذا الموضع من أشكال المواضع علي في التفسير؛ فإن ما ذكره كثير من المفسرين من أن المراد بالذرية الآباء مما لا يُعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيه^(٣) من الإبهام وإخراج الكلام عن موضوعه ما يباهه كلام رب العالمين وإرادته البيان والتوضيح لعباده. وثم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم؛ لأنهم هم من ذرية بني آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ من مثله ما يركبون﴾: إن أريد: وحلقنا من مثل ذلك الفلك؛ أي: لهؤلاء المخاطبين ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريراً للمعنى تأباه فصاحة القرآن. فإن أريد بقوله: ﴿وَحَلَقْنَا لَهُمْ من مثله ما يركبون﴾: الإبل التي هي سفن البر؛ استقام المعنى واتضح؛ إلا أنه يبقى أيضاً أن يكون الكلام فيه تشويش؛ فإنه لو أريد هذا المعنى؛ لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون وحلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقال في الأول: حملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم؛ فإنه لا يظهر المعنى إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية. والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضع؛ ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلاله كتاب الله وبيانه التام من كل وجه للأمر الحاضرة والماضية والمستقبلية، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى ونعمه على عباده من حين أنعم عليهم بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان إلى زمان المواجهين بالقرآن، فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم وفي غير زمانهم حين يعلمهم صنعة الفلك البحرية الشراعية

(١) وهو اختيار ابن جرير (٥٢١/٢٠)، والبغوي (١٩/٦)، وابن كثير (٥٦٤/٦).

(٢) في (ب): «في».

(٣) في (ب): «فيها».

منها والثارية والجوية السابحة في الجو كالطيور ونحوها والمراكب البرية مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية؛ نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها، فقال: ﴿وآية لهم أننا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون﴾؛ أي: المملوء ركبانا وأمتعة، فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق.

﴿٤٣﴾ ولهذا نبههم على نعمته عليهم حيث ^(١) أنجاهم من الغرق مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نُغْرِقْهُمْ فلا صرِيخَ لهم﴾؛ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم يُنْقَدُونَ﴾: مما هم فيه.

﴿٤٤﴾ ﴿إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين﴾: حيث لم نُغْرِقْهُمْ لطفاً بهم وتمتعياً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿٤٥﴾ ﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾؛ أي: من أحوال البرزخ والقيامة وما في الدنيا من العقوبات؛ ﴿لعلكم ترحمون﴾: أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءتهم كل آية.

﴿٤٦﴾ ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾: وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها؛ لأنه ما أبين من آيات الله ولا أعظم بياناً، وإن من جملة تربية الله لعباده أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما يفتعهم في دينهم وديناهم.

﴿٤٧﴾ ﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾؛ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾: معارضين للحق محتجين بالمشيئة: ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم﴾: أيها المؤمنون، لفي ضلال مبين؛ حيث تأمرونا بذلك، وهذا مما يدل على جهلهم العظيم أو تجاهلهم الوخيم؛ فإن المشيئة ليست حجة لعاصي أبداً؛ فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن؛ فإنه تعالى مكن العباد وأعطاهم من القوة ما يقدر على فعل الأمر واجتناب النهي؛ فإذا تركوا ما أمروا به؛ كان ذلك اختياراً منهم لا جبراً لهم وقهراً.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿ويقولون﴾: على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هذا الوعد

(١) في (ب): «حين».

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥٠﴾ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: لَا يَسْتَبْعِدُوا ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ عَن قَرِيبٍ، ﴿٥١﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٥٢﴾ وَهِيَ نَفْخَةُ الصُّورِ. ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾؛ أَي: تَصِيْبُهُمْ ﴿وَهُمْ يَخْضَمُونَ﴾؛ أَي: وَهُمْ لَاهُونَ عِنهَا، لَمْ تَخْطُرْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي حَالِ خُصُومَتِهِمْ وَتَشَاوَرَهُمْ بَيْنَهُمْ، الَّذِي لَا يَوْجَدُ فِي الْغَالِبِ إِلَّا وَقْتُ الْغَفْلَةِ.

﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَخَذْتَهُمْ وَقْتُ غَفْلَتِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يُمَهِّلُونَ؛ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾؛ أَي: لَا قَلِيلَةَ وَلَا كَثِيرَةَ، ﴿وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا نَبِيَّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تَطْلُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ وَلَا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

﴿٥١﴾ النَّفْخَةُ الْأُولَىٰ هِيَ نَفْخَةُ الْفَرْعِ وَالْمَوْتِ. وَهَذِهِ نَفْخَةُ الْبَعْثِ وَالنَّشُورِ؛ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ؛ خَرَجُوا ﴿مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وَالْقُبُورِ ﴿يَنسِلُونَ﴾ إِلَىٰ رَبِّهِمْ؛ أَي: يَسْرِعُونَ لِلْحَضُورِ بَيْنَ يَدَيْهِ، لَا يَتِمَكَّنُونَ مِنَ التَّأْتِيِ وَالْتَأَخُرِ.

﴿٥٢﴾ وَفِي تِلْكَ الْحَالِ يَحْزَنُ الْمَكْذُوبُونَ وَيُظْهِرُونَ الْحَسْرَةَ وَالنَّدَمَ وَيَقُولُونَ: ﴿يَا نَبِيَّنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾؛ أَي: مَنْ رَقَدْتَنَا فِي الْقُبُورِ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ أَنَّ لِأَهْلِ الْقُبُورِ رَقْدَةً قَبِيلَ النَّفْخِ فِي الصُّورِ^(١). فَيُجَابُونَ وَيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾؛ أَي: هَذَا الَّذِي وَعَدَكُمْ اللَّهُ بِهِ وَوَعَدْتُمْ بِهِ الرَّسُلَ، فَظَهَرَ صِدْقُهُمْ رَأْيِ عَيْنٍ. وَلَا تَحَسَّبْ أَنَّ ذِكْرَ الرَّحْمَنِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لِمَجْرَدِ الْخَبَرِ عَن وَعْدِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ لِلْإِخْبَارِ بِأَنَّهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ سَيَرُونَ مِنْ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَخْطُرُ عَلَى الطُّنُونِ وَلَا حَسَبَ بِهِ الْحَاسِبُونَ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَذْكَرُ اسْمَهُ الرَّحْمَنِ فِي هَذَا.

﴿٥٣﴾ ﴿إِنْ كَانَتْ﴾: الْبَعْثَةُ مِنَ الْقُبُورِ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾: يَتَنَفَّخُ فِيهَا إِسْرَافِيلُ فِي الصُّورِ، فَتَحْيَا الْأَجْسَادُ؛ ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾: الْأَوْلُونَ وَالْآخَرُونَ، وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ؛ لِيَحْسَبُوا عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ.

(١) كَمَا فِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» (٤٨١٤)، وَ«مُسْلِمٍ» (٢٩٥٥) مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴿٦١﴾ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴿٦٢﴾ اضلّوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴿٦٣﴾ اليوم نخبرك على آفئدهم ونكلمنا أيديهم ونشهد أزرلهم بما كانوا يكسبون ﴿٦٤﴾ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأن يَصِروك ﴿٦٥﴾ ولو نشاء لسنخنهم على مكاتبهم فما استظفروا مضياً ولا يرجعون ﴿٦٦﴾

﴿٥٩﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين؛ ذكر جزاء المجرمين، ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امتازوا اليوم أيها المجرمون﴾؛ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة؛ ليؤنخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

﴿٦٠﴾ ﴿الم أعهذ إليكم﴾؛ أي: أمركم وأوصيكم على السنة رُسلي وأقول لكم: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾؛ أي: لا تطيعوه! وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾: فحذرتكم منه غاية التحذير، وأندرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

﴿٦١﴾ ﴿و﴾ أمرتكم: أن تعبدوني بامتنال أوامري وترك زواجري. ﴿هذا﴾؛ أي: عبادتي وطاعتي ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾: فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين؛ أي: فلم تحفظوا عهدي ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم.

﴿٦٢﴾ فاضل ﴿منكم جبلاً كثيراً﴾؛ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾؛ أي: أفلا كان لكم عقل يأمركم بموالة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً؟ فلو كان لكم عقل صحيح؛ لما فعلتم ذلك.

﴿٦٣﴾ فإذا أطعتم الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلفائيه، ووردتكم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب، ف﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾: وتكذبون بها؛ فانظروا إليها عياناً! فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرغ الأكبر.

﴿٦٤﴾ ثم يكمل ذلك بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اضلّوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾؛ أي: ادخلوها على وجه تضلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ بسبب كفركم بآيات الله وتكذيبكم لرسل الله.

﴿٦٥﴾ قال تعالى في بيان وَصَفِهِمْ الفظيع في دار السقاء: ﴿اليوم نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ﴾: بَأَنْ نَجْعَلَهُمْ خُرْسًا فَلَا يَتَكَلَّمُونَ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى إِنكَارِ مَا عَمِلُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ. ﴿وَتَكَلَّمْنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ أَي: تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ بِمَا عَمِلُوهُ، وَيُنْطِقُهَا الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾: بَأَنْ نَذْهَبَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا طَمَسْنَا عَلَى نُطْقِهِمْ؛ ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾؛ أَي: فَبَادَرُوا إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ الطَّرِيقُ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى الْجَنَّةِ. ﴿فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾: وَقَدْ طَمَسْنَا أَبْصَارَهُمْ؟!

﴿٦٧﴾ ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائَتِهِمْ﴾؛ أَي: لِأَذْهَبْنَا حَرَكَتَهُمْ، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا﴾: إِلَى الْأَمَامِ، ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾: إِلَى وِرَائِهِمْ، لِيَبْعُدُوا عَنِ النَّارِ.

والمعنى: أَنَّ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدُّ مِنْ عِقَابِهِمْ، وَفِي ذَلِكَ الْمَوْطِنِ مَا تَمَّ إِلَّا النَّارُ قَدْ بُرِّزَتْ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ نَجَاةٌ إِلَّا بِالْعَبُورِ عَلَى الصِّرَاطِ، وَهَذَا لَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا أَهْلُ الْإِيمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ فِي نُورِهِمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ؛ فَلَيْسَ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدٌ فِي النِّجَاةِ مِنَ النَّارِ؛ فَإِنْ شَاءَ؛ طَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ، وَأَبْقَى حَرَكَتَهُمْ فَلَمْ يَهْتَدُوا إِلَى الصِّرَاطِ لَوْ اسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَبَادَرُوهُ، وَإِنْ شَاءَ؛ أَذْهَبَ حِرَاكَهُمْ فَلَمْ يَسْتَطِيعُوا التَّقَدُّمَ وَلَا التَّأَخُّرَ، الْمَقْصُودُ أَنَّهُمْ لَا يَغْبُرُونَهُ، فَلَا تَحْصُلُ لَهُمْ النِّجَاةُ.

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.

﴿٦٨﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ﴾: مِنْ بَنِي آدَمَ ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾؛ أَي: يَعُودُ إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي ابْتَدَأَ مِنْهَا؛ حَالَةَ الضَّعْفِ؛ ضَعْفَ الْعَقْلِ وَضَعْفَ الْقُوَّةِ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾: أَنَّ الْآدَمِيَّ نَاقِصٌ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، فَيَتَدَارَكُوا قُوَّتَهُمْ وَعَقُولَهُمْ، فَيَسْتَغْمِلُونَهَا فِي طَاعَةِ رَبِّهِمْ؟

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ؛ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾.

﴿٦٩﴾ يَنْزُهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ عَمَّا رَمَاهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُ شَاعِرٌ، وَأَنَّ الَّذِي جَاءَ بِهِ شِعْرًا، فَقَالَ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: أَنَّ يَكُونَ شَاعِرًا؛ أَي: هَذَا مِنْ جِنْسِ الْمَحَالِ أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا؛ لِأَنَّهُ رَشِيدٌ مُهْتَدٍ، وَالشُّعْرَاءُ غَاوُونَ، يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَسَمَ جَمِيعَ الشُّبْهِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الضَّالُّونَ عَنِ رِسُولِهِ، فَحَسَمَ أَنْ يَكُونَ يَكْتَبُ أَوْ يَقْرَأُ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ مَا عَلَّمَهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكرٌ يتذكَّر به أولو الألباب جميع المطالب الدينية؛ فهو مشتملٌ عليها أتمَّ اشتمال، وهو يذكُر العقول ما ركز الله في فطرها من الأمر بكلِّ حسن والنهي عن كلِّ قبيح. ﴿وقرآنٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: مبينٌ لما يُطلبُ بَيانُه، ولهذا حذف المعمول؛ ليدلُّ على أنه مبينٌ لجميع الحقِّ بأدلته التفصيلية والإجمالية والباطل وأدلة بطلانه. أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿٧٠﴾ ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾؛ أي: حيِّ القلب واعية؛ فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية، ﴿ويحقِّ القول على الكافرين﴾: لأنهم قامت عليهم به حجة الله وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذرٍ وشبهة يُدلون بها.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿٧١ - ٧٣﴾ يأمرُ تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلَّلها وجعل لهم مالكين لها مطاوعة لهم في كلِّ أمرٍ يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أثقالهم ومحايلهم وأمتعتهم من محلٍ إلى محلٍ، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها أئاناً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينةٌ وجمالٌ وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها. ﴿أفلا يشكرون﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة، ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة!

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٥﴾﴾

﴿٧٤ - ٧٥﴾ هذا بيانٌ لبطلان آلهة المشركين التي ^(١) اتَّخذوها مع الله تعالى ورجَّوا نصرها وشفَّعها؛ فإنها في غاية العجز. ﴿لا يستطيعون نصرهم﴾: ولا أنفسهم ينصرون؛ فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم؛ فكيف ينصرونهم؟! والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)؛ فإذا استطاع: يبقى: هل يريد نصرته من عبده أم

(١) في (ب): «الذين».

(٢) كذا في هامش (أ). ولا توجد في (ب)، ولعل الصواب: «الإرادة».

لا؟ فنفي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما. ﴿وهم لهم جند محضرون﴾؛ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئٌ بعضهم من بعض، أفلا تبرؤوا في الدنيا من عبادة هؤلاء وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر والعطاء والمنع وهو الوليُّ النصير؟!

﴿فَلَا يَخْزُوكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُغْلِنُونَ﴾ (٧٦).

﴿٧٦﴾ أي: فلا يخزئك يا أيها الرسولُ قول المكذبين، والمراد بالقول ما دلَّ عليه السياق، كلُّ قول يفدحون فيه في الرسول أو فيما جاء به؛ أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم. ﴿إنا نعلم ما يسرون وما يغنون﴾؛ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا؛ فقولهم لا يضرك شيئاً.

﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٧٧) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَوَسَّى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعِني الْعَظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ تُؤْفِكُونَ﴾ (٨٥) ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٨٦) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٧) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدؤهُ مَلَكُوتٌ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٨٨).

هذه الآيات الكريمات فيها ذكرٌ شبهة منكري البعث والجواب عنها باتمَّ جوابٍ وأحسبه وأوضحه.

﴿٧٧﴾ فقال تعالى: ﴿أولم ير الإنسان﴾: المنكر للبعث أو^(١) الشاك فيه أمراً يفيدُه اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه ﴿من نطفة﴾، ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشبَّ وتمَّ عقله واستتبَّ؛ ﴿فإذا هو خصيمٌ مبين﴾: بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة؛ فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم قادرٌ على أن يعيده بعدما تفرَّق وتمزَّق من باب أولى.

﴿٧٨﴾ ﴿وضرب لنا مثلاً﴾: لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياسُ قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المُستبعدُ على قدرة المخلوق مُستبعدٌ على قدرة

(١) في (ب): «و».

الخالق، فَسَّرَ هَذَا الْمَثْلَ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ﴾: ذَلِكَ الْإِنْسَانُ: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؛ أَي: هَلْ أَحَدٌ يُحْيِيهَا؟ اسْتَفْهَامٌ إِنْكَارٌ؛ أَي: لَا أَحَدٌ يُحْيِيهَا بَعْدَمَا بَلَيْتَ وَتَلَاشْتُ. هَذَا وَجْهٌ الشَّبْهَةِ وَالْمَثْلِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا أَمْرٌ فِي غَايَةِ الْبَعْدِ عَلَى مَا يُعْهَدُ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ، وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي صَدَرَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ غَفْلَةٌ مِنْهُ وَنِسْيَانٌ لِابْتِدَاءِ خَلْقِهِ؛ فَلَوْ قَطِنَ لِخَلْقِهِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً، فَوُجِدَ عَيَاناً؛ لَمْ يَضْرِبْ هَذَا الْمَثْلَ.

﴿٧٩﴾ فَأَجَابَ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْاسْتِجْعَادِ بِجَوَابٍ شَافٍ كَافٍ، فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: وَهَذَا بِمَجْرَدِ تَصَوُّرِهِ يَعْلَمُ بِهِ عِلْمًا يَقِينًا لَا شَبْهَةَ فِيهِ أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِي مَرَّةً، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى الْقُدْرَةِ إِذَا تَصَوَّرَهُ الْمَتَصَوِّرُ. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾: هَذَا أَيْضاً دَلِيلٌ ثَانٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَيَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْ أَجْسَادِ الْأَمْوَاتِ وَمَا يَبْقَى، وَيَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ؛ فَإِذَا أَقْرَأَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْعِلْمِ الْعَظِيمِ؛ عِلْمَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ.

﴿٨٠﴾ ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا ثَالِثًا، فَقَالَ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾: فَإِذَا أَخْرَجَ النَّارَ الْيَابِسَةَ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الرُّطُوبَةِ مَعَ تَضَادِّهِمَا وَشِدَّةِ تَخَالُفِهِمَا؛ فإِخْرَاجُهُ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ.

﴿٨١﴾ ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا رَابِعًا، فَقَالَ: ﴿أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾: عَلَى سَعْتِهِمَا وَعَظَمَتِهِمَا ﴿بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾؛ أَي: أَنْ يَعِيدَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ﴿بَلَى﴾: قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ؛ فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ. ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: وَهَذَا دَلِيلٌ خَامِسٌ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى الْخَلَّاقُ الَّذِي جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ؛ مُتَقَدِّمًا وَمَتَأَخِّرًا، صَغِيرًا وَكَبِيرًا؛ كُلُّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَعْصِي عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ أَرَادَ خَلْقَهُ؛ فإِعَادَتُهُ لِلْأَمْوَاتِ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ آثَارِ خَلْقِهِ.

﴿٨٢﴾ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾: نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ فَتَعَمُّ كُلَّ شَيْءٍ، ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾؛ أَي: فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ تَمَانَعٍ.

﴿٨٣﴾ ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾: وَهَذَا دَلِيلٌ سَادِسٌ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ؛ الَّذِي جَمِيعُ مَا سَكَنَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مُلْكٌ لَهُ وَعَبِيدٌ مَسْخُورُونَ مَدْبُورُونَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِأَقْدَارِهِ الْحَكْمِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَحْكَامِهِ الْجَزَائِيَّةِ؛ فإِعَادَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ لِيَنْفِذَ فِيهِمْ حُكْمَ الْجَزَاءِ مِنْ تَمَامِ مَلِكِهِ،

ولهذا قال: ﴿وإليه تُرْجَعُونَ﴾: من غير امتراءٍ ولا شك؛ لتواترِ البراهينِ القاطعةِ والأدلةِ الساطعةِ على ذلك. فتبارك الذي جعلَ في كلامِهِ الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس.

فلله تعالى الحمدُ كما ينبغي لجلاله، وله الشاء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبرياؤه، وصلى الله على محمد وسلم.



تفسير سورة الصافات

[وهي] مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّكَّابِ الْعَظِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّجْرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلَمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيَّةٍ الْكَوْكَبِ ﴿٦﴾ وَحَفَظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ قَارِرٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيَقْدِرُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ نُحُورًا وَهُمْ عِدَابٌ وَأَصِيبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَلَفَ الْمَنَظَفَةَ فَاتَّبَعَهُمْ سِهَابٌ تَافُتٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفِينِهِمْ أَهْمٌ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿١ - ٤﴾ هذا قسمٌ منه تعالى بالملائكة الكرام في حال عباداتها وتدبيرها ما^(١) تُدَبِّرُهُ بإذن ربِّها على الوهيِّيةِ تعالى وربوبيِّته، فقال: ﴿والصافات صفا﴾؛ أي: صفوفاً في خدمة ربِّهم، وهم الملائكة، ﴿فالزجاجات زجراً﴾: وهم الملائكة يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾: وهم الملائكة الذين يتلون كلامَ الله تعالى، فلما كانوا متألِّهين^(٢) لربِّهم ومتعبدين في خدمته ولا يعصونه طرفة عين؛ أقسم بهم على الوهيِّيةِ، فقال: ﴿إنَّ إلهكم لواحد﴾: ليس له شريك في الإلهية؛ فأخِصوا له الحبُّ والخوفُ والرجاءُ وسائر أنواع العبادة.

﴿٥﴾ ﴿ربُّ السموات والأرض وما بينهما وربُّ المشارق﴾؛ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، الرازق^(٣) لها، المُدبِّرُ لها؛ فكما أنَّه لا شريك له في ربوبيِّته

(٢) في (ب): «متألِّهين».

(١) في (ب): «في ما».

(٣) في (ب): «والرازق».

إياها؛ فكذلك لا شريك له في الوهيته. وكثيراً ما يقرُّزُ تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دالٌّ عليه. وقد أقرَّ به أيضاً المشركون في العبادة، فيلزّمهم بما^(١) أقرّوا به على ما أنكروه. وخصَّ الله المشارقَ بالذكر؛ لدلائلها على المغارب، أو لأنها مشارقُ النجوم التي سيذكرها. فلهذا قال:

﴿٦ - ٩﴾ ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءِ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾: ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين: إحداهما: كونها زينةً للسماء؛ إذ لولاها؛ لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيه^(٢)، ولكن زينتها فيها؛ لتستنير^(٣) أرجاؤها وتُحسِّنَ صورتها، ويُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل. والثانية: حراسة السماء عن كلِّ شيطانٍ ماردٍ يصل بتمرده إلى استماع الملائكة، وهم الملائكة؛ إذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب ﴿من كلِّ جانب﴾: طرداً لهم وإبعاداً عن استماع ما يقول الملائكة الأعلى. ﴿ولهم عذابٌ واصبٌ﴾؛ أي: دائمٌ معدٌّ لهم لتمردهم عن طاعة ربهم.

﴿١٠﴾ ولولا أنه تعالى استثنى؛ لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾؛ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة، ﴿فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه فينقطع خبر السماء، وتارة يُخبرُ بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿١١﴾ ولما بين هذه المخلوقات العظيمة؛ قال: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم: ﴿أهم أشدُّ خلقاً﴾؛ أي: إيجادهم بعد موتهم أشدُّ خلقاً وأشق. ﴿أم من خلقنا﴾: من هذه المخلوقات؛ فلا بد أن يُقرّوا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، فيلزّمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها؛ لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾؛ أي: قويّ شديد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

(٢) في (ب): «فيها».

(١) في (ب): «ما».

(٣) في (ب): «ليستنير».

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَوَدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَسَمٌ مَا نُنْفِثُ يَدْعُونَ بِهِ سَعِيرٌ ﴿١٨﴾ فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا هَذَا بَشَرٌ أَثَمٌ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْقَصْفِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

﴿١٢﴾ ﴿بل عجبْتَ﴾: أيها^(١) الرسولُ أو أيُّها الإنسانُ من تكذيبِ مَنْ كَذَّبَ بالبعثِ بعد أن أُرِيَتْهُم من الآياتِ العظيمةِ والأدلةِ المستقيمةِ، وهو حقيقةٌ محلُّ عجبٍ واستغرابٍ؛ لأنَّه مما لا يقبلُ الإنكارَ. ﴿و﴾ أعجبُ من إنكارِهِم وأبلغُ منه أنَّهم ﴿يسخرون﴾: ممَّن جاء بالخبرِ عن البعثِ، فلم يكفِهِم مجردُ الإنكارِ، حتى زادوا السخريةَ بالقولِ الحقِّ.

﴿١٣﴾ ﴿و﴾ من العجبِ أيضاً أنَّهم ﴿إذا ذُكِّروا﴾: ما يعرفون في فِطْرِهِم وعقولِهِم وفطنوا له ولقَّتْ نظرَهُم إليه ﴿لا يذكرون﴾: ذلك؛ فإن كان جهلاً؛ فهو من أدلِّ الدلائلِ على شدَّةِ بلاذتِهِم العظيمةِ؛ حيث ذُكِّروا ما هو مستقرُّ في الفطر معلومٌ بالعقل لا يقبلُ الإشكالَ، وإن كان تجاهلاً وعناداً؛ فهو أعجبُ وأغربُ.

﴿١٤﴾ ومن العَجَبِ أيضاً أنَّهم إذا أُقيمتِ عليهم الأدلَّةُ، وذُكِّروا الآياتِ التي يخضعُ لها فحولُ الرجالِ وألبابُ الألباءِ، يسخرون منها ويغجبون.

﴿١٥﴾ ومن العجبِ أيضاً قولُهُم للحقِّ لما جاءهم: ﴿إن هذا إلا سحرٌ مبين﴾: فجعلوا أعلى الأشياءِ وأجلَّها - وهو الحقُّ - في رتبةِ أخسِّ الأشياءِ وأحقِّرها.

﴿١٦ - ١٧﴾ ومن العجبِ أيضاً قياسُهُم قدرةَ ربِّ الأرضِ والسمواتِ على قدرةِ آدميِّ الناقصِ من جميعِ الوجوهِ، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿أإذا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوْ آبَاءُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

﴿١٨﴾ ولَمَّا كَانَ هَذَا منتهى ما عندهم وغايةَ ما لَدَيْهِم؛ أمرَ اللهُ رسولهَ أن يُجيبَهُم بجوابٍ مشتملٍ على ترهيبِهِم^(٢)، فقال: ﴿قل نعم﴾: سَتَبْعُوثُونَ أَنتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ، ﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾: ذَلِيلُونَ صَاغِرُونَ لَا تَمْتَنِعُونَ، وَلَا تَسْتَعْصِمُونَ عَلَى قَدْرَةِ اللَّهِ.

﴿١٩﴾ ﴿فإنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: يَنْفُخُ إِسْرَافِيلُ فِيهَا فِي الصُّورِ، ﴿فإذا هم﴾

(٢) في (ب): «تريبتهم».

(١) في (ب): «يا أيها».

مبعوثون من قبورهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾: كما ابْتَدَىءَ خَلْقَهُمْ، بُعِثُوا بِجَمِيعِ أَجْزَائِهِمْ حِفَاةَ عِرَاءَةٍ غُرْلًا.

﴿٢٠﴾ وفي تلك الحال يُظْهِرُونَ النَّدَمَ والخِزْيَ والخَسَارَ، وَيَدْعُونَ بِالْوَيْلِ والثُّبُورِ، ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾؛ فقد أَقْرَأُوا بِمَا كَانُوا فِي الدُّنْيَا بِهِ يَهْزُؤُونَ! ^(١)

﴿٢١﴾ فيُقَالُ لَهُمْ: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾: بين العبادِ فيما بينهم وبين رَبِّهِمْ من الحقوق وفيما بينهم وبين غيرِهِمْ من الخلق.

﴿٢٢﴾ أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٤﴾ وَقَفَّوهُمْ إِلَيْهِمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٥﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنصَرُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَنْبِطُونَ ﴿٢٧﴾.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ أي: إذا حضرُوا يومَ القيامةِ وعانُوا ما به يكذبون ورأوا ما به يستسخرون؛ يُؤَمَّرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ التي بها يكذبون، فيقال: ﴿احشروا الذين ظلموا﴾: أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي ﴿وأزواجهم﴾: الذين من جنس عملهم، كلُّ يَضُمُّ إِلَى مَنْ يُجَانِسُهُ فِي الْعَمَلِ، ﴿وما كانوا يعبدون من دُونِ اللَّهِ﴾: من الأصنام والأنداد التي ازعموها، اجمعوهم جميعاً، واهدوهم ﴿إلى صراطِ الجحيم﴾؛ أي: سوقوهم سوقاً عنيفاً إلى جهنم.

﴿٢٤﴾ بعدما يتعيَّن أمرُهُمْ إِلَى النَّارِ وَيَعْرِفُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ دَارِ الْيَوَارِ؛ يُقَالُ: ﴿قَفَّوهُمْ﴾: قبل أن توصلوهم إلى جهنم، ﴿إنهم مسؤولون﴾: عما كانوا يفترونه في الدنيا؛ ليظهرَ على رؤوسِ الأشهادِ كذبُهُمْ وفضيحتُهُمْ.

﴿٢٥﴾ فيقال لهم: ﴿ما لكم لا تنصرون﴾: أي: ما الذي جرى عليكم اليوم، وما الذي طرقتكم، لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا أن آلهتكم ستدفع عنكم العذابَ وتغيثكم أو ^(٢) تشفع لكم عند الله!؟

﴿٢٦﴾ فكانهم لا يجيبون هذا السؤال؛ لأنهم قد علاهم الذُّلُّ والصَّغَارُ، واستسلموا لعذابِ النارِ وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم يتنطقوا، ولهذا قال: ﴿بل هم اليوم مستنبتون﴾.

(٢) في (ب): «و».

(١) في (ب): «يستهبزون».

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَرَبِّنَا كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكَ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَٰئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَأَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَٰهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُم لَذَٰئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

﴿٢٧ - ٢٨﴾ لما جُمِعوا هم وأزواجهم وآلهتهم وهدوا إلى صراط الجحيم ووقفوا فسئِلوا فلم يُجيبوا؛ أقبلوا فيما بينهم يلومُ بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ﴾؛ أي: بالقوة والغلبة فتضِلُّونا، ولولا أنتم؛ لكُنَّا مؤمنين.

﴿٢٩ - ٣٢﴾ ﴿قالوا﴾ لهم: ﴿بل لم تكونوا مؤمنين﴾؛ أي: ما زلتم مشركين كما نحنُ مشركون؛ فأئى شيءٍ فضلكم علينا؟ وأي شيءٍ يوجبُ لومنا؟! ﴿والحالُ أنه﴾ ما كان لنا عليكم من سلطان؛ أي: قهرٍ لكم على اختيار الكفر، ﴿بل كنتم قوماً طاغين﴾: متجاوزين للحد^(١)، ﴿فحق علينا﴾: نحنُ وإياكم ﴿قولُ ربنا إِنَّا لذائقون﴾: العذاب؛ أي: حقُّ علينا قدرُ ربنا وقضاؤه أنا وإياكم سنذوقُ العذابَ ونشتركُ في العقاب. ﴿فذلك﴾ لذلك ﴿أعويناكم إِنَّا كُنَّا غاوين﴾؛ أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحنُ عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا؛ فلا تلوมนา ولوموا أنفسكم.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ قال تعالى: ﴿فإنهم يومئذ﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿في العذاب مشركون﴾: وإن تفاوتت^(٢) مقاديرُ عذابهم بحسب جرمهم؛ كما اشتركوا في الدنيا على الكفر اشتركوا في الآخرة بجزائِهِ، ولهذا قال: ﴿إنا كذلك نفعلُ بالمجرمين﴾.

﴿٣٥ - ٣٦﴾ ثم ذكر أن إجرامهم قد بلَغَ الغايةَ وجاوزَ النهايةَ، فقال: ﴿إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله﴾: فدعوا إليها وأمروا بتركِ إلهية ما سواه ﴿يستكبرون﴾: عنها وعلى مَنْ جاء بها، ﴿ويقولون﴾ معارضةً لها: ﴿إنا لناركو إلهتنا﴾: التي لم نزل نعبدها نحنُ وأباؤنا، لقول ﴿شاعرٍ مجنون﴾؛ يعنون:

(١) في (ب): «الحق».

(٢) في (ب): «تفاوت».

محمدًا ﷺ، فلم يكفهم قَبْحَهُمُ اللّهُ الإِعْرَاضُ عَنْهُ وَلَا مَجْرَدُ تَكْذِيبِهِ، حَتَّى حَكَمُوا عَلَيْهِ بِأَظْلَمِ الْأَحْكَامِ، وَجَعَلُوهُ شَاعِرًا مَجْنُونًا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الشَّعْرَ وَالشَّعْرَاءَ، وَلَا وَصْفَهُ وَصَفَهُمْ، وَأَنَّهُ أَعْقَلَ خَلْقِ اللّهِ وَأَعْظَمُهُمْ رَأْيًا.

﴿٣٧﴾ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى نَاقِضًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿بَلْ جَاءَ﴾: مُحَمَّدٌ ﴿بِالْحَقِّ﴾؛ أَي: مُجِيبُهُ حَقًّا، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ وَالْكِتَابِ حَقًّا، ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾؛ أَي: وَمُجِيبُهُ صَدَقَ الْمُرْسَلِينَ؛ فَلَوْلَا مُجِيبُهُ وَإِرْسَالُهُ؛ لَمْ يَكُنِ الرِّسَالُ صَادِقِينَ؛ فَهُوَ آيَةٌ وَمُعْجِزَةٌ لِكُلِّ رَسُولٍ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْبَرُوا بِهِ وَبَشَرُوا، وَأَخَذَ اللّهُ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ لِئِنْ جَاءَهُمْ لِيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلِيُنْصِرُنَّهُ، وَأَخَذُوا ذَلِكَ عَلَى أَمْمِهِمْ، فَلَمَّا جَاءَ؛ ظَهَرَ صِدْقَ الرِّسَالِ الَّذِينَ قَبْلَهُ، وَتَبَيَّنَ كَذِبُ مَنْ خَالَفَهُمْ، فَلَوْ قَدَرَ عَدَمُ مُجِيبِهِ، وَهُمْ قَدْ أَخْبَرُوا بِهِ؛ لَكَانَ ذَلِكَ قَادِحًا فِي صِدْقِهِمْ. وَصَدَّقَ أَيْضًا الْمُرْسَلِينَ؛ بِأَنْ جَاءَ بِمَا جَاؤُوا بِهِ، وَدَعَا إِلَى مَا دَعَوْا إِلَيْهِ، وَأَمَّنْ بِهِمْ، وَأَخْبَرَ بِصِحَّةِ رِسَالَتِهِمْ وَنُبُوتِهِمْ وَشَرْعِهِمْ.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ وَلَمَّا كَانَ قَوْلُهُمُ السَّابِقُ: ﴿إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾ قَوْلًا صَادِرًا مِنْهُمْ يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ صَدَقًا أَوْ^(١) غَيْرَهُ؛ أَخْبَرَ تَعَالَى بِالْقَوْلِ الْفَصْلَ الَّذِي لَا يَحْتَمِلُ غَيْرَ الصِّدْقِ وَالْيَقِينِ، وَهُوَ الْخَيْرُ الصَّادِرُ مِنْهُ تَعَالَى، فَقَالَ: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ﴾؛ أَي: الْمَوْلُومِ الْمَوْجِعِ، ﴿وَمَا تُعْجِرُونَ﴾: فِي إِذَاقَةِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: فَلَمْ تَظْلِمْنِمُكُمْ، وَإِنَّمَا عَدَلْنَا فِيكُمْ.

وَلَمَّا كَانَ هَذَا الْخَطَابُ لَفْظُهُ عَامًّا، وَالْمُرَادُ بِهِ الْمَشْرُكُونَ؛ اسْتَشْنَى تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ:

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ (٣٨) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٣٩) فَوَكَّاهُمْ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٠) فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ (٤١) عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٢) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكُلِّ فَنٍّ مِّنْ مَّعِينٍ (٤٣) بِيضَاءَ لَذَوِّ الشَّرِيبِ (٤٤) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَرُونَ (٤٥) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٦) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ (٤٧).

﴿٤٠﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾: فَإِنَّهُمْ غَيْرُ ذَائِقِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْلَصُوا لِلَّهِ الْأَعْمَالَ، فَأَخْلَصَهُمْ وَاخْتَصَّهُمْ بِرَحْمَتِهِ وَجَادَ عَلَيْهِمْ بِلَطْفِهِ.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾؛ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل لا يُجهل أمره ولا يُبلغ كنهه، فسره بقوله: ﴿فواكه﴾: من جميع أنواع الفواكه التي تتفكك بها النفس للذتها في لونها وطعمها. ﴿وهم مُكْرَمُونَ﴾: لا مهانون محتقرون، بل معظّمون مَبْجُلُونَ موقّرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهُم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهتئونهم ببلوغ هنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين وجاد عليهم بأنواع الكرامات من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿٤٣﴾ ﴿في جنات النعيم﴾؛ أي: الجنات التي النعيم وصفتها والسرور نعمتها، وذلك لما جمعت مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخل بنعيمها من جميع المكدرات والمنغصات.

﴿٤٤﴾ ومن كرامتهم عند ربهم وإكرام بعضهم بعضاً أنهم على ﴿سُرُرٍ﴾: وهي المجالس المرتفعة المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة المزخرفة الجميلة؛ فهم مُتَكثِرُونَ عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح، ﴿مقابلين﴾: فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، وتعموا باجتماع بعضهم مع بعض؛ فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم وتأذب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾؛ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم بالأشربة اللذيذة بالكاسات الجميلة المنظر المُتَرَعَّة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر، وتلك الخمر تخالف حَمَرَ الدُّنْيَا من كل وجه؛ فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة للشاربين﴾: يلتذ^(١) شاربها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ فلما ذكّر طعامهم وشرابهم ومجالسهم. وعموم النعيم وتفصيله داخل في قوله: ﴿جنات النعيم﴾، لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاق النفوس إليها؛ ذكّر أزواجهم، فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾؛ أي: وعند أهل دار النعيم في محلاتهم القريبة حور حسان كاملات الأوصاف قاصرات الطرف: إما أنها

(١) في (ب): «يلتذّه».

قَصَّرَتْ طَرْفَهَا عَلَى زَوْجِهَا لِعَفَّتِهَا، وَعَدَمِ مَجَاوِزَتِهِ لغيرِهِ، وَلِجَمَالِ زَوْجِهَا وَكَمَالِهِ؛
بِحَيْثُ لَا تَطْلُبُ فِي الْجَنَّةِ سِوَاهُ، وَلَا تَرْغُبُ إِلَّا بِهِ. وَإِنَّمَا لِأَنَّهَا قَصَّرَتْ طَرْفَ زَوْجِهَا
عَلَيْهَا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى كَمَالِهَا وَجَمَالِهَا الْفَائِقِ، الَّذِي أَوْجِبَ لَزَوْجِهَا أَنْ يَقْضِرَ طَرْفَهُ
عَلَيْهَا. وَقْضِرَ الطَّرْفُ أَيضاً يَدُلُّ عَلَى قْضِرِ النَّفْسِ وَالْمَحَبَّةِ عَلَيْهَا، وَكَلَا الْمَعْنِيِّينَ
مُحْتَمِلٌ، وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ.

وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى جَمَالِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَمَحَبَّةِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً مَحَبَّةً لَا
يَطْمَحُ إِلَى غَيْرِهِ وَشِدَّةِ عَفَّتِهِمْ كُلِّهِمْ وَأَنَّهُ لَا حَسَدَ فِيهَا وَلَا تِبَاغُضَ وَلَا تَشَاخُنَ،
وَذَلِكَ لِانْتِفَاءِ أَسْبَابِهِ. ﴿عَيْنٌ﴾؛ أَي: حَسَانُ الْأَعْيُنِ جَمِيلَاتُهَا مَلَاخُ الْحَدِيقِ.
﴿كَأَنَّهُنَّ﴾؛ أَي: الْحُورُ ﴿بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾؛ أَي: مُسْتَوْرٌ، وَذَلِكَ مِنْ حَسَنِهِنَّ
وَصِفَاتِهِنَّ، وَكُونَ أَلْوَانَهُنَّ أَحْسَنَ الْأَلْوَانِ وَأَبَاهَا، لَيْسَ فِيهِ كَدْرٌ وَلَا شَيْنٌ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ٥٠ ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ ٥١ ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ
لِمَنِ الْمَصْدُوقِينَ﴾ ٥٢ ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ ٥٣ ﴿قَالَ هَلْ أُنتُمْ مُّظْلَمُونَ﴾ ٥٤ ﴿فَأَطَاعَ
قِرَاءَهُ فِي سِوَاهِ الْجَحِيمِ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدَتْ لَتُرُونَ﴾ ٥٦ ﴿وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُخْضَرِّينَ﴾
٥٧ ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ﴾ ٥٨ ﴿إِلَّا مَوْلَانَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ ٥٩ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَّ الْفُتُورُ الْعَظِيمُ﴾
٦٠ ﴿لِيُثَلَّ هَذَا فَلَیَعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾ ٦١ ﴿

﴿٥٠ - ٥٩﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى نَعِيمَهُمْ وَتَمَامَ سُرُورِهِمْ بِالْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالْأَزْوَاجِ
الْحَسَنَةِ وَالْمَجَالِسِ الْحَسَنَةِ؛ ذَكَرَ تَذَاكُرَهُمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَمَطَارَحَتَهُمْ لِلْأَحَادِيثِ عَنِ
الْأُمُورِ الْمَاضِيَةِ وَأَنَّهُمْ مَا زَالُوا فِي الْمَحَادَثَةِ وَالتَّسَاوُلِ حَتَّى أَفْضَى ذَلِكَ بِهِمْ إِلَى أَنْ
قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾: فِي الدُّنْيَا يَنْكِرُ الْبَعْثَ وَيَلُومُنِي عَلَى تَصْدِيقِي
بِهِ، وَيَقُولُ لِي: ﴿أَلَيْسَ لِمَنِ الْمَصْدُوقِينَ﴾. إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ؛
أَي: مَجَاوِزُونَ بِأَعْمَالِنَا؟! أَي: كَيْفَ تَصَدَّقُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْبَعِيدِ، الَّذِي فِي غَايَةِ
الِاسْتِغْرَابِ، وَهُوَ أَنَّنَا إِذَا تَمَرَّقْنَا قَصَّرْنَا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا نُبْعَثُ وَنَعَادُ ثُمَّ نَحَاسِبُ
وَنُجَازِي بِأَعْمَالِنَا؛ أَي: يَقُولُ صَاحِبُ الْجَنَّةِ لِإِخْوَانِهِ: هَذِهِ قِصَّتِي وَهَذَا خَبْرِي أَنَا
وَقَرِينِي، مَا زِلْتُ أَنَا مُؤْمِنًا مُصَدِّقًا، وَهُوَ مَا زَالَ مُكْذِبًا مُنْكَرًا لِلْبَعْثِ، حَتَّى مِتْنَا، ثُمَّ
بُعِثْنَا، فَوَصَلْتُ أَنَا إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي أَخْبَرْتُنَا بِهِ الرَّسُلُ، وَهُوَ لَا شَكَّ أَنَّهُ
قَدْ وَصَلَ إِلَى الْعَذَابِ. فَهَلْ ﴿أَنْتُمْ مُّظْلَمُونَ﴾: لِنَنْظُرَ إِلَيْهِ فَنَزِدَادَ غِبْطَةً وَسُرُورًا بِمَا
نَحْنُ فِيهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ رَأْيَ عَيْنٍ؟! وَالظَّاهِرُ مِنْ حَالِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَسُرُورِ بَعْضِهِمْ

ببعض وموافقة بعضهم بعضاً أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له للاطلاع على قرينه. ﴿فَاطَّلِعْ﴾ فرأى قرينه ﴿ففي سواء الجحيم﴾؛ أي: في وسط العذاب وغمراته. والعذاب قد أحاط به، فقال له لائماً على حاله وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيده: ﴿تَاللَّهِ إِنَّ كِذَّاتِ لُتْرَيْنِ﴾؛ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبه بزعمك، ﴿ولو لا نعمة ربِّي﴾: على أن ثبتني على الإسلام ﴿لكنت من المخضرين﴾: في العذاب معك. ﴿أفما نحن بميتين﴾. إلا مؤتتنا الأولى وما نحن بمعديين؟ أي: يقوله المؤمن مبتهجاً بنعمة الله على أهل الجنة بالخلود الدائم والسلامة من العذاب. استفهام بمعنى الإثبات والتقدير. وقوله: ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾، وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يتلذذون بالتحدث به والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال، ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه فوق اللذات الجارية في أحاديث الدنيا؛ فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

﴿٦٠﴾ فلما ذكر تعالى نعيم الجنة ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة؛ مدحه وشوق العاملين وحثم على العمل له، فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الذي حصل لهم به كل خير وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه؛ فهل فوز يُطلب فوقه، أم هو غاية الغايات ونهاية النهايات؛ حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتنعموا بمعرفته، واسترؤوا برؤيته، وطربوا لكلامه؟!

﴿٦١﴾ ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾: فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول بالعمل الذي يقرب لهذه الدار؛ فكيف إذا كان يسير بخطاياهم إلى دار البوار؟!

﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَلَا أَمْ سَجَرَةُ الرَّقْمِ﴾ ١٦ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ ١٧ ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ ١٨ ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ ١٩ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنهَا فَالِقُونَ مِنهَا الْبَطُونَ﴾ ٢٠ ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَبِيرٍ﴾ ٢١ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ ٢٢ ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا بَاطِلَةٌ فَهِيَ صَالِحٌ﴾ ٢٣ ﴿فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ ٢٤ ﴿وَلَقَدْ صَبَّلَ قَبْلَهُمْ أَكْثَرَ الْأَوَّلِينَ﴾ ٢٥ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ

﴿٧٦﴾ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧٦﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾

﴿٦٢﴾ ﴿أذلك خير﴾؛ أي: ذلك النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؛ فأَيُّ الطعامين أولى؟ الطعام الذي وُصِفَ في الجنة، ﴿أم﴾ طعام أهل النار، وهو ﴿شجرة الرُّقُوم﴾؟

﴿٦٣ - ٦٦﴾ ﴿إنا جعلناها فتنة﴾؛ أي: عذاباً ونكالاً ﴿للظَّالِمِينَ﴾: أنفسهم بالكفر والمعاصي. ﴿إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم﴾؛ أي: وسطه؛ فهذا مخرجها ومعينها؛ شرُّ المعادن وأسوأها، وشرُّ المغرس يدل على شرِّ الغراس وخسسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تنبت به وبما ذكر من صفة ثمرتها، وأنها كرؤوس الشياطين؛ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها وما تفعل في أجوافهم وبطنهم. وليس لهم عنها مندوحة ولا مَعْدِلٌ^(١)، ولهذا قال: ﴿فإنهم لا كلون منها فمالئون منها البطون﴾: فهذا طعام أهل النار؛ فبئس الطعام طعامهم.

﴿٦٧﴾ ثم ذكر شرايهم، فقال: ﴿ثم إن لهم عليها﴾؛ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لشوباً من حميم﴾؛ أي: ماء حاراً قد تنهى حره؛ كما قال تعالى: ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مُرتَفَقاً﴾، وكما قال تعالى: ﴿وسقوا ماء حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

﴿٦٨﴾ ﴿ثم إن مرجعهم﴾؛ أي: مآلهم ومقرهم ومآواهم ﴿إلى الجحيم﴾: ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

﴿٦٩ - ٧٣﴾ كأنه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إنهم ألقوا﴾؛ أي: وجدوا ﴿آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾. فهم على آثارهم يُهْرَعُونَ؛ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ. ﴿ولقد ضلُّ قلوبهم﴾؛ أي: قبل هؤلاء المخاطبين ﴿أكثر الأولين﴾: وقليل منهم آمن واهتدى، ﴿ولقد أرسلنا فيهم مُنذِرِينَ﴾: ينذرونهم عن غيرهم وضلالهم، ﴿فأنظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾: كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة؛ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم فيصيبيهم مثل ما أصابهم.

(١) في (ب): «معدن».

﴿٧٤﴾ ولما كان المُنذَرُونَ ليسوا^(١) كلهم ضالِّين، بل منهم مَنْ آمَنَ وأخْلِصَ الدينَ لِلَّهِ؛ استثنَاهُمُ اللهُ مِنَ الهَلَاكِ، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾؛ أي: الذين أَخْلَصَهُمُ اللهُ وَخَصَّهُم بِرَحْمَتِهِ لِإِخْلَاصِهِمْ؛ فَإِنَّ عَوَاقِبَهُمْ صَارَتْ حَمِيدَةً. ثم ذكر نموذجاً من عواقب الأمم المكدِّبين، فقال:

﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَجَعَلْنَاهُ مِنْ أَكْرَبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا أَبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَّمْنَا عَلَى نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿٧٥ - ٨٢﴾ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً؛ أنه نادى ربه، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذُرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا...﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٢). فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه، فقال: ﴿فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾: لدعاء الداعين وسماع تبتُّلهم وتضرُّعهم، أجابه إجابةً طابقت ما سأل، نجاه وأهلكه من الكرب العظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين؛ فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناءً حسناً مستمرّاً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسنٌ في عبادة الخالق، محسنٌ إلى الخلق، وهذه سنته تعالى في المحسنين؛ أن يَنْشُرَ لَهُمُ مِنَ الشَّنَاءِ عَلَى حَسَبِ إِحْسَانِهِمْ، ودلُّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتملٌ على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه؛ لأنَّ الله مَدَحَ بِهِ خَوَاصَّ خَلْقِهِ.

﴿وَإِنِّ مِنْ شَيْعِيهِ لِإِبْرَاهِيمَ^(٣) ﴿٨٢﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٣﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَفَبِكُلِّ عَالِمَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَظَنَرَ نَظْرَةً فِي النَّجُورِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلِكُ الْعَالَمِينَ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾

(١) في (ب): «ليس».

(٢) هذا دعاء لوط عليه السلام على قومه. وأما دعاء نوح: ﴿قال رب انصُرني بما كذبون﴾ [المؤمنون: ٢٦].

(٣) في النسختين: إلى آخر القصة.

مَا لَكُمْ لَا تَطِيعُونَ ﴿٩٣﴾ فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرِيحًا بِالْمَعِينِ ﴿٩٤﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ ﴿٩٥﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَحْسَبُونَ ﴿٩٦﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قَالُوا آبَاؤُنَا لَمْ يَبُنُّوا قَالِقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٨﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٩﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرَىٰ فِي الْمَنَارِ آتِيَكَ أَنَا وَبَنَاتِي مَاذَا تُرَىٰ قَالَ يَا بَنَاتِي أَفَعَلَّ مَا تُوَمَّرُنَّ سَتَجِدُنَّ إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٣﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٤﴾ وَنَدَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٥﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٦﴾ إِنَّكَ هَذَا لَمَوْ الْبَلَّتُوا الْمِيْنَ ﴿١٠٧﴾ وَقَدَيْنَاهُ بِدَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٨﴾ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٠﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ بَنِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ ﴿١١٣﴾ وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٤﴾

﴿٨٣ - ٨٤﴾؛ أي: وإن من شيعه نوح عليه السلام ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة ودعوة الخلق إلى الله وإجابة الدعاء إبراهيم الخليل عليه السلام. ﴿إذ جاء ربه بقلب سليم﴾: من الشرك والشبه والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به. وإذا كان قلب العبد سليماً؛ سليم من كل شر، وحصل له كل خير.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ومن سلامته أنه سليم من غش الخلق وحسد هم وغير ذلك من مساوي الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون؟﴾ هذا استفهام على وجه (١) الإنكار والزام لهم بالحجة. ﴿إنكأ آلهة دون الله تريدون؟﴾ أي: أتعبدون من دون آلهة (٢) كذباً ليست بالآلهة، ولا تصلح للعبادة؟! ﴿فما ظنكم برب العالمين؟﴾: أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟! وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم، وما الذي ظنتم برب العالمين من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء؟!

﴿٨٨ - ٩٣﴾ فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم، ﴿فَنظَرَ

(١) في (ب): «بمعنى».

(٢) كذا في (أ) وفي (ب): «أي تعبدونه آلهة كذباً». ولعل الصواب: «من دونه» أو: «من دون الله».

نظرةً في النجوم. فقال: إني سقيم ﴿١﴾: في الحديث الصحيح: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وقوله عن زوجته: إنها أختي»^(١). والقصد أنه تخلف عنهم ليتّم له الكيد بالهتهم. ولهذا ﴿تولّوا عنه مدبرين﴾، فلما وجد الفرصة؛ ﴿فراغ إلى الهتهم﴾؛ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة، ﴿فقال﴾ متهمًا بها: ﴿إلا تأكلون. ما لكم لا تنطقون﴾؛ أي: فكيف يليق أن تُعبَدَ وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل و﴿تُكلم﴾، وهذه جماد لا تأكل ولا تُكلم؟! ﴿فراغ عليهم ضرباً باليمين﴾؛ أي: جعل يضربها بقوِّته ونشاطه حتى جعلها جذاذاً؛ إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿فأتبلوا إليه يزفون﴾؛ أي: يسرعون ويهرعون؛ يريدون أن يوقعوا به بعد ما بحثوا و﴿قالوا: من فعلَ هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾؟ ﴿وقيل لهم: سمعنا فتى يذكرهم يُقال له: إبراهيم﴾، يقول ﴿تالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولّوا مدبرين﴾. فويخوه ولاموه، فقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون. فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم الظالمون. ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون. قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم... الآية، و﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدون ما تنحتون﴾؛ أي: تنحتونه بأيديكم وتصنعونه؛ فكيف تعبّدونهم وأنتم الذين صنعتموهم، وتركون الإخلاص لله الذي ﴿خلقكم وما تعملون﴾!؟

﴿٩٧ - ٩٨﴾ ﴿قالوا ابنوا له بنياناً﴾؛ أي: عالياً مرتفعاً وأوقدوا فيه النار، ﴿فألقوه في الجحيم﴾: جزاء على ما فعل من تكسير آلهتهم، وأرادوا ﴿به كيداً﴾: ليقتلوه أشنع قتلة؛ ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾: ردّ الله كيدهم في نُحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿٩٩﴾ ﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم؛ ﴿قال إني ذاهب إلى ربِّي﴾؛ أي: مهاجر إليه، قاصدٌ إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سيهدين﴾: يدلّني على^(٣) ما فيه الخير لي من أمر ديني ودنياي. وقال في الآية الأخرى: ﴿وأغترّلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربِّي عسى ألا أكون بدُعاءِ ربِّي شقيّاً﴾.

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٣٥٨)، و«مسلم» (٢٣٧١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ب): «أو». (٣) في (ب): «إلى».

﴿١٠٠﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾: ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾، وذلك عندما أسس من قومه، ولم يَرِ فيهم خيراً؛ دعا الله أن يَهَبَ له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته.

﴿١٠١﴾ فاستجابَ اللهُ له وقال: ﴿فبَشِّرْناهُ بِغلامٍ حَلِيمٍ﴾: وهذا إسماعيلُ عليه السلام بلا شك؛ فإنه ذكر بعده البشارة بإسحاق، ولأنَّ الله تعالى قال في بُشْرانِهِ بِإِسْحاقَ: ﴿فبَشِّرْناها بِإِسْحاقَ وَمِنْ وِراءِ إِسْحاقَ يَعْقوبَ﴾: فدلَّ على أَنَّ إِسْحاقَ غير الذبيح، ووَصَفَ اللهُ إسماعيلَ عليه السلام بالحلم، وهو يتضمَّنُ الصبرَ وحسنَ الخُلُقِ وسَعَةَ الصدر والعفو عَمَّنْ جنى.

﴿١٠٢﴾ ﴿فَلَمَّا بَلَغَ الغلامُ مَعَهُ السَعْيَ﴾؛ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحبَّ ما يكون لوالديه؛ قد ذهبَتْ مَشَقَّتُهُ وأقبلتْ مَنفَعَتُهُ، فقال له إبراهيمُ عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرى فِي المِنامِ أَنِّي أَذْبِحُكَ﴾؛ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا أَنَّ اللهُ يَأْمُرُنِي بِذَبْحِكَ، ورؤيا^(١) الأنبياءِ وحيي. ﴿فانظُرْ ما ذا تَرى﴾؛ فَإِنَّ أَمْرَ اللهِ تعالى لا بدَّ من تَنفِيزِهِ، فقال إسماعيلُ صابراً محتسباً مرضياً لرَبِّهِ وباراً بوالده: ﴿يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ﴾؛ أي: امض لما أَمَرَكَ اللهُ، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شاء اللهُ مِنَ الصابِرِينَ﴾: أَخْبَرَ أباه أَنَّهُ موطَّنُ نَفْسِهِ على الصبر، وَقَرَّنَ ذلكَ بِمَشِيئَةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يكون شيءٌ بدون مشيئةِ اللهِ.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَّا﴾؛ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل: إبراهيم جازماً بقتل ابنه وثمره فؤاديه امتثالاً لأمر ربِّهِ وخوفاً من عقابه، والابن قد وطَّنَ نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربِّهِ ورضا والده، ﴿وَتَلَّهُ لِلجِيبِ﴾؛ أي: تَلَّ إبراهيمُ إسماعيلَ على جيبِهِ لِيُضَجِّعَهُ فيذْبَحَهُ، وقد انكبَّ لوجهه؛ لئلاَّ ينظرَ وقت الذبيح إلى وجهه.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿وناديناها﴾: في تلك الحال المزعجة والأمر المدهش: ﴿أَنْ يا إبراهيمُ. قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا﴾؛ أي: قد فعلت ما أَمَرْتُ به؛ فَإِنَّكَ وَطَّنْتَ نَفْسَكَ على ذلك، وفعلت كلَّ سبب، ولم يبقَ إِلاَّ إمرار السكين على حلقه. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المحْسِنِينَ﴾: في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿إِنَّ هَذَا﴾: الذي امتحننا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾؛ أي: الواضح الذي تَبَيَّنَ به صفاء إبراهيم وكمال محبته لرَبِّهِ وخالته؛ فَإِنَّ إسماعيلَ

(١) في (ب): «ورأي».

عليه الصلاة (والسلام)^(١) لما وَهَبَهُ اللَّهُ لإبراهيم؛ أَحَبَّهُ حُبًّا شَدِيدًا، وهو خليل الرحمن، والخَلَّةُ أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقةً بالمحبيب، فلما تعلقت شعبة من شَعَبِ قَلْبِهِ بابنه إسماعيل؛ أراد الله تعالى أن يُصَفِّي وَدَّهُ ويختبر خُلَّتَهُ، فأمره أن يذبح مَنْ زاحَمَ حُبَّهُ حَبَّ رَبِّهِ، فلما قَدَّمَ حَبَّ اللَّهِ وآثره على هواه وعزم على ذبحه وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبيح لا فائدة فيه؛ فلهدأ قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُو البلاء المبين﴾.

﴿١٠٧﴾ ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾؛ أي: صار بَدَلَهُ ذَبْحٌ من الغنم عظيم ذبحه إبراهيم، فكان عظيمًا: من جهة أنه كان فداءً لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قربانًا وسنةً إلى يوم القيامة.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿وتركنا عليه في الآخرين. سلام على إبراهيم﴾؛ أي: وأبقينا عليه ثناءً صادقًا في الآخرين؛ كما كان في الأولين؛ فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام؛ فإنه فيه محبوبٌ معظَّمٌ مثني عليه. ﴿سلام على إبراهيم﴾؛ أي: تحية عليه؛ كقوله: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿١١٠﴾ ﴿إنا كذلك نجزي المحسنين﴾: في عبادة الله ومعاملة خلقه أن نُفَرِّجَ عنهم الشدائد، ونَجْعَلَ لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿١١١﴾ ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾: بما أمر الله بالإيمان به، الذين بَلَغَ بهم الإيمان إلى درجة اليقين؛ كما قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشّرناه بإسحاق نبيًا من الصالحين﴾: هذه البشارة الثانية بإسحاق؛ الذي من ورثه يعقوب، فَبَشَّرَ بوجوده وبقائه ووجود دُرِّيَّتِهِ وكونه نبيًا من الصالحين؛ فهي بشارات متعددة.

﴿١١٣﴾ ﴿وباركننا عليه وعلى إسحاق﴾؛ أي: أنزلنا عليهما البركة التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من دُرِّيَّتِهِما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من دُرِّيَّةِ إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من دُرِّيَّةِ إسحاق. ﴿ومن دُرِّيَّتِهِما محسنٌ وظالمٌ لنفسه مبين﴾؛ أي: منهم الصالح والظالم، والعادل والظالم، الذي تَبَيَّنَ ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام؛ فإنه لَمَّا قال: ﴿وباركننا

(١) زيادة لا توجد في النسختين.

عليه وعلى إسحاق ﴿١١٤﴾؛ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً. والله أعلم.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٦﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَاكْفَرُوا هُمُ الْفٰكِرِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا نَبَّهْنَاهُمَا الْكُتٰبَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ يذكرُ تعالى مَنته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوئهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم؛ بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكيه. ﴿وتركنا عليهما في الآخرين. سلام على موسى وهارون﴾؛ أي: أبقى عليهما نساء حسناً وتحيّة في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين. ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين. إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَلْقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾.

﴿١٢٣ - ١٣٢﴾ يمدحُ تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له: بعل، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدر عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة من هذا شأنه إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم، وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغبي. ﴿فكذبوه﴾؛ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فإنهم لمحضرون﴾؛ أي:

يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾؛ أي: الذين أخلصهم الله وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُحْضَرِينَ فِي الْعَذَابِ، وَإِنَّمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ جَزِيلُ الشَّوَابِ. ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾؛ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾: ثناءً حسناً. ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾؛ أي: تحية من الله ومن عباده عليه. ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾: فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

﴿وَإِنَّ لَوْطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٦﴾ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٧﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَكِنَّا لَنُرَوِّعُ لَهُمْ مُصِيبِينَ ﴿١٤٠﴾ وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ وهذا ثناء من تعالى على عبده ورسوله لوط بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه ونهيه عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا؛ نجاه الله وأهله أجمعين، فَسَرَوْا لَيْلًا، فَجَازُوا؛ ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ﴾؛ أي: الباقين المعديين، وهي زوجة لوط، لم تكن على دينه. ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾: بأن قلَّبنا عليهم ديارهم فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود حتى همدوا وخمدوا، ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُصِيبِينَ. وبالليل﴾؛ أي: في هذه الأوقات يكثر تردُّدكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والميزة. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: الآيات والعيبر وتزجرون عما يوجب الهلاك؟!

﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٢﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤٣﴾ فَالْتَمَعَ الْمُرْتَ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٤﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٥﴾ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴿فَبَدَّلَ بِالْعَمَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٧﴾ وَأَلْبَسْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٨﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَاقَةَ أَبِي أَوْ زَيْدُونَ ﴿١٤٩﴾ فَفَأَسْأَوْا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٠﴾﴾.

﴿١٣٩﴾ وهذا ثناء من تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى؛ كما أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة والدعوة إلى الله.

﴿١٤٠﴾ وذكر تعالى عنه أنه عاقبه عقوبة دنيوية أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾؛ أي: من ربه مغاضباً له ظاناً أنه لا يقدر عليه ويحبسه

في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه ولا ذنبه الذي ارتكبه؛ لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقبض له ما هو سبب صلاحه. فلما أبق؛ لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾: بالركاب والأمتعة.

﴿١٤١﴾ فلما ركب مع غيره والفلك شاحن؛ ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فاقترعوا على أن من قرع وغلب؛ ألقى في البحر؛ عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً؛ هياً أسبابه، فلما اقترعوا؛ أصابت القرعة يونس. ﴿فكان من المدحضين﴾؛ أي: المغلوبين، فألقى في البحر.

﴿١٤٢﴾ ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾: وقت التقامه ﴿مليماً﴾؛ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿١٤٣ - ١٤٤﴾ ﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾؛ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾؛ ﴿لليث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾؛ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله؛ نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿١٤٥﴾ ﴿فنبذناه بالعراء﴾: بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو سقيم﴾؛ أي: قد سقم ومرض بسبب حبسه في بطن الحوت حتى صار مثل الفرخ المعبوط من البيضة.

﴿١٤٦﴾ ﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾: تظله بظلها الظليل؛ لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، ولهذا من لطفه به وبره.

﴿١٤٧ - ١٤٨﴾ ثم لطف به لطفاً آخر، وامتن عليه منة عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿إلى مائة ألف﴾: من الناس ﴿أو يزيدون﴾: عنها، والمعنى أنهم إن لم يزيدوا عنها؛ لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى، ﴿فآمنوا﴾: فصاروا في موازينه؛ لأنه الداعي لهم، ﴿فمتغنهم إلى حين﴾: بأن صرف الله عنهم العذاب بعد ما انعقدت أسبابه؛ قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتغنهم إلى حين﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكُتُبِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿١٤٩﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾؛ أي: أسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة ورَعَمُوا أَنَّهَا بَنَاتُ اللَّهِ، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله. ﴿الرَّبُّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونَ﴾؛ أي: هذه قسمة ضيزى، وقول جائر من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسمين وأخسهما له، وهو البنات، التي لا يَرْضُونَهُنَّ لَأَنْفُسِهِمْ؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهِ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾، ومن جهة جعلهم الملائكة بنات لله، وحكمهم بذلك.

﴿١٥٠﴾ قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾؛ خَلَقَهُمْ؛ أي: ليس الأمر كذلك؛ فَإِنَّهُمْ مَا شَهِدُوا خَلْقَهُمْ، فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله.

﴿١٥١ - ١٥٧﴾ ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾؛ أي: كذبهم الواضح؛ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. أصطفى؛ أي: اختار ﴿البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون﴾: هذا الحكم الجائر. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: وتميزون هذا القول الباطل الجائر؟ فَإِنَّكُمْ لَوْ تَذَكَّرْتُمْ؛ لم تقولوا هذا القول. ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ﴾؛ أي: حجة ظاهرة على قولكم من كتاب أو رسول، وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَأَتُوا بِكُتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾: فَإِنْ مَنْ يَقُولُ قَوْلًا لَا يُقِيمُ عَلَيْهِ حُجَّةَ شَرِيعَةٍ؛ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ مُتَعَمِّدٌ أَوْ قَائِلٌ عَلَى اللَّهِ بِلا علم.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُوعِينَ ﴿١٦٠﴾﴾.

﴿١٥٨﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسياً؛ حيث رَعَمُوا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، وَأَنَّ أَمَهَاتِهِمْ سَرَواتُ الْجِنِّ! والحال أن الجنة قد علمت أنهم مُحْضَرُونَ بين يدي الله لِيُجَازِيَهُمْ؛ فهم عبادٌ أذلاء؛ فلو كان بينهم

وبيته نسب؛ لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾: الملك العظيم، والكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجب كفرهم وشركهم. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ﴾: فإنه لم يُنزَّه نفسه عما وصفوه به؛ لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

﴿فَالَّذِكْرُ وَمَا تَتَّبِعُونَ ﴿١٦١﴾ مَا آتَيْنَا عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

﴿١٦١ - ١٦٣﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فتقد^(٢) فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى؛ أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

﴿وَمَا مَيَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿١٦٤ - ١٦٦﴾ هذا فيه بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأتهم عباد الله، لا يعصونه طرفة عين؛ فما منهم من أحد إلا وله مقام وتدبير قد أمره^(٣) الله به لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾: في طاعة الله وخدمته، ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾: الله عما لا يليق به؛ فكيف مع هذا يصلحون أن يكونوا شركاء لله، تعالى الله!

﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِإِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُتَّصِرُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّا جُنْدًا لَهُمُ الْعَالِيُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفِعْدَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿١٦٧ - ١٧٠﴾ يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يُظهرون التمني ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين؛ لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة، وهم كذبة في ذلك؛ فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم

(١) في (ب): «لم يكن».

(٢) في (ب): «فينفذ».

(٣) في (ب): «أمر الله».

(٤) في النسختين: إلى آخر السورة.

متمردونَ على الحقِّ. ﴿فسوف يعلمون﴾: العذاب حين يقع بهم.

﴿١٧١ - ١٧٩﴾ ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مردَّ لها ولا مخالف لها لعبادِهِ المرسلين وجندهِ المفليحين أنهم الغالبون لغيرِهِم المنصورون من ربِّهم نصراً عزيزاً يتمكّنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارَةٌ عظيمةٌ لمن اتَّصف بأنَّه من جنِّدِ الله؛ بأن كانت أحواله مستقيمةً، وقاتلَ مَنْ أمرَ بقتالهم أنه غالبٌ منصورٌ. ثم أمرَ رسوله بالإعراض عمَّنْ عاندوا ولم يقبلوا الحقَّ، وأنَّه ما بقي إلاَّ انتظارٌ ما يحلُّ بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وأبصرهم فسوف يبنصرون﴾: مَنْ يحلُّ به التكالُّ؛ فإنَّه سيحلُّ بهم. ﴿فإذا نزلَ بساحتهم﴾؛ أي: نزلَ عليهم وقريباً منهم، ﴿فساء صباحُ المُنذرين﴾؛ لأنَّه صباحُ الشرِّ والعقوبة والاستصال. ثم كرَّر الأمر بالتولِّي عنهم وتهديدهم بوقوع العذاب.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من أحوالهم الشنيعة التي وصَّفه بها؛ نزَّة نفسه عنها، فقال: ﴿سبحانَ ربِّك﴾؛ أي: تنزَّه وتعالى، ﴿ربُّ العرَّة﴾؛ أي: الذي عزَّ فقهر كلَّ شيء، واعتزَّ عن كلِّ سوءٍ يصفونه به، ﴿وسلامٌ على المرسلين﴾: لسلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسموات. ﴿والحمدُ لله ربِّ العالمين﴾: الألف واللام للاستغراق؛ فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة والأفعال التي ربَّى بها العالمين وأدَّرَ عليهم فيها النعم وصرَّف عنهم بها النقم ودبَّرهم تعالى في حرَّكاتهم وسكونهم وفي جميع أحوالهم كلُّها لله تعالى؛ فهو المقدَّس عن النقص، المحمودُ بكلِّ كمال، المحبوبُ المعظَّم، ورسلهُ سالمون مسلمٌ عليهم، ومن اتَّبَعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة، وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الصافات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣^(١).

على يد جامعِهِ وكاتبِهِ عبد الرحمن بن ناصر السعدي.

وصلَّى الله على محمدٍ وسلم تسليماً. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات^(٢).

(١) في (ب): «تم تفسير سورة الصافات في ٢٥ رجب ١٣٤٥».

(٢) في (ب): «تم تفسير المجلد السادس من تفسير الشيخ عبد الرحمن الناصر العبد الله بن سعدي غفر الله له ورحمه، وذلك في أربع وعشرين من رجب سنة ألف وثلاثمائة وخمس وأربعين، بقلم الفقير إلى ربه محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل، على خط مؤلفه وجامعه شيخنا الشيخ عبد الرحمن جزاه الله خيراً. أمين. وصلَّى الله على نبيه وسلم».